السيرة النبوية



مولد الرسول ﷺ

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كانا بيتين متجاورين خلف الكعبة ، أحدهما بيت زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، قريش العظيم ؛ والآخر بيت أخيه قُصى أول بنى كعب بن لؤى ، أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسدانة والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها ، ولما أرادت قريش البنيان قالوا لقصى :

ـــ كيف نصنع فى شجر الحرم ؟

فحذرهم قطعه وخوفهم العقوبة فى ذلك ، فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون فى منزله .

وجمع قصى قريشا حول الحرم فسمته مجمعا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فى داره يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع (تلبس الدرع) جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا فى داره يشق عليها فيها درعا ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره فى قومه كالدين المتبع لا يعمل بغيره .

وشرف بيتا الشقيقين زهرة وقصى وظلت أواصر المحبة متينة بين أبناء العم ، وذهب زهرة وذهب قصى فإذا بدار زهرة تضيق بأبنائه وإذا بدار قصى تضيق بأولاد عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصى وتخمر

وبرة ، فابتنى أولاد زهرة دورا حول دار أبيهم وابتنى أبناء قصي دورا حول دار أبيهم . وقامت دور بنى زهرة إلى جوار دور بنى قصى وكانت ألوية السلام ترفرف على الجميع .

ولد عبد مناف أربعة نفر : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان وذهب كل مذهب ، وكان عبد العزى قد ذاع صيته ، وكان عبد قصى قد علا ذكره ، ولم يكن خاملا من أبناء قصى إلا عبد الدار بكره ، فلما كبر قصى أشفق على عبد الدار وأراد أن يلحقه بإخوته فقال له :

ـ أما والله يا بنى لألحقتك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ؛ لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دارك .

وأعطاه داره دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة والسقاية والرفادة ؛ وفتح قصى بتلك الوصية أبواب الشحناء بين أولاده .

ورأى بنو عبد مناف أنهم أولى من بنى عبد الدار بالحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار . فتفرقت عند ذلك قريش ، طائفة مع عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل يرون أنهم أحق بذلك الشرف من بنى عبد الدار وكان بنو زهرة منهم ، وطائفة مع عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل لهم .

وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم عند

الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها و لم يتأخر أحد من بني زهرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ..

كان بنو زهرة وبنو عبد مناف من المطيبين ، وكان بنو زهرة قد تأهبوا لخوض غمار الحرب لمساندة عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل . وكانوا على استعداد لأن يجودوا بدمائهم من أجل بني عبد مناف ، لولا أن الفريقين المتنازعين قد تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت .

وكان عبد شمس رجلا سفارا قلما يعيش بمكة ، فولى هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية وسن الرحلتين لقريش : رحلتى الشتاء والصيف . وقدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدى بن النجار فربط الأسباب بين مكة والمدينة واليمن ، فقد كانت سلمى من الخزرج ، وكان الأوس والخزرج من اليمن .

وولد لهاشم شيبة وعرف بعبد المطلب ، فكان عبد المطلب جماع حضارة قريش وحضارة يثرب ومدينة سبأ .

ووقعت العداوة بين هاشم وبين أخيه أمية بن عبد شمس ، فقد كان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق ، يتلألأ وجهه بالنور ويضرب بجوده المثل . وأراد أمية أن يتشبه به فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش ، فكانت المنافرة بين هاشم وأمية ، وقد حكم الحكم الذى احتكما إليه أن يخرج أمية من مكة عشر سنين وأن تذبح إبله ويطعمها الناس فكانت أول عداوة بين هاشم وأمية . وقد ورث بنو هاشم فيما ورثوا عدواتهم لبني أمية ، وقد وقف بنو زهرة إلى جوار هاشم وسخروا فيمن سخر بأمية ابن أخيه .

وذاع صيت هاشم حتى طغى على صيت قصي فعرفت داره بدار هاشم

وعرف الحى الذى أقام فيه بنوه من بعده بحى هاشم . وظل اسم زهرة علما على قومه و لم يطغ عليه صيت أحد من بنيه وإن أنجب أشرافا كما أنجب قصى أشرافا ، وقد صار هاشم وزهرة أفضل حيين فى العرب .

كانت دور بنى هاشم إلى جوار دور بنى زهرة ، وقد صار عبد المطلب سيد بنى هاشم وزعيم قريش ، وانتهى أمر بنى زهرة إلى وهب ووهيب . وقد تزوج وهب برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى ، وعلى الرغم من زواجه حفيدة عبد الدار فقد كان قلبه مع عبد المطلب حفيد عبد مناف . وقد كان الود متصلا بين وهب ووهيب وعبد المطلب سيد قريش فما كان ينقضى يوم دون أن يجتمعوا فى دار الندوة أو فى ظل الكعبة أو فى دار من دورهم يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم .

وفتحت دار عبد المطلب وخرج منها زعيم قريش يحف به أبناؤه الحارث والزبير وحَجْل والمقدَّم وضرار وعبد العزى ــ وقد عرف بأبى لهب لإشراق وجهه ــ وعبد مناف الذى عرف بأبى طالب . فقد رأى عبد المطلب يوم كان يقوم بحفر زمزم وحده أن ابنه الوحيد الحارث أعجز من أن يصد عنه قومه الذين أتوا ليمنعوه من أن يحفر بين صنميهما إساف ونائلة ، فوطن النفس على أن يتزوج فى بيوتات قريش لتكون له عصبة منهم يؤيدونه ويناصرونه ، فتزوج فى بنى نزار وتزوج فى بنى مخزوم وتزوج فى بنى مرة بن كعب بن لؤى وتزوج فى بنى قصى بن كلاب ، فجمع بيوت قريش على قلب رجل واحد .

وكان عبد المطلب قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة . إنه ليذكر ذلك النذر ولا ينساه . وقد توافى بنوه عشرة بعد أن وضعت له فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن

غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابنه عبد الله ، بيد أن عبد الله لم يبلغ الحُلم بعد فعاش عبد المطلب ينتظر أن يبلغ عبد الله مبلغ الرجال ليفى بنذره .

وانطلق عبد المطلب إلى الكعبة وكان مديد القامة أبيض مشربا بحمرة حسن الوجه يتألق بالنور وعز الملك ، يطيف به من حضر من بنيه كأنهم أسد غاب ، ويسير خلفهم عبيدهم من فرس وروم وأحباش فقد كانت تجارة أسرى الحرب أروج تجارة ، وكان الإقبال على شراء الرقيق الأبيض من الجنسين شديدا ، فالرجال آلة جيدة من آلات التجارة والصناعة فهم أهل حضارة وعلم ، والنساء بارعات الحسن يشعلن نار الصبابة فى قلوب رجال الصحراء .

وبلغ عبد المطلب وبنوه الحرم فراحوا يطوفون بالكعبة . حتى إذا ما أتموا الطواف انطلق عبد المطلب إلى فراش معد له فى ظل البيت العتيق وجلس عليه ، وجلس أبناؤه حوله بعيدا عن ذلك الفراش فما كان يجلس عليه أحد غيره احتراما له وإجلالا لقدره .

وجاء أمية بن عبد شمس وابنه حرب ، وكان أمية قصير القامة نحيف الجسم وكان فى رفقته ابنه حرب ، وكان حرب نديم عبد المطلب قلما يفترقان وإن كانت الغيرة من عبد المطلب تنهش قلب أمية ، فقد ذهب أبوه هاشم بالشرف يوم أن حكم له الكاهن الذى ذهبا إليه ليحكم بينهما أيهما أعز نفرا وأكثر فضلا . وها هو ذا عبد المطلب يذهب بالشرف كما ذهب به أبوه من قبل ، فلقد دعاه الناس « شيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له ، ودعوه بالفياض لجوده ، ومطعم طير السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رءوس الجبال ، وقد أسلس قومه له القيادة يفزعون إليه فى النوائب ويلجئون إليه فى الأمور .

كان أمية يؤمن فى قرارة نفسه أنه أحق بزعامة قريش من هاشم عمه ، وإنه لعلى يقين من أن ابنه حرب أحق بزعامة قريش من عبد المطلب بن هاشم . فإن كان عبد المطلب يطعم الناس فإن نيرانه ونيران ابنه حرب تظل مشمسة طوال الليل تدعو الضيف إلى حيث الكرم والجود ، وإن كان عبد المطلب يبعث بقوافل قريش إلى بلاد فارس وبلاد الروم واليمن فإن ابنه حرب ينطلق بالتجارة إلى العراق ، وقد توطدت الصداقة بينه وبين أشراف الحيرة حتى إنه تعلم الكتابة منهم .

ازدهرت التجارة فى مكة وخرجت القوافل تجوب الآفاق تحمل الأقمشة والمعادن والجلود والعطور والأصباغ والجواهر والأصواف والحلى ، وقد حل المكيون محل التجار اليمنيين بعد أن استولى أبرهة على اليمن وشل تجارتها . وأصبح تجار مكة يحملون حرير فارس إلى بلاد الروم بعد أن وقعت البغضاء بين كسرى أنو شروان إمبراطور إيران ويوسطنيانوس إمبراطور الروم وقطعت سبل الاتصال بين إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب . فإن كانت الأموال قد تدفقت على مكة فإن الظروف السياسية فى المنطقة قد خدمت عبد المطلب ، وإن ابن أخيه حرب قد بذل جهدا ضخما فى ثراء مكة .

كان أمية بن عبد شمس يحس كأن عبد المطلب قذى فى عينيه ولكن ابنه حرب كان يحب عبد المطلب . ولم يكن قد مرضت نفسه من ابن هاشم بعد . فلما رأى عبد المطلب انجفل إلى مجلسه بينا ذهب أبوه أمية إلى الملتزم ، إلى حيث كان الكتاب يبرمون العقود ويكتبون المواثيق .

وراح عبد المطلب وحرب بن أمية يتناجيان ، حتى إذا ما جاء وهب ووهيب وبعض رجال زهرة من التجار الذين كانوا يجوبون أسواق مصر

وبصرى والشام دار الحديث حول أخبار تلك البلاد ، فقال الذى كان يأتى بالأثواب المنسوجة فى تانيس والمصوغات المجلوبة من منف :

— إن أهل مصر فى ضيق فقد وضع قيصر عليهم ضرائب باهظة ، وهم يقاسون ذل الاضطهاد فإذا كانوا على دين النصارى مثلهم مثل الروم فالاختلاف بينهم فى الدين شديد ..

وراح الرجل يتحدث عن أوجه الخلاف فى الدين بين أقباط مصر وبين نصارى الروم ، فالأقباط على المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح بينا الرومان يؤمنون بلاهوت المسيح وناسوته وبالتثليث . وكان العرب على علم بدين الروم . فقد كان للرومان بيوت تجارية فى مكة وكانت تلك البيوت تقوم بالتجارة وبالتجسس على أحوال العرب ، فقد كان أبرهة الأشرم يتطلع إلى غزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والروم ، فيتحقق بذلك حلم الرومان الذى أخفق فى تحقيقة أوليوس غاليوس يوم أن اتهم صالح وزير ملك النبط بالخيانة وبتضليل جيش الرومان فى الصحراء .

وراح حرب بن أمية يتحدث عن عرب دومة الجندل وعن صديقه بشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وعن انتشار الكتابة هناك ، وأصغى عبد المطلب وبنوه ومن عنده من الرجال إلى حديث القلم العربى فى الحيرة والأنبار وفى دومة الجندل فى عجب وإعجاب ، ولا غرو فقد طمر الزمن حقيقة نشأة القلم العربى فما دار بخلد أحد من السمَّار أنه على بعد خطوات منهم منذ ألفين ومائتين من السنين قد نشأ القلم العربى عند بئر زمزم ، فى تلك الأيام التى كانت هاجر المصرية تعلم ابنها إسماعيل مبادىء الكتابة والقراءة ، وإن إسماعيل قد كتب الجمل موصولة ، وأن ابنه قيدار قد فصل بينها ، وأن أبناء إسماعيل حملوا معهم ذلك القلم يوم أن خرجوا من مكة

ليتفسحوا فى الأرض إلى دومة الجندل وإلى صحراء سيناء وإلى أرض النبط . وقد ازدهر ذلك القلم فى البتراء وانتشر فيما حولها من البلاد ثم عاد مرة أخرى إلى مكة بعد أن تهذب ليصبح قلم قريش وينتظر النبأ العظيم .

ودار الحديث حول الفرس وكسرى أنو شروان وعدله وكرمه ، وراح الحاضرون يقصون بعض نوادر كرمه فقال قائل منهم :

ـــ قعد كسرى أنو شروان ذات يوم فى المهرجان ووضعت الموائد . ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم ، وقام الموكلون بالموائد على رءوس الناس وكان كسرى بحيث يراهم .

فلما فرغ الناس من الطعام جاءوا بالشراب فى آنيته الفضية وجامات الذهب ، فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية فى آنية الذهب . فلما انصرف الناس ورفعت الموائد أخذ بعض القوم جاما ذهبا فأخفاه فى خبائه وأنو شروان يلحظه ، فصرف وجهه عنه . وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح : لا يخرجن أحد من الدار حتى يفتش .

فقال كسرى : « لا تتعرض لأحد » . وأذن للناس فانصرفوا ، فقال صاحب الشراب : « أيها الملك إنا فقدنا بعض آنية الذهب » . فقال الملك : « قد أخذها من لا يردها عليك ، وقد رآه من لا ينم عليه » .

وجاء رجل يهودى يسعى حتى إذا بلغ مجلس عبد المطلب ألقى التحية ثم جلس ، فقد كان فى جوار عبد المطلب وفى حمايته ، وقد كانت مكة تفيض باليهود ونصارى الروم والأحباش الذين يشرفون على تجارتهم فى المدينة المقدسة التى يحج إليها العرب ويأتون إليها من كل فج عميق ، وكانوا يمارسون ديانتهم فى حرية فقد كانت كل العبادات تمارس فى مكة .

شب عبد المطلب فى يثرب فى كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ،

وكان فى صباه يدور على حوانيت اليهود فى السوق فى النهار ويمضى بعض الأمسيات يصغى إلى حديث الدين ، فاعتنق بعض آراء اليهود دون أن يدرى ، فلما بدأ عبد المطلب يتحدث أسفر عن أثر اليهود فى معتقداته قال :

— لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبه .

فقال اليهودى فى فرح :

— صدقت .

كانت اليهودية قد فسدت بعد أن حمل بختنصر اليهود أسرى إلى بابل ، فقد نسوا الآخرة والبعث بعد الموت وما دعاهم إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، واعتنقوا معتقدات البابليين وقالوا بما كان يقول البابليون من أن المرء يثاب على عمله فى الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وأنكروا البعث والقيامة والحساب فى الدار الآخرة .

وراح أحد الحاضرين يؤيد رأى عبد المطلب فقال :

— إن هى إلا حياتنا الدنيا .

وأخذ اليهودى طرف الحديث وراح يحدث أخبار بنى إسرائيل فصار قطب الرحى فى مجلس أشراف قريش وسادتها ، وضايق ذلك حرب بن أمية فنهر اليهودى وأغلظ له فرمى عبد المطلب حرب بن أمية بنظرة قاسية فهمها حرب ، فقد كانت تقول فى فصاحة قد يعجز عنها اللسان : « إنه فى جوارى وإنى لا أسمح لك أن تنهره فى مجلسى » . فنهض حرب بن أمية وقد لاح فى وجهه الغضب ، ثم انصرف لا يلوى على شىء .

٢

كانت العداوة مستعرة الأوار بن عرب الفرس وعرب الروم . فإن كان عمرو بن هند ملك الحيرة قد أصبح فى الغابرين وإن كان الحارث بن جبلة ملك الغساسنة قد لحق بآبائه ، فإن قابوس أخا عمرو بن هند كان أول ما فكر فيه بعد أن صار ملك الحيرة أن يغزو الشام وأن يأسر المنذر بن الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وحليف الروم .

تولى قابوس الحكم وهو رجل مسن حنكته التجارب وعركته الأيام ، ولكنه لم يفكر فى أن يجمع شمل العرب بأن يعقد صلحا بينه وبين عرب الشام ويوحد صفوف الحيرة وغسان ليصبح للعرب قوة تهابها فارس وتخشاها الروم ، بل عمل على فرقة العرب وإشعال نار البغضاء فى النفوس فجمع جيوشه وخرج من الحيرة قاصدا عرب الشام . وقد كان على علم بالطريق فإنه قد حمل حملة انتقامية على الغساسنة فى أيام أخيه .

وأغار الشيخ قابوس على الشام وأعمل القتل فى الرجال وسبى ما وقع فى يده من النساء وأسر الشباب ليبيعهم فى أسواق الحيرة وفارس ويثرب ومكة ، وغنم غنائم كثيرة ثم قفل عائدا وهو يحلم برضا كسرى أنو شروان إمبراطور الفرس العظيم .

وأفاق المنذر بن الحارس بن جبلة من هول المفاجأة فجمع جيوشه وخرج فى أثر عدوه يطير على جناح الكراهية حتى لحق به ، فالتحم عرب الحيرة بعرب الشام ودارت معركة رهيبة سالت فيها دماء العرب على الأرض إرضاء

لكسرى وقيصر ، ولم يتمكن قابوس من الثبات فانهزم هزيمة منكرة وفر هو ومن سار معه من الناجين فى اتجاه نهر الفرات ، تاركا عددا من الأمراء اللخميين أسرى فى أيدى المنذر .

واقتفى جيش الشلم أثر جيش الحيرة فقد كان المنذر يطمع فى أن يقضى على غريمه فى المعركة ، ولكن قابوس كان قد نجح فى انسحابه فى أن يدخل مملكته . فلما رأى المنذر أنه أصبح على ثلاث مراحل من الحيرة وأنه قد أخذ من قابوس أموالا كثيرة وعددا من الجمال كبيرا آثر أن يعود منتصرا ليرضى بنصره يوسطانيوس قيصر الروم .

كان قابوس يبغى من حروبه وجه كسرى ، وكان المنذر بن الحارث يبغى وجه قيصر ، وكانت دماء العرب تسيل أنهارا إرضاء لكسرى وقيصر . وكان كل من كسرى أنو شروان ويوسطانيوس راضيا عن تلك الحروب كل الرضا فقد كانت توهن العرب وتمنع كلاب الحراسة من أن يتحولوا إلى أسد غاب ينقضون على قلب الفرس وقلب الروم .

وجلس قابوس فى قصره الخورنق يفكر فى أمره : إنه هزم من المنذر بن الحارث هزيمة تجرح النفس وتدمى القلب ولن يذوق الراحة قبل أن يثأر لهزيمته ويعيد للحيرة كرامتها . وطار فكره إلى المدائن عاصمة فارس فقد كانت قبلة ملوك الحيرة ، كما كانت القسطنطينية قبلة ملوك الشام .

آه لو كان عدى بن زيد العبادى فى الحيرة لانطلق معه إلى المدائن ولفتحت لهما أبواب قصر كسرى ، فما كان كسرى أنو شروان يرد لعدى طلبا . ولكن عدى فى جفير فى البحرين ينعم برياضها ومائها ومنازعها ، وإنه ليشتو فى الحيرة ويأتى المدائن فى خلال ذلك فيخدم كسرى .

وشرد قابوس يفكر فى عدى ، فإذا بالسنين تطوى فى ذهن الملك الشيخ

وإذا بالأحداث تترادف على رأسه فتتفتح الرؤيا لعين الخيال ، وإذا بتاريخ قد طوته السنون يبعث فى نفس الملك المتهالك على أعتاب فارس .

وكان منزل أيوب بن محروف بن عامر بم عُقيَّة بن امرىء القيس بن زيد بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ، جد عدى فى اليمامة ، فأصاب دما فى قومه فهرب فألحق بأوس بن قلام أحد بنى الحارث بن كعب بالحيرة . وكان بين أيوب بن محروف وبين أوس بن قلام هذا نسب من قبل النساء . فلما تقدم عليه أيوب أكرمه وأنزله فى داره فمكث معه ما شاء الله أن يمكث ، ثم إن أوسا قال له :

— يا بن خال ، أتريد المقام عندى وفى دارى ؟

— نعم . علمت أنى إن أتيت قومى وقد أصبت فيهم دما لم أسلم ، وما لى دار إلا دارك آخر الدهر .

— إنى قد كبرت وأنا خائف أن أموت فلا يعرف ولدىَ لك من الحق مثل ما أعرف ، وأخشى أن يقع بينك وبينهم أمر يقطعون فيه الرحم ، فانظر أحب مكان فى الحيرة إليك فأعلمنى به لأقطعكه أو أبتاعه لك .

فابتاع له موقع داره بثلثمائه أوقية من ذهب وأنفق عليها مائتى أوقية ذهبا ، وأعطاه مائتين من الإبل برعائها وفرسا وقينة . فمكث فى منزل أوس حتى هلك ثم تحول إلى داره التى فى شرق الحيرة . واتصل أيوب بالملوك الذين كانوا بالحيرة وعرفوا حقه وحق ابنه يزيد ، وثبت أيوب فلم يكن منهم ملك يملك إلا ولولد أيوب منه جوائز وحُملان .

وتزوج زيد بن أيوب امرأة من آل قلام فولدت حمَّادا . فخرج زيد بن أيوب ذات يوم يريد الصيد فى ناس من أهل الحيرة فانفرد فى الصيد وتباعد من أصحابه ، فلقيه رجل من بنى امرىء القيس الذين كان لهم الثأر قبل أبيه فعرف

فيه شبه أيوب ، فقال له :

ــ ممن الرجل ؟

ــ من بنى تميم .

ــ من أيهم ؟

ــ مرئى (نسبة إلى امرئ القيس) .

ــ وأين منزلك ؟

ــ الحيرة .

ــ أمن بنى أيوب أنت ؟

ــ نعم ، ومن أين تعرف بنى أيوب ؟

واستوحش من الأعرابى وذكر الثأر الذى هرب أبوه منه ، فقال الأعرابى فى خبث :

ــ سمعت بهم .

ولم يعلمه أنه عرفه ، فقال له زيد بن أيوب :

ــ فمن أى العرب أنت ؟

ــ أنا امرؤ من طيئ .

فأمنه زيد وسكت عنه .

ثم إن الأعرابى اغتفل زيد بن أيوب فرماه بسهم فوضعه بين كتفيه ففلق قلبه ، فلم يبرح حافر دابته حتى مات .

ومكث حماد فى أخواله حتى أيفع فخرج ذات يوم يلعب مع غلمان بنى لحيان ، فلطم اللحيانى عين حماد فشجه حماد ، فخرج أبو اللحيانى فضرب حمادا فجزعت من ذلك أم حماد وحولته إلى دار زيد بن أيوب وعلمته الكتابة فى دار أبيه ، فكان حماد أول من كتب من بنى أيوب فخرج من أكتب الناس .

وطلب حتى صار كاتب النعمان الأكبر ، فلبث كاتبا له حتى ولد له ابن من امرأة تزوجها من طيئ فسماه زيدا باسم أبيه ، وكان لحماد صديق من الدهاقين (التجار) العظماء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسنا إلى حماد ، فلما حضرت حمادا الوفاة أوصى بابنه إلى زيد الدهقان وكان من المرازبة ، فأخذه الدهقان إليه فكان عنده مع ولده .

كان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يأخذه الدهقان ، فعلمه لما أخذه الفارسية وكان لبيبا ، فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على البريد فى حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زمانا . ثم إن النعمان النصرى اللخمى هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصّبه ، فأشار عليهم المرزبان بزيد بن حماد فكان على الحيرة إلى أن ملَّك كسرى المنذر بن ماء السماء .

وتزوج زيد بن حماد نعمة بنت ثعلبة العدوى فولدت له عديًّا ، وملك المنذر وكان لا يعصيه فى شيء . وولد للمرزبان ابن فسماه « شاهان مَرْدْ » فلما تحرك عدى بن زيد وأيفع طرحه أبوه فى الكتَّاب ، حتى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه « شاهان مرد » إلى كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية .

وقال الشعر وتعلم الرمى بالنشاب فخرج من الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها . ثم إن المرزبان وفد على كسرى ومعه ابنه « شاهان مرد » فبينما هما واقفان بين يديه إذ سقط طائران على السور فتطاعما كما يتطاعم الذكر والأنثى ، فجعل كل واحد منقاره فى منقار الآخر

فقال كسرى للمرزبان وابنه :

ـــ ليرم كل واحد منكما واحدا من هذين الطائرين فإن قتلماهما أدخلتكما بيت المال وملأت أفواهكما بالجوهر ، ومن أخطأ منكما عاقبته .

فاعتمد كل واحد منهما طائرا منهما ورميا فقتلاهما جميعا ، فبعثهما إلى بيت المال فملئت أفواههما جوهرا . وأثبت « شاهان مرد » وسائر أولاد المرزبان فى صحابته ، فقال فروخ ماهان عند ذلك للملك :

ـــ إن عندى غلاما من العرب خلفه أبوه عندى فربيته ، فهو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، والملك محتاج إلى مثله ، فإن رأى أن يُثبته فى ولدى فعل .

ـــ ادعه .

فأرسل إلى عَدىٍّ بن زيد وكان جميل الوجه فائق الحسن وكانت الفرس تبرك بالجميل الوجه ، فلما كلمه الملك وجده أظرف الناس وأحضرهم جوابا ، فرغب فيه وأثبته مع ولد المرزبان . فكان عدى ـــ حفيد عدنان ـــ أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى . فرغب أهل الحيرة إلى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمدائن فى ديوان كسرى يؤذن له عليه فى الخاصة وهو معجب به قريب منه ، وأبوه زيد بن حماد يومئذ حى ، إلى أن ارتفع ذكر عدى وخمل ذكر أبيه ، فكان عدى إذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدى ، فعلا له بذلك صيت عظيم ، فكان إذا أراد المقام بالحيرة فى منزله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر والشهرين وأكثر وأقل .

وأرسل كسرى عدى بن زيد إلى ملك الروم بهدية من طُرَف ما عنده ، فلما أتاه عدى بها أكرمه وحمله إلى عماله على البريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه ، فمن ثم وقف عدى بدمشق وقال فيها الشعر .

وفسد أمر الحيرة وعدى بدمشق حتى أصلح أبوه بينهم ، لأن أهل الحيرة كان عليهم المنذر أرادوا قتله لأنه كان لا يعدل فيهم وكان يأخذ من أموالهم ما يعجبه ، فلما تيقن أن أهل الحيرة قد أجمعوا على قتله بعث إلى زيد بن حماد وكان قبله على الحيرة فقال له :

ـــ يا زيد أنت خليفة أبى وقد بلغنى ما أجمع عليه أهل الحيرة فلا حاجة لى فى ملككم دونكموه ملكوه من شئتم .

فقال له زيد :

ـــ إن الأمر ليس إلىّ ، ولكنى أسيرُ لك هذا الأمر ولا آلوك نصحا .

فلما أصبح غدا إليه الناس فحيوه تحية الملك وقالوا له :

ـــ ألا تبعث إلى عبدك الظالم فتريح منه رعيتك .

وفهم زيد أنهم يعنون المنذر فقال لهم :

ـــ أولا خير من ذلك ؟

ـــ أشر علينا .

ـــ تدعونه على حاله فإنه من أهل بيت مُلك، وأنا آتيه فأخبره أن أهل الحيرة قد اختاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور .

ـــ رأيك أفضل .

فأتى المنذر فأخبره بما قالوا ، فقبل ذلك وفرح وقال :

ـــ إن لك يا زيد علىّ نعمة لا أكفرها ما عرفت من حق سبد .

وكان سبد صنما لأهل الحيرة ، فولى أهل الحيرة زيدا على كل شىء سوى اسم الملك فإنهم أقروه للمنذر .

ثم هلك زيد وابنه عدى يومئذ بالشام ، وكانت لزيد ألف ناقة كان أهل

الحيرة أعطوه إياها حين ولوه ما ولوه ، فلما هلك أرادوا أخذها فبلغ ذلك المنذر فقال :

ـــ لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان فى يد زيد شىء ، وأنا أسمع الصوت .

ثم إن عديا قدم المدائن على كسرى بهدية قيصر ، فصادف أباه والمرزبان الذى رباه قد هلكا جميعا ، فاستأذن كسرى فى الإلمام بالحيرة فأذن له فتوجه إليها . وبلغ المنذر خبره فخرج فتلقاه الناس ورجع معه وعدى أنبل أهل الحيرة فى أنفسهم ولو أراد أن يملكوه لملكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعب على الملك فمكث سنين يبدو فى فصل السنة ، فيقيم فى جفير ويشتو بالحيرة ويأتى المدائن فى خلال ذلك فيخدم قيصر .

وكان المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان بن المنذر فى حجر عدى بن زيد فهم الذين أرضعوه وربوه ، وكان للمنذر ابن آخر يقال له « الأسود » أمه مارية بنت الحارث بن جلهم من تَيْم الرباب ، فأرضعه ورباه قوم من أهل الحيرة يقال لهم مرينا ينسبون إلى لخم وكانوا أشرافا .

وكان للمنذر سوى هذين من الولد عشرة ، وكان ولده يقال لهم « الأشاهب » من جمالهم . وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيرا ، وأمه سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل فدك على بعد يومين من المدينة .

ومرت الأيام وقدم عدى بهدية من كسرى إلى المنذر والنعمان يومئذ فتى شاب ، وبعد أن قدم عدى هدية كسرى إلى المنذر دخل البيعة ليصلى لله فى الوقت الذى دخلت فيه هند بنت النعمان .

كانت هند من أجمل نساء أهل زمانها وكانت مديدة القامة عبلة الجسم ولها حينئذ إحدى عشرة سنة ، فرآها عدى وهى غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها ،

وقد كان جواريها رأين عديا وهو مقبل فلم يقلن لها كي يراها عدى .

ورأت هند عديا ينظر إليها فشق ذلك عليها وسبت جواريها ونالت بعضهن بضرب ، فوقعت هند فى نفس عدى فلبث حولا لا يخبر بذلك أحدا .

وجاءت جارية من جواريها إليها وراحت تزين لها بيعة توما وتصف لها من فيها من الرواهب ومن يأتيها من جوارى الحيرة وحسن بنائها وسرجها ، ثم قالت لها .

ـــ سلى أمك الإذن لك فى إتيانها .

فسألتها ذلك فأذنت لها ، وبادرت الجارية إلى عدى فأخبرته الخبر فبادر فلبس قباء كان « فرخانشاه مرد » قد كساه إياه وكان مذهبا لم ير مثله حسنا ، وكان عدى حسن الوجه مديد القامة حلو العينين حسن المبسم نقى الثغر ، وأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة فدخل البيعة ، فلما رأته الجارية قالت لهند :

ـــ انظرى إلى الفتى ! فهو والله أحسن من كل ما تريدين من السرج وغيرها !

ـــ ومن هو ؟

ـــ عدى بن زيد .

ـــ أتخافين أن يعرفنى إن دنوت منه لأراه من قريب ؟

ـــ ومن أين يعرفك وما رآك قط من حيث يعرفك !

فدنت منه وهو يمازح الفتيان الذين معه وقد برع عليهم بجماله وحسن كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، فذهلت لما رأته وبهتت تنظر إليه ، وعرفت الجارية ما بها وتبينته فى وجهها فقالت لها :

ـــ كلميه .

فكلمته وانصرفت وقد تبعته نفسها وهويته وانصرف وقد شغف بها

حبا . فلما كان الغد تعرضت له الجارية فلما رآها هش لها وكان قبل ذلك لا يكلمها ، وقال لها :

— ما غدا بك ؟

فعاهدته على أن تحتال له فى هند ، ثم تركته فأتت هندا فقالت :

— أما تشتهين أن ترى عديا ؟

— وكيف لى به ؟

— أعده فى ظهر القصر وتشرفين عليه .

— افعلى .

فواعدته إلى ذلك المكان فأتاه ، وأشرفت هند عليه فكادت تموت وقالت :

— إن لم تدخليه إلَىَّ هلكت .

فبادرت الأمة إلى النعمان فأخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد شغفت به وأنه إن لم يزوجها به افتضحت فى أمره أو ماتت ، فقال لها :

— ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك !

— هو أرغب فى ذلك من أن تبدأه أنت ، وأنا أحتال فى ذلك من حيث لا يعلم أنك عرفت أمره .

وأتت عديا فأخبرته الخبر وقالت :

— ادعه ، فإذا أخذ الشراب منك فاخطب إليه فإنه غير رادك .

— أخشى أن يغضبه هذا فيكون سبب العداوة بيننا .

— ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه .

فصنع عدى طعاما واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان فسأله أن يتغدى عنده هو وأصحابه ففعل ، فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان فأجابه وزوجه

وضمها إليه بعد ثلاثة أيام .

طافت كل هذه الأحداث برأس الملك قابوس وهو جالس فى مكانه ثم غمغم : « ذلك عدى بن زيد وقد تزوج فيها ، وهذه مكانته فى بلاط كسرى . إنه سيعاونني ولا ريب وسيلتمس من كسرى أن يجهزنى لقتال المنذر بن الحارث بن جبلة حليف الروم » .

وتأهب الشيخ قابوس للسفر إلى المدائن وهو يحلم باستقبال رائع كذلك الاستقبال الذى قوبل به الحارث بن جبلة فى القسطنطينية ، ترى أيخرج كسرى أنو شروان لاستقباله كما خرج يوسطانيوس لاستقبال الحارث ؟

ووصل قابوس إلى عاصمة فارس فإذا بضابط عظيم فى استقباله ، وبعد أن حياه فى إجلال قاده إلى قاعة العرش ليقابل « الإنسان الأول » . فما كان أحد ليجرؤ أن ينادى الملك باسمه أو لقبه ، فملوك الساسانيين من الكائنات الإلـٰهية .

وفتح باب قاعة العرش ونادى الحارس الواقف بالباب بصوت جهورى :

— الملك المبجل قابوس ملك الحيرة .

ودخل قابوس يحف به رجال القصر فإذا بكسرى أنو شروان على عرشه وعلى رأسه التاج من الذهب محلى بالجواهر والياقوت الذى رصع به يشع عظمة ، وقد أحيط بصف من اللآلئ كانت تلمع فوق التاج وقد انعكس نورها المتموج على ألوان الزمرد الزاهية ، فلما وقعت عينا قابوس على ذلك التألق وقعتا على عجب محير .

وكان كسرى يلبس سروالا مزخرفا بالذهب منسوجا باليد على لون السماء ، وكان العرش محمولا على الخيول ذات الأجنحة ، وعلى بعد عشرة أذرع جلس الأساورة وأبناء الملوك وكان عدى بن زيد فيهم . وعلى بعد عشرة

أذرع من هذه الطبقة جلست بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

وتقدم قابوس من العرش حتى إذا ما أصبح على بعد خطوات من كسرى جذب من كمه ششتقة بيضاء نقية غطى بها فمه ليمنع أنفاسه من تلويث الأشياء المقدسة ووقاية لجلال الملكية ، ثم بدأ حديثه بالتحية ، وتمنى أن يحقق الله رغبات قدسية الملك الطاهر والإنسان الأول .

وأجلس كسرى أنو شروان الملك قابوس ملك الحيرة إلى جواره ثم راح يسأله عن رحلته وعن حالة بلاده وجيشه ، فأخذ قابوس يصف ما لقى من كرم رجال الملك الطيب أينما نزل ، وراح يصف حال بلاده وحال جيشه الذى يريد أن يقويه ليغزو أهل الشام نكاية فى قيصر ، وكان يقول بين كل جملة وجملة « خلدك الله » أو « حقق الله رغبات قدسيتكم » ليستميل كسرى أنو شروان وينال رضاه وعطفه .

وانتقل كسرى وقابوس إلى مائدة الملك ، وكان عن يمين كرسى الملك كرسى من الذهب وكرسيان آخران من الذهب عن يساره وورائه ، فأحد هذه الكراسى الثلاثة كان خاصا بملك الصين ، والثانى لملك الروم ، والثالث لملك الخزر ، بحيث إنهم إذا أتوا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسى . وهذه الكراسى الثلاثة توضع طول السنة ، فلم تكن ترفع ولا يجرؤ أحد على الجلوس عليها ، ولكن كسرى أجلس قابوس عن يمينه إكراما له وتعظيما .

وكان أمام العرش كرسى من ذهب جلس عليه البزرك فرمادار — ومن تحته كراسى حجزت للمرازبة والعظماء ، وكان لكلّ كرسى خاص حسب مكانته .

وأمر كسرى بالتأهب للخروج للصيد إكراما لقابوس ، فراح الأساورة

والموبدان موبد وخاصة الملك يعرضون دوابهم على صاحب دواب الملك ، لأنه لا ينبغى أن يكون حصان أحدهم بليدا أو كثير النفور أو العثار أو الجماح ، فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره .

ولما كان ينبغى على الحصان ألا يروث أو يبول أو يتحصن أو يتشعب فى حضرة الملك فقد امتنع الأساورة عن أن يطعموا دوابهم ، ففى الغد سيخرجون مع الملك وضيفه إلى رحلة صيد ، وكانت مصاحبة الملك فى رحلة واجبا ثقيلا وشرفا غير مساغ عند عظماء مملكته !

وخرج كسرى وقابوس وعدى بن زيد للصيد ، وقد كانت فرصة طيبة لقابوس فاهتبلها وحدث الملك الطيب عن رغبته فى تقوية جيشه ليغزو المنذر ابن الحارث بن جبلة حليف قيصر ، وقد شد عدى بن زيد أزر قابوس حتى إن كسرى وعد بمعاونة ملك الحيرة وتجهيزه لقتال عرب الشام .

وعاد قابوس إلى عاصمة ملكه وقد تدفقت الدماء حارة فى عروق الشيخ وراح قلبه يخفق بالكراهية لعرب الروم ، وما كاد يستقر فى قصر الخورنق حتى أصدر أوامره بتجهيز الجيوش للخروج لقتال الغساسنة .

وراح العرب يتأهبون لسفك دماء العرب . أما من رجل رشيد من العرب يوحد صفوفهم لوجه الله لا لوجه كسرى ولا لوجه قيصر ؟!

٣

خرجت آمنة بنت وهب ، وابنة عمها هالة بنت وهيب ، وبعض بنات بني زهرة وصبيانهم ، وبعض بنات بني هاشم وصبيانهم ، من دورهم ليلعبوا على روابي مكة وفي وديانها ، وانطلقوا في طرقات مكة الضيقه يضحكون في براءة الملائكة . وإن هي إلا خطوات حتى أشرفوا على الكعبة ، فقد كانت الدور تحيط بالحرم تقترب منه أو تبتعد عنه لما لكل أسرة من مكانة ومقام ، فكان بنو زهرة وبنو هاشم أقرب أهل مكة إلى البيت المقدس فقد كانا أشرف حيين من العرب .

كانت الشمس قد أشرقت فغمرت أشعتها الدور التي انتشرت على سفوح الجبال المحيطة بأول بيت وضع للناس ، وبدأت الحياة تدب في الوادي المقدس فانحدر الناس ليطوفوا بالبيت العتيق قبل أن ينصرفوا إلى أعمالهم . واستقبل غلام من بني زهرة قرص الشمس وقد أخذ بين سبابته وإبهامه سنا له قد سقطت ، ثم قذف بها وهو يقول :

ـــ يا شمس ، أبدليني بسن أحسن منها ، ولتجر في ظلمتها آياتك .

وضحكت آمنة وغلمان بني زهرة وبني هاشم ثم انطلقوا كفراشات طليقة إلى الصفا ووقفوا فوقه ينظرون إلى الكعبة وإلى بئر زمزم وإلى قوافل الحجاج التي بدأت تفد على مكة ، فقد دنا موسم الحج . ولمح أحدهم قافلة قادمة من ناحية الطائف فصاح في فرح :

ـــ قافلة عبد المطلب ، جاءت بالتمر والزبيب .

كان عبد المطلب يأتى بالتمر والزبيب من حر ماله ويضعها فى ماء زمزم ليسقى الحجيج تقربا إلى الله ، وقد كان غلمان قريش ينهلون فى الموسم من أحواض الماء القريبة من الحرم التى وضع فيها التمر والزبيب ، كانوا يجدون سعادة فى مزاحمة الحجاج على الماء فقد كانوا يحسون إحساس من بدأ كفاح الحياة لأول مرة .

وانحدرت آمنة من فوق الصفا ، وانحدر معها لداتها ، وراحت تهرول بين الصفا والمروة كما يفعل الحجاج ، تشبها بهاجر لما كانت تهرول بينهما بحثا عن الماء لتنقذ وحيدها إسماعيل من الموت عطشا قبل أن يفجر الله له زمزم . وكانت آمنة سعيدة فى سعيها ، رقيقة كنسيم الصبا ، متفتحة كزهرة الربيع ، تستشعر على الرغم من حداثة سنها أنها من أشرف بيت من بيوت قريش ، إلا أنها لم تكن تحس فى أعماقها أنها أشرف من وطئت قدماها الرمال التى وطأتها قدما هاجر أم العرب ، فإن كان لهاجر فضل تكوين المجتمع المكى حول زمزم . فمنها سينبعث النور الذى سيخرج من مكة ليغمر وجه الأرض كلها .

واتخذت آمنة وبنات بنى زهرة وبنى هاشم وغلمانهم طريقهم إلى الكعبة ، وقد نصب الحمس قبابهم الحمر بين الصفا وباب الحرم ، وكانت القباب من الأدم ، فالحمس فى الأشهر الحرم لا يغزلون صوفا ولا وبرا ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر . إنهم أبناء الحرم المتزمتون فى دينهم لا يعظمون شيئا من الأرض التى وراء الحرم ، وقد تركوا الوقوف على عرفة لأنه خارج عن الحرم واكتفوا بالوقوف بالمزدلفة .

وكان الحمس يقولون : لا نطوف فى الثياب التى قارفنا فيها الذنوب ، ولا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، ولا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ، فكانوا

يعيرون الناس ثيابا جديدة أو يبيعونها للقادرين . وكان الفقراء يطوفون بالبيت عرايا ، أما من يطوف بثيابه فقد كان عليه أن يطرحها بعد الطواف حتى تبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وزمجرة الرياح .

ودخلت آمنة ولداتها الحرام . كان أمامهم مقام إبراهيم وباب الكعبة وعن شمائلهم بئر زمزم ، فانطلقوا إلى البئر ليطفئوا عطشهم ثم ذهبوا ليطوفوا بالبيت مع الطائفين .

وكانت الأصنام منصوبة فى الكعبة ومن حولها ، وكان الناس يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وكانت آمنة تنظر إلى الأصنام فى ريبة فجدها أبو كبشة قد كفر بالأصنام جميعا وعبد كوكب « الشعرى العبور » وهو من نجوم الجوزاء ، وقد سخر من عبادة الأصنام التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وقد سمعت آمنة ولا ريب من رجال الأسرة ونسائها بدعوة أبى كبشة وما سنه للعرب من عبادة الكواكب وتسفيه أحلام قومه .

كانت مكة قد انتقلت من مرحلة الورع إلى مرحلة الخرافة فراح أهلها ينسجون حول كل ظواهر الطبيعة أسطورة . فقالوا إن الشعرى العبور كانت و « شعرى الغميصاء » و « سهيل » مجتمعة ، لذلك يقال للشعريات أختا « سهيل » ، فانحدر سهيل فصار يمانيا ، واتبعته العبور فعبرت « المجرة » ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت ، وذلك هو سبب أن الشعرى العبور أشد ضياء من الشعرى الغميصاء التى أضعف البكاء نور عينها .

كانت آمنة تحس راحة كلما لاذت بالحرم وانشراحا يملأ وجدانها ونورا ينتشر فى جوانب نفسها ، وأن قلبها الصغير قد اتسع ليحتوى الكون كله ، فهى تستشعر تناسقا مع الوجود وتعاطفا مع كل ما تقع عيناها عليه .

وحانت من آمنة التفاتة فرأت مجلس عبد المطلب وقد جلس حوله أبناؤه العشرة كأنهم أسد غاب ، وقد كان عبد الله فيهم فطافت بذهنها حقيقة لم تفطن إليها من قبل ؛ إن الدنيا لا تثبت على حال ، فعبد الله منذ عهد قريب كان بين غلمان بنى هاشم يلعب معهم فى الحجون ويجرى بين الصفا والمروة وينطلق معهم إلى السوق ، وها هو ذا اليوم قد بلغ مبلغ الرجال وجلس بين سادات قريش شريفا من أشرف بيت ، ترى ماذا يسمع عبد الله من حديث وماذا يقول فى مثل ذلك المجلس الجليل !؟

وضم عبد المطلب ابنه عبد الله إلى صدره فى حب ، فقد كان عبد الله أصغر بنيه وأحبهم إلى قلبه ، وتوجت شفتى عبد الله ابتسامة رقيقة فبدا لآمنة أن وجه الدنيا كلها قد أشرق بالابتسام ، وأحست آمنة أنها ليست وحدها التى ترسل النظر إلى عبد الله فقد لمحت رقيقة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى أخت ورقة بن نوفل ، واقفة عند حجر إسماعيل تختلس النظر إلى عبد الله .

كان ورقة بن نوفل قد تنصر بعد أن كفر بأوثان قومه وطلب الدين فى الآفاق ، فكان يعكف على التوراة و الإنجيل وديانات الأقدمين ، حتى إذا ما دخلت عليه أخته رقيقة راح يحدثها عن الدين ويقول لها فيما يقول :

— إنه كائن فى هذه الأمة نبى .

فكانت رقيقة تحلم بأن تكون أم ذلك النبى المنتظر ، وكانت تقلب بصرها فى وجوه شباب قريش كأنما كانت تبحث عن وجه والد ذلك النبى ، وقد كانت رقيقة ذات فراسة فاستراحت إلى وجه عبد الله .

وأقبل وهب سيد بنى زهرة ووهيب أخوه على مجلس عبد المطلب وجلسا ، وراح وهب يحادث عبد المطلب وقد أخذ بذقنه ملاطفا ، ورأته آمنة فقالت لهالة :

ـــ قد جاء أبى وأبوك .

والتفتت هالة فوقعت عيناها على أبيها وهيب وقد راح يحادث أمية بن حرب بن عبد شمس نديم عبد المطلب زعيم قريش ، فلاح فى وجهها خوف فابتعدت وقد اتخذت طريقها ناحية الباب الذى يفضى إلى سوق مكة ، وفتيات بنى زهرة وبنى هاشم وغلمانهم فى أثرها .

وخرجت آمنة وهالة والذين معهما إلى سوق مكة وكان سقيفة قد حجبت أشعة الشمس الحامية ، وقد انتشرت على جانبى السوق حوانيت التجار التى غصت بالأقمشة المصنوعة فى تانيس والحلى المجلوبة من منف والحرير الوارد من فارس والطرف السورية .

وراحت ذرية زهرة وهاشم يتفرسون فى وجوه الناس الذين كانت السوق تموج بهم ، كانوا عربا ونصارى ويهودا وسوريين ومصريين وأحباشا ورومانيين قد عرفوا الراحة والاستقرار فى مكة ، بعد أن ذاقوا مرارة الاضطهاد فى بلادهم .

كانت السوق قد ازدحمت بكل أجناس الأرض ، تترد فى جنباتها لغات متباينة ، فكان أهل مكة يلتقطون كلمة من هنا وكلمة من هناك فتثرى بذلك لغتهم ، ويقتبسون ما يروق لهم من حضارة الشعوب التى جاء أبناؤها إليها مختارين يلتمسون الأمن ، أو جاءوا إليها كارهين فى ركاب تجار الرقيق الذين كانوا يبيعون أسرى الحروب فى أسواق العرب ، فازدهرت حضارة مكة ، وانتشر الترف فى بيوت أغنيائها .

ووقفت آمنة وابنة عمها ومن معهما أمام صائغ ينظرن إلى ما يصنع من حلى فى إعجاب ، كان الصائغ يهوديا وكان الذهب فى مناجم بنى سليم استخرجه العرب وجلبوه إلى مكة ليصنع منه الحلى أو ليضرب سبائك ذهبية للذين

يكنزون الذهب والفضة .

وظلوا يجوسون خلال السوق حتى أحسوا التعب يمشى فى أوصالهم ، فقفلوا عائدين إلى دورهم يقصون على أهلهم فى فرح ما فعلوا فى يومهم وما صادفوا من أحداث جذبت انتباههم ، وقد حسبوا أن الأيام كلها لعب ولهو وزينة .

ومرت الأيام والأشهر والسنون وآمنة تعيش بين أهلها ومع لداتها حياتها السعيدة الرتيبة ، وفى ذات يوم رأت أبويها يتناجيان بعيدا عنها ، ثم رأت أمها تقبل عليها وتقول لها :

ــ سيأخذك أبوك يا آمنة إلى دار الندوة .

دار الندوة ؟! إنها لحظة حاسمة فى حياتها ، إنها الفاصل بين طفولتها الحرة الطليقة وبين شبابها المحجوب فى خدرها ، لقد انتهت أيام انطلاقها كفراشة إلى روابى مكة وربوعها كما انتهت من قبل أيام لعب عبد الله معهم ، لقد أصبحت شابة وخلفت طفولتها البريئة دبر أذنها كما أصبح عبد الله فتى من فتيان قريش يتطلع إلى مستقبله .

وتأهبت آمنة للانطلاق إلى دار الندوة مع أبيها فراحت تتحرك فى تؤدة ، فقد أحست فجأة نضجا فى جسمها وفى عقلها وإن كانت رهبة غامضة قد انتشرت فى جوفها . وجاء أبوها وأخذها وانطلق بها إلى الكعبة .

والتقى وهب وآمنة ووهيب فى الحرم وراحوا يطوفون بالكعبة سبعة أشواط ، ثم ذهبوا إلى دار الندوة وقد كانت لبنى عبد الدار بن قصى ، فكانوا يقومون بمراسم الزواج والختان والفصل بين الناس فى قضاياهم ، وإن كان عبد المطلب زعيم قريش وصاحب السقاية والرفادة .

وتقدمت آمنة من المكلف بمراسيم حجب فتيات مكة فشق قميصها ثم

حجب به وجهها ، فكان ذلك إيذانا بأن آمنة قد حجبت ولن تقع عليها بعد اليوم إلا عيون المحارم من أهلها .

وتقدمت هالة وشق قميصها وحجبت ، ثم عادت آمنة وهالة إلى دور بنى زهرة وقد ضرب عليهما الحجاب وحيل بينهما وبين شباب الأسرة وبين شباب الأسر القرشية التى كانت تتبادل الزيارات مع بنى زهرة .

وجاءت سودة عمة وهب إلى داره فخف إليها نساء بنى زهرة وفتياتها يرحبن بها وإن كانت زرقاء قبيحة الصورة ، فقد كانت كاهنة قريش ، وكانت تخبرهم بما ستأتى به الأيام .

كانت سودة تنظر فى النجوم وكانت تكثر من الصيام حتى تشف روحها وتنسلخ نفسها من البشرية إلى الروحانية ، وكانت تجتهد فى الاتصال بالملأ الأعلى لتأتى بخبر السماء ، وقد صدق بعض ما تنبأت فقالت قريش : « إنها تنظر بنور الله » .

وجلست سودة وجلس نساء بنى زهرة حولها وتعلقت بها العيون وأرهفت الآذان ، فراحت سودة تتفرس فى وجوه الجالسات عندها ثم قالت :

— إن فيكم يا بنى زهرة نذيرة أو تلد نذيرا ، فأعرضوا علىّ بناتكم .

وخفقت القلوب فى الصدور وزاغت الأبصار ، وساد السكون برهة وإن تحركت فى النفوس الأمنيات ، فقد كانت كل أم فى بنى زهرة تتمنى أن تكون ابنتها هى النذيرة أو التى ستلد ذلك النذير .

وقدمت أم هالة ابنتها إلى سودة وقد أرهفت حواسها وتعلقت كل آمالها بكاهنة قريش الزرقاء القميئة ، فراحت سودة تتفرس فى هالة وتتحدث فى طلاقة كأنما كانت تقرأ فى كتاب مفتوح . إنها تحدثها عن زواجها بسيد من سادات قريش قد شرف فى قومه حتى انقادت له الزعامة ، وعن ولدها

الشهيد ، وعن أشياء رائعة كثيرة ، ولكنها لم تقل لها إنها النذيرة أو من ستلد ذلك النذير .

وعرضت أمهات بنى زهرة بناتهن على سودة فراحت كاهنة قريش تتنبأ بمستقبل كل فتاة وقد ساد المكان ترقب وقلق ولهفة ، فما من فتاة من اللاتى عرضن عليها كانت النذيرة أو التى ستلد النذير .

وقدمت برة بنت عبد العزى ابنتها آمنة إلى سودة ، فراحت الكاهنة تتفرس فى آمنة وتنظر فى منخارها وتقلب النظر فيها ، وسيطر على المكان سكون رهيب ، ولاح فى وجه الكاهنة الاهتمام الشديد وكتمت أنفاسها برهة ، ثم راحت تشهق وتزفر فى صوت مسموع وقطبت جبينها ، وسرعان ما انبسطت أساريرها وظهر عليها طمأنينة عجيبة لكأنما قد ألقى الخبر فى روعها وأضاء ظلام نفسها ، وتحركت شفتاها وإذا بالنسوة كلهن آذان واعية قالت :

ـــ هذه هى التى ستلد النذير .

وسرى صوت سودة عذبا رقيقا لكأنما كان صوت القدر ، وصوبت العيون إلى آمنة فأطرقت حياء وإن كانت أهازيج الفرح تدوى فى جنباتها .

٤

مات يوسطنيانوس إمبراطور الروم وخلفه على العرش يوسطينوس الثانى الذى كان متزوجا من صوفيا ابنة أخت تيودورا ممثلة الأوبرا الكوميدية التى صارت إمبراطورة الدولة الرومانية ، والتى قامت بأهم دور فى البلاط الرومانى قبل أن تجود بأنفاسها .

وتجددت الحروب بين الكتلتين المتنازعتين على سيادة العالم : الكتلة الفارسية بقيادة كسرى أنو شروان والكتلة الرومانية بقيادة الإمبراطور يوسطينوس الثانى . وامتشق عرب الحيرة الحسام لقتال عرب الشام ، وسار قابوس على رأس جيشه لغزو المنذر بن الحارث بن جبلة ، ودارت رحى الحرب وانتصر المنذر بن الحارث ملك الغساسنة على قابوس ملك الحيرة فعاد قابوس يلعق جراحه ويتأهب لإعادة الكرة واستئاف القتال .

واشتعلت نار العداوة بين الشرق والغرب ، وانقسم العالم إلى معسكرين : دول تؤيد فارس ودول تؤيد الرومان . وقد كانت الحبشة وأبرهة الأشرم فى اليمن ممن يؤيدون الروم فقد كانوا جميعا على دين واحد وإن اختلفوا فى المذاهب بين قائلين بوحدة طبيعة المسيح وقائلين بالتثليث ولاهوت المسيح وناسوته .

ونزلت الكوارث على الرومان فقد انتصر الفرس على الروم نصرا مؤزرا وانقضت قبيلة جديدة من البرابرة الآفار على الإمبراطورية الرومانية من الشمال وعزت قبيلة اللومبارد فى الغرب من إيطاليا ، فبدا أن الإمبراطورية الرومانية تترنح تحت ضربات أعدائها .

ورأى يوسطينوس أن يلجأ إلى حليفه أبرهة ليحارب الفرس ليخفف الضغط عنه ، فبعث إليه يلتمس منه أن يتحرك لمناوأة فارس ليشغلها من تسديد الضربات القاتلة إلى الدولة الرومانية حامية الدين المسيحى ، ففكر أبرهة فى تلك الدعوة فوجد أنه إن لم يتحرك فستفرغ فارس من حرب القسطنطينية ثم توجه جيوشها إلى اليمن لتقويض ملكة ، فرأى أن من الحكمة أن يتحرك وأن يؤيد يوسطينوس وأن يسير إليه حتى تتصل جيوش أبرهة النصرانية بجيوش نصارى الشام ونصارى القسطنطينية ،ومن ثمّ تتجه جميعا إلى المدائن لتطعن قلب المجوس طعنة لا تقوم لفارس بعدها قائمة .

وراح أبرهة يدبر تنفيذ خططه : إنه سيزحف بجيشه على الحجاز ولن تستطيع قوة من قوى القبائل المتناثرة بأرض العرب أن تقف فى وجهه . سيستولى على مكة ثم ينطلق منها إلى يثرب ثم يزحف إلى الشام لتلتقى جيوشه بجيوش المنذر بن الحارث بن جبلة ، وفى أرض الشام تتجمع جيوش أبرهة وجيوش المنذر وجيوش يوسطينوس ومنها تخرج جيوش النصارى حاملة الصليب لغزو فارس فى عقر دارها .

واستراح أبرهة إلى تدبيره فسيحقق مجد الدنيا وعز الآخرة ، سيدفع عن مملكته شر الفرس وسيقوض كعبة العرب وينشر دين النصارى فى مكة كما نشره فى اليمن .

كان أبرهة قد اتخذ صنعاء عاصمة لملكته فى اليمن وبنى فيها كنيسة فخمة رائعة ، وقد استذل أهل اليمن فى بنائها وجعل ينقل إليها فى قصر بلقيس رخاما وأحجارا وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صلبانا من ذهب وفضة ، وجعل فيها منابر من عاج وآبنوس ، وجعل ارتفاعها عظيما جدا واتساعها باهرا . وقد كان أبرهة يحلم بأن تكون تلك الكنيسة نواة لدولة مسيحية كبرى فى اليمن

تنداح حتى تغطى وجه الجزيرة العربية كلها .

وكان التفاؤل يملأ جوانح أبرهة فكتب إلى نجاشى الحبشة : « إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب » .

وكان أبرهة يطمع فى أن تنافس كنيسته كعبة العرب ، ظن أنه يستطيع بالترهيب والترغيب أن يوجه حجاج العرب إلى صنعاء لتجنى اليمن ما تجنيه مكة من حجاج بيت الله . ولكن العرب أعرضوا عن كنيسته وانطلقوا إلى الحرم من كل فج عميق تهتز بتلبيتهم جبال مكة .

وحنق أبرهة على عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا فى دينه ، ولجوا فى العناد فأولوا كنيسته ظهورهم وقوضوا حلمه الجميل الذى كان يصور له أنه يستطيع أن يحقق أغراضه السياسية عن طريق دخول العرب فى المسيحية أفواجا . فلو أنهم قبلوا النصرانية لمد سلطانه على الحجاز دون قتال ، أما وإنهم قد أبوا أن يعتنقوا دينه وظلوا على وثنيتهم فلم يعد أمامه إلا أن يعلن الحرب على مكة مركز إشعاعهم الدينى ، وأن يهدم الكعبة إرضاء لغروره وتحقيقا لهدفه السياسى .

وجاء إلى صنعاء جواسيس أبرهة من أحباش وروم والتفوا بأبرهة وراحوا يقصون عليه أنباء مكة ، فألقى إليهم سمعه وراح يفكر قليلا فيما سمع فأشرق وجهه بابتسامة عريضة ، فمكة ليس بها تحصينات وأهلها لا قبل لهم به . إن هى إلا وثبة واحدة وتكون كعبتها أنقاضا تذروها الرياح .

كان أبرهة يدبر لتدمير مكة وكانت مكة آمنة ، الناس من كل بلاد العرب يطوفون ببيتها العتيق والسلام يرفرف عليها ، فزعيمها عبد المطلب ينفر من استخدام القوة ويحرص على أن يحل جميع مشاكل مجتمعه بالطرق السلمية ،

فإذا ما حدث بينه وبين أحد خصام التجأ إلى طريق التحكيم ، طريق السلام ، فهو زعيم قبيلة تجارية مصلحتها فى إقرار السلام ضمانا لأمن قوافلها التى تجوب الآفاق شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

كانت كل أسرة من الأسر المكية فى جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، ولكنها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شيء ، فتجمعت حول الحرم لأغراض اجتماعية واقتصادية ودينية وأسلست قيادتها لسادات أسرها العريقة . وراحت جميع الأسر تعمل على أن تجنى خيرات الأرض إلى الوادى المقدس ، وعلى أن يسود الأمن الحرم ، فكان ذلك التجمع هو وحدة التنظيم السياسى الطبيعية للمجتمع المكى ، « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وكانت نيران الحرب مشتعلة فى فارس وفى الحيرة وفى الشام وفى الدولة الرومانية . وكان أبرهة يجمع وقودها بينا كانت النيران على قمم جبال مكة لترشد قوافل التجارة إلى سبلها . وقد أرسل عبد المطلب قوافل قريش إلى فارس وإلى أنطاكية وإلى غزة وإلى مصر وإلى الحبشة ، فقد كانت علاقته طيبة بكل ممالك الشرق الأوسط وجنوب الجزيرة العربية على الرغم من العداوات الناشبة بين تلك الدول .

كانت قوافل قريش إذا ما أهل رجب ترتحل إلى عدن والشحْر فتقيم فى عدن أيام رمضان فتشترى التجارات وأنواع الطيب ، ومنها يرتحلون إلى سوق صنعاء وكانت تقوم فى النصف من رمضان إلى آخره . وكان عبد المطلب يؤثر الخروج فى هذه الرحلة فقد كان له أصدقاء من سادات اليمن .

وراحت قريش تتأهب لرحلة الشتاء فأناخ الرجال ألفين من البعير خارج الحرم ، وانطلق العبيد من أحباش وروم وفرش ينقلون على أضواء المشاعل

السلع من مخازن ساداتهم إلى ظهور الإبل ، وقد غص المكان بشباب قريش وشيوخها ونسائها فما من رجل أو امرأة موسرة إلا وله نصيب فى القافلة .

وانتشر فى المكان الصيارفة يقرضون المحتاجين بالربا ، وجلس الكتاب يعقدون العقود ويبرمون المواثيق ، وعلى مرمى حجر من قطار الإبل ضربت البغايا خيامهن وجاء طلاب اللذة بالخمر . وسال عرق الفقراء يروى الصحراء بينا كان أشراف قريش فى أحضان الغانيات المتطلعات إلى ما فى جيوبهم من ذهب وفضة .

وجلجلت ضحكات المجون تشق الفضاء ، ومزقت أنات المكدودين سكون البيداء ، وامتزجت آهات اللذة بآهات التعب برغاء الإبل بضوضاء الصيارفة والمضاربين وصياح النسوة اللاتى تترقرق الحياة فى وجوههن فى الأسواق ويطل الجشع من أعينهن كلما رأين الأثرياء ، حتى نال النصب من الجميع فارتموا على الأرض وأنفاسهم مبهورة يترقبون طلوع الصباح .

وأشرقت الشمس واستأنف الرجال تجهيز القافلة ، بينا انسحب سمار الليل وندماء البغايا وحلفاء الكأس إلى دورهم ليستريحوا بالنهار حتى يستطيعوا أن يستأنفوا إطفاء شهوة الجسد متسربلين بالظلام .

وتم تجهيز القافلة ، وجاء عبد المطلب يحيط به أبناؤه العشرة رجالا أشداء كتماثيل الذهب ، ثم راح يودعهم حتى إذا ما أقبل عبد الله ضمه إلى صدره فى حنان وقبله قبلة أودعها كل حبه ، ثم أذن بالرحيل ففصلت العير وانطلقت فى قطار طويل لم تشهد مكة له مثيلا ، فقد بلغ عدد الإبل ألفين وعدد الرجال ثلاثمائة .

وبلغت القافلة الشحر فنزلت بسوقها ، كانت الأشجار وارفة الظلال والأرض قد أخذت زخرفها وازينت ، فالخضرة تمتد إلى الآفاق والجداول

تتدفق من الجبال كأنها شرايين الحياة وروعة الطبيعة تسر القلب ، فقد كانت الأمطار تغسل كل شيء وتبعث الحياة فى الأرض الميتة ، ثم تجرى فى أودية اليمن إلى مأرب وتفرش شواطئها بالزهور والثمار .

ونعم رجال قريش يطيب المقام ، كانوا يشتغلون بالنهار بالتجارة ويتسامرون بالليل مع رجال قضاعة ، فقد كان ثلاثة أبطن من قضاعة مُجْتَوِرين بين الشحر وحضر موت ، بنو ناعب وبنو داهن ، وبنو رئام ، أقلهم عددا وأشجعهم لقاء .

وسقط الليل وجلس الرجال إلى الرجال ، ودار الحديث حول الكهان فقد كانت الكهانة والعرافة تستولى على ألباب الناس ، وقد كان الرجال يهرعون إلى الكهان أينما كانوا وعلى أى دين كانوا ، فقد كان بهم شوق إلى الاطلاع على الغيب ، وكانوا يثقون فى الكهان ثقة لا حد لها حتى إنهم كانوا يفزعون إليهم لفصل خصوماتهم ومنازعاتهم ، أو إذا حزبهم أمر .

وراح سيد من سادات قضاعة يتحدث فقال فى زهو :

ــ كانت لبنى رئام عجوز تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكان يدخل على خويلة أربعون رجلا كلهم لها مَحْرم : بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذات يوم فى عُرس لهم وهم سبعون رجلا كلهم شجاع بئيس ، فطعموا وأقبلوا على شرابهم ، وكانت زبراء كاهنة فقالت لخويلة :

ــ انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم .

فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالا لها فقالت :

ـــ يا ثمر الأكباد ، وأنداد الأولاد ، وشجا الحساد ! هذه زبراء تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلام ، بالمُؤْبِد (الداهية) الشنعاء ، فاستمعوا ما تقول !

قالوا :

ـــ ما تقولين يا زبراء ؟

فقالت :

ـــ والليل الغاسق ، واللوُح (الهواء بين السماء والأرض) الخافق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا (خداعا) ويحرق أنيابا غضلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا (منجيا) .

فوافقت قوما سكارى فقالوا :

ـــ ريح خجوج (سريعة المر) ، بعيد ما بين الفروج ، أتت زبراء بالأبلق النتوج (ما لا يمكن) .

فقالت زبراء :

ـــ مهلا يا بنى الأعزة ! والله إنى لأشم ذفر الرجال تحت الحديد !

فقال لها فتى منهم :

ـــ يا حذاق ، والله لا تشمين إلا ذفر (نتن) إبطيك !

فانصرفت عنهم فارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون وبقى ثلاثون فرقدوا فى مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن ، وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين .

كان عبد المطلب يصغى إلى حديث الرجال فى انتباه ثم سرعان ما غفل عنه وراح يفكر فى نفسه : إنه فى شوق إلى الذهاب إلى كاهن من الكهان أو حبر

من الأحبار ، فهو يحس إحساسا غامضا أنه مقبل على أمر ذى شأن ، فراح يسأل من حوله من سادات القوم عن كاهن شهير ، فدلوه على حبر فى أرض اليمن .

وانتقلت قافلة قريش إلى عدن على ساحل بحر الهند جنوبى باب المندب بميله إلى الشرق ، وهو مورد حط وقلاع مراكب الهند ومصر ، فكانت سوقا رائجة للبضائع الهندية والأقمشة المصرية وألقوا أسماعهم إلى أحاديث الأقوام الذين غصت بهم السوق ، حتى إذا ما أقبل رمضان شدوا الرحال إلى صنعاء وهم يحملون بالخضرة والماء ، فقد كانت عدن جرداء يجلب إليها الماء على ظهور الإبل من آفاق بعيدة .

كانت صنعاء من أحسن البلاد مساكن وأطيبها وأصحها هواء ، فانطلق رجال قريش يشاهدون ظفار قصر الملك أبرهة وقصر غُمدان وهو قصر عجيب من عشرين طبقة بعشرين سقفا بين كل سقفين عشرين ذراعا ، فيه مائة مسكن ، وأعلى غرفه ممرد بقوارير ، وقد زين بتهاويل وزخارف وقف أمامها أهل مكة فاغرى الأفواه من الدهشة ، أما عبد المطلب فقد انطلق إلى الحبر الذى دل عليه ليخبره بأنباء الغيب ، ويريحه من ذلك التشوف الذى استبد به .

ودخل عبد المطلب على الحبر وكان يقرأ فى التوراة ، فألقى عليه التحية ثم جلس فقال له الحبر :

— ممن الرجل ؟

— من قريش .

— من أيهم ؟

— من بنى هاشم .

— أتأذن لى أن أنظر فى بعضك ؟

— نعم ، ما لم يكن عورة .

ففتح الحبر إحدى منخرى عبد المطلب فنظر فيها ثم نظر فى الأخرى ، فقال :

— أنا أشهد أن فى إحدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة .

وصمت الرجل برهة ثم قال :

— إنما نجد ذلك فى بنى زهرة ، فكيف ذلك ؟

فقال عبد المطلب وهو شارد :

— لا أدرى .

وخرج عبد المطلب من عند الحبر وهو يفكر فيما سمع ، أن فى إحدى يديه ملكا وفى الأخرى نبوة ، إن ذلك فى بنى زهرة . وتذكر عبد المطلب ما شاع فى مكة عن سودة كاهنة قريش ، إنها قالت لبنى زهرة ذات يوم : فيكم نذيرة أو تلد نذيرا فاعرضوا على بناتكم ، فعرضت الأمهات عليها بناتهن فقالت فى كل واحدة منهن قولا ، حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت : هذه النذيرة أو تلد نذيرا له شأن وبرهان .

ووقر فى ضمير عبد المطلب أنها آمنة ، وفى تلك اللحظة ملأت صورة عبد الله أقطار نفسه ففاضت جوانحه حنانا ، وأحس أمنا غامرا ، وسرى فى جوفه همس حبيب يقول : إنهما آمنة وعبد الله .

وأشرقت جنباته بالنور ، ورفت على شفتيه بسمة رقيقة حالمة .

٥

قفلت قافلة قريش بالرجوع إلى مكة وقد أسرى بهم الحادى وأمعن فى السير ، وخاصم الكرى العيون ، يطوون الفلاة من الشوق للقاء الأحبة على جناح المحبة ، فأفئدة الركب تهوى إلى البيت العتيق ، وإلى فلذات الأكباد ، وإلى الأهل والخلان ، وإلى الأرض الطيبة والوطن الحبيب .

وكان عبد المطلب مشغول القلب مشغول البال ، فقد ترك فؤاده هناك حيث الأحبة والصحاب ، وملأ رأسه حديث الحبر ونبوءته ففى إحدى يديه ملك وفى الأخرى نبوة ، وإن ذلك فى بنى زهرة . ترى أيجتمع الملك والنبوة فى رجل واحد ، أم أن الملك فى رجل والنبوة فى آخر ؟

واستمر عبد المطلب يجرى وراء أفكاره يقلب الأمر ويبدىء ويعيد ، ويتذكر كل ما تنبأ به المتنبئون ، فسودة عمة وهب كاهنة قريش قد تنبأت بأن آمنة نذيرة أو تلد نذيرا ، فإن زوج عبد الله بآمنة فقد تتحقق بشارة حبر اليمن وتأتى النبوة وهو يعرف النبوة حق المعرفة ، فيا طالما أصغى إلى قصص الأنبياء يرويها اليهود أيام كان غلاما فى يثرب فى كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ، أما الملك فإنه لا يدرى كيف يقوم فى مكة ، وما عرف المجتمع الذى تكون حول زمزم الملكية يوما ، فسادات مكة وشيوخها هم مصدر السلطات فيها ، إلا أنه قد عزم على أن يزوج ابنه عبد الله فى بنى زهرة ؛ أن يزوجه آمنة بنت وهب وأن يتزوج هو نفسه فيهم ، فمن يدرى فقد تتحقق نبوءة حبر اليمن ويأتى الملك والنبوة .

وترادفت الأشواق واضطرم الحشا بالحنين والقافلة تسرى فى الكون العريض ، وتتابع الليل والنهار حتى بدت مكة للعيون فإذا بثراها كأنه التبر ، وإذا بالأرواح تستنشق أطيب عبير ، وإذا بدموع الرقة تبلل النفوس ، وراح كل راكب يحث راحلته على الإسراع ولو طاوع نفسه لنزل عن راحلته ، وانطلق يعدو وهو يلثم كل الوجود .

وبدا البيت العتيق وركناه فخفقت القلوب وفاضت الأشواق حتى سالت الدموع من غمام الجفون ، وأناخت القافلة خارج الحرم فهرع أهل مكة يستقبلون العائدين بالأحضان والقبلات والعبرات ووجيب الأفئدة المتلهفة إلى اللقاء والعناق ، لإطفاء نار الشوق التى تتلظى فى الجوانح والمهج والنفوس .

وخف أبناء عبد المطلب العشرة كأنهم ظباء تتواثب إلى أبيهم الجليل ، فراح يضمهم إلى صدره وهو دامع العين يكاد يذوب رقة ، حتى إذا ما تقدم عبد الله وارتمى بين ذراعى أبيه احتواه عبد المطلب وهو يستشعر نفس المشاعر الفياضة الرقيقة الناعمة التى استشعرها يعقوب يوم أن ضم إلى قلبه بعد طول غياب يوسف الحبيب .

ولم ينس عبد المطلب فى غمره اللقاء وفورة العواطف ابنه العباس ، فقد تركه فى حجر أمه يوم أن شد الرحال إلى اليمن وكان قد أشرف على الثانية من عمره . إنه ليذكر تلك اللحظة التى حمله فيها ليقبله قبل الرحيل ، وإنه ليفكر كيف تعلق بعنقه وأبى أن يعود إلى أمه وظل متشبثا به إلى أن انتزعته من أحضانه وهو يبكى ، ولم يكف عن العويل إلا بعد أن أخذ يداعبه ويلثمه هنا وهناك ويعده بالتمر والزبيب .

وراح رجال القافلة يطوفون بالكعبة طواف القدوم . كانت الشمس

ترسل أشعتها الحامية فيتفصد العرق من الوجوه ، ولكن الطائفين كانوا يحسون كأنهم بالجنان يطوفون ، فقد كانت نفوسهم مطمئنة لا هم ولا قلق ولا خوف ولا ضياع فى الكون العريض ، بل كانوا فى حرم الله آمنين . ولولا تلك الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة ونصبت حولها لفتحت عليهم بركات من السماء ولملئت جوانحهم بالنور .

وانطلق رجال القافلة إلى دورهم يحمل كل منهم ما جاء به لأهله من هدايا ، وانطلق عبد المطلب إلى داره وحوله أبناؤه وعبيده ورجاله يحملون من الخيرات الشىء الكثير ، عرف بعضها طريقها إلى مخازن عبد المطلب حتى تحمل إلى أصحابها ، واتخذ بعضها طريقه إلى دار زعيم قريش لتقسم بين نسائه وأولاده وإمائه وعبيده ، وليتصدق ببعضها على المحتاجين من المكيين .

وملأ الحبور دور قريش فقد كانت رحلة الشتاء موفقة ، وجاء الليل فانساب الشباب إلى مجالس اللهو والسمر والمجون ، ودخل عبد المطلب ليستريح ولكنه لم تغمض له عين فقد راح يفكر فى نبوءة الحبر اليهودى ، واستولت النبوءة عليه فلم يطف به النوم ، فوطن النفس على أن ينطلق فى الصباح إلى دور بنى زهرة ، وأن يخطب آمنة بنت وهب لابنه عبد الله وهالة بنت وهيب لنفسه .

وتنفس الصبح ومد فراش عبد المطلب فى ظل الكعبة ، وجاء بعض من كانت لهم تجارة فى القافلة ليسألوه عن أموالهم ولكنهم لم يجدوه ، فظلوا واقفين لا يجلس أحد منهم على فراشه احتراما له وإجلالا لقدره . ثم جاء عبد المطلب ومن حوله أبناؤه العشرة كأنهم أسد غاب فحياه الجميع فى توقير .

وجلس عبد المطلب على فراشه وحده وجلس أبناؤه على مقربة منه ، وجاء أصحاب الحاجات يسألونه حاجاتهم فرد على كل منهم ماله ، حتى إذا ما

انصرفوا جميعا حانت منه التفاتة إلى بئر زمزم فتذكر حلمه الذى أقض مضجعه فى أمسه بعد أن مشى الوسن إلى عينيه ، فقد أمر فى النوم بالوفاء بنذره ، قيل له : « قرب أحد أولادك الذى نذرت » .

وراح يتفرس فى وجوه ولده حتى إذا ما التقت عيناه بعينى عبد الله خفق قلبه حنانا ، إنه كان يفكر بالأمس فى تزويجه بآمنة بنت وهب ، النذيرة ، أو التى ستلد النذير .

وها هو ذا اليوم لا يدرى ماذا يخبئ القدر لابنه الحبيب ، ولم يشأ أن يسترسل فى عواطفه فقال :

ـــ يا بنى ، كنت نذرت نذرا علمتموه قبل اليوم ، فما تقولون ؟

وساد القلق برهة ثم قالوا :

ـــ الأمر لك وإليك ونحن بين يديك .

وأطرق عبد المطلب برهة فقالوا له :

ـــ كيف نصنع ؟

ـــ ليأخذ كل رجل منكم قِدْحا ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى .

فانطلق أولاده إلى هبل وكان فى جوف الكعبة ، وراح كل واحد منهم يكتب اسمه على سهم ثم عادوا إليه وأتوه بالقداح ، فأخذها ونهض وذهب إلى هبل وأولاده من حوله .

ودعا بالأمين الذى يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم وقال :

ـــ حرك ولا تعجل .

ووضعت السهام فى كيس ومد الأمين يده ليخرج سهما ، فحبست الأنفاس وخفقت القلوب وزاغت الأبصار . وراح عبد الله وأبو طالب والزبير يتبادلون النظرات فقد كانوا أشقاء ، وكانت أمهم فاطمة بنت عمرو

ابن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب .

وخرج سهم عبد الله فأحس أبو طالب رأسه يدور ، إنه يحب عبد الله من كل قلبه ولا يطيق أن يرى الشاب الوسيم يذبح أمام عينيه ، ومادت الأرض تحت قدميه إلا أنه راح يجمع شتات نفسه حتى لا ينهار .

وأخذ عبد المطلب الشفرة ثم أقبل بعبد الله إلى إساف ونائلة ليذبحه وهو واله حزين ، فقد كان عبد الله أحب ولده إليه ، وكان عبد المطلب يرى أن السهم لو كان قد أخطأه فقد أبقى .

وانتشر الخبر فى أرجاء مكة انتشار الريح ، فقامت قريش من أنديتها تهرول إلى حيث انطلق عبد المطلب وعبد الله ، وجاء بنو مخزوم أخوال عبد الله وقد ارتسم الفزع فى وجوههم فقد كان عبد الله حبيبا إلى قلوبهم جميعا .

وأتى بعبد الله وأضجعه ووضع الشفرة على عنقه ليذبحه وعبد الله مستسلم كما استسلم إسماعيل لأمر الله من قبل . وهم بذبحه فوثب إليه أبو طالب وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وقال رجال من قريش :

ــ ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

ــ أذبحه .

فقالت له قريش وبنوه :

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا !

ووثب بنو مخزوم إلى عبد المطلب فقالوا :

ــ يا أبا الحارث إنا لا نسلم ابن أختنا للذبح ، فاذبح من شئت من ولدك غيره .

ــ إنى نذرت نذرا وقد خرج القدح ولا بد من ذبحه .

فقال بنو مخزوم :

— كلا لا يكون ذلك أبدا وفينا ذو روح .

وقال المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموال فديناه .

— إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد .

— والله ما أحسنت عشرة أمه .

— يا أبا الحارث إن هذا الذى عزمت عليه لعظيم ، وإنك إن ذبحت ابنك لم تتهنَّ بالعيش من بعده . ولكن لا عليك ، أنت على رأس أمرك تثبت حتى نصير معك إلى كاهنة بنى سعد إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته .

وتعلقت العيون بشفتى عبد المطلب فلما قال : « لكم ذلك » زفر الجميع فى راحة ، فقد كان دون ما يبغى عبد المطلب خطوب تضطرب .

وانتشر الخبر فى مكة فأطلت النسوة ينظرن إلى الفتى الذى نذر أبوه ذبحه فى عطف وإشفاق ، إنه عبد الله ابن زعيم قريش وما أكثر ما وقعت عيونهن عليه من قبل ، ولكنه بدا فى تلك اللحظة مسربلا بجلال وجمال ، بجلال اللحظة الرهيبة التى يعيشها وجمال الصبر على ما نزل به من خطوب ، فوقع فى قلب بعض النسوة ما وقع فى قلوب النسوة اللاتى دعتهن امرأة العزيز لما سمعت بمكرهن وقلن :

— حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم .

وأطالت رقيقة بنت نوفل النظر إلى وجه الفتى الجميل ، إنها لترى فى وجهه شيئا لا ترى مثله فى وجه شباب قريش ، إنه جميل وما أكثر الجمال فى قريش ، ولكن جماله نادر يشف عن جمال الروح . إن كل جارحة من جوارحها تهفو

إليه ، وإنها لتتمنى من كل قلبها أن يكون لها زوجا فهي تحس فى أعماقها أن سيكون لذلك الفتى شأن أى شأن .

وشردت رقيقة ورن فى جوفها صوت أخيها ورقة بن نوفل يقول : « إن لهذه الأمة نبيا وقد دنا يوم مولده » فإن كان ما يزعم ورقة حقا فلن يكون أبوه غير ذلك الفتى الذى يتأهب أهله للانطلاق به إلى خيبر لترى كاهنتها رأيها فيه ، فرقيقة صاحبة فراسة وما خانتها فراستها من قبل .

وتأهب عبد المطلب وبنوه وبنو مخزوم أخوال عبد الله للانطلاق إلى المدينة ، فقد كانوا يرون الكهانة حقا ، ثم شدوا الرحال إلى كاهنة بني سعد وخلفوا وراءهم قلوبا واجفة ، وقد كانت أكثر القلوب اضطرابا قلب أمه فاطمة وقلب آمنة بنت وهب . فقد كان عبد الله صديق الصبا قبل أن يبلغ مبلغ الرجال وقبل أن يضرب على آمنة الحجاب ، وقلب رقيقة بنت نوفل التى كانت تحلم بالفتى الهاشمى فى يقظتها وفى منامها .

وبلغ الركب المدينة ، وسأل عبد المطلب عن كاهنة بني سعد فقيل له إنها بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها ، فراح عبد المطلب يقص عليها نذره وما أراد بابنه فقالت لهم :

— ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها لم يذهب عبد المطلب إلى أخواله بنى النجار ، ولم ينطلق إلى مراتع صباه ، ولم يذهب إلى أسواق المدينة كما اعتاد أن يذهب أيام أن كان فى حضن أمه سلمى بنت عمرو ، فقد كان مشغول البال بمصير ابنه الحبيب ، فقام يدعو الله ويبتهل إليه أن يوفقه إلى ما يرضاه .

رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه أن يذبح ابنه الوحيد فامتثل إلى أمر الله ، فإبراهيم خليل الرحمن ، وقد برهن بذلك الامتثال على أن حبه لله أشد من حبه

لوحيده وفلذة كبده ، ففدا الله الابن الحبيب بذبح عظيم . ونذر عبد المطلب نذرا أن يذبح واحدا من ولده إذا بلغ بنوه عشرة ، وقد أراد عبد المطلب أن يوفى بنذره فمنعه أخوال عبد الله وبنوه ، وأشاروا عليه أن يستشير كاهنة من كواهنهم . ترى لو كان إيمان عبد المطلب كإيمان أبيه إبراهيم أما كانت السماء تفدى ابنه بذبح عظيم ؟ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين . وجاء الصباح فغدا عبد المطلب وأبناؤه وأخوال عبد الله من بنى مخزوم إلى كاهنة بنى سعد فقالت لهم :

ـــ قد جاءنى الخبر ؟ كم الدية فيكم ؟

قالوا :

ـــ عشر من الإبل .

قالت :

ـــ فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإذا خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى جاءوا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله أحر دعاء ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين .

وقام عبد المطلب يدعو الله وراح أبو طالب يرنو إلى أخيه فى قلق وحب ، وساد المكان سكون رهيب ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فسرت همهمة فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشر من الإبل فبلغت الإبل ستين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله .

وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولاح الهلع فى وجه أبى طالب والتفت ناحية أخيه الزبير فألفاه شاحبا لكأنما كان يعانى سكرات الموت ، واتجهت الأبصار إلى عبد الله فإذا به صابر وإن غامت صفحة وجهه الجميل بسحابة من الحزن ، فقد أغمه أن ربه لم يرض عن فدائه .

وزادوا عشرا من الإبل فبلغت مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فارتجت جنبات الكعبة بصيحات الفرح ، قالت قريش ومن حضر :

ــ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

وبلغ التهاليل مسامع الواقفين خارج الكعبة ، وكانت بينهم رقيقة بنت نوفل قد جاءت لترى مصير عبد الله الذى شغفها حبا ، فقالت فى لهفة للواقفين عند باب الكعبة :

— ماذا جرى ؟

— نجا عبد الله ورضا الإلـٰه .

وأحست راحة وإن ظل قلبها يخفق كجناح حمامة فى صدرها ، واشرأبت بعنقها لترى فتى قريش الذى أصبح حديث مكة وقبلة الأنظار ليستريح الفؤاد الواجف الولهان ، إلا أن خروج عبد الله قد تأخر فعادت تقول فى قلق :

— ماذا هناك ؟

قال عبد المطلب :

— لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات .

وعاد الخوف مرة أخرى ليستبد بها ، ولفها قلق ، وعجبت لذلك الشيخ الذى يصر على أن يضرب القداح على ابنه ثلاثا بعد أن أعلن الإلـٰه رضاه ، ليته يخرج الساعة ويذبح الإبل المائة ويريح القلوب المضطربة ولا يمد فى العذاب مدا .

وضرب الكاهن على عبد الله والإبل وقام عبد المطلب يدعو الله . وذهب أبو طالب إلى أخيه وقد لف ذراعه حوله كأنما يمنع عنه عاديات القدر ، وحبست الأنفاس ، وأخرج الكاهن السهم ، وما إن وقعت عليه العيون حتى انطلقت أصوات الفرح من الحناجر :

— خرج القدح على الإبل .

ثم عاد الكاهن يضرب الثانية على الإبل وعبد الله ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ويناشده وقد غمرت الدموع روحه ، فالذبيح أحب أبنائه إليه وإنه ليبتهل إلى الله أن يكون رضاه بالدية حقا، فقد كان حبه لإلـٰهه كحبه لأبنائه أو أشد.

وخرجت يد الكاهن بالقدح وارتجت جنبات الكعبة بأصوات الفرح :

— خرج القدح على الإبل .

وطفرت الدموع فى مآق القوم فقد بلغ الانفعال أشده ، إنها الثالثة فإن رضى الإلـٰه نجا عبد الله ، وجرت السنة فى الدية بمائة من الإبل ، وتأهب الكاهن ليضرب بالقدح فانبهرت الأنفاس وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وظل عبد المطلب قائما يدعو الله ويبتهل إليه ويناشده فى حرارة حتى إن أفئدة الناس كادت تنفطر أسى على الشيخ الجليل الذى يكاد يذوب فى حرارة دعواته .

ووقفت رقيقة بنت نوفل وقد أسندت قلبها بيدها لكأنما تمنعه من أن يفر من بين جنباتها ، وقد خنقتها عبراتها وغامت مقلتاها بغمام الجفون ، فرأت مشاهد مكة تتراقص أمام عينيها ، وخيل إليها أن نور الوجود يوشك أن ينطفئ .

وراحت العيون كلها تتبع يد الكاهن وهو يمدها فى الكيس ويخرج السهم ، وإذا بأصوات البشرى تدوى فى جوف الكعبة :

ـــ خرج القدح على الإبل .. خرج القدح على الإبل .

وضم أبو طالب أخاه عبد الله إلى صدره ودموعه تجرى على خديه ، وقلبه يدوى بين جنبيه ، ومشاعره الفوارة تنتشر بين الضلوع ولا تجد لها متنفسا إلا فى قبلات الفرح التى كانت تغمر وجه الذبيح بلا حساب .

وأقبل الزبير وأبو لهب والحارث يضمون عبد الله إلى قلوبهم ، وهرع عبد المطلب إلى ولده الحبيب ودموعه تبلل لحيته واحتواه بين جنبيه لكأنما يحتوى أنفس كنز فى الوجود . ثم قال فى صوت متهدج يقطر رقة وبشرا وانفعالا :

ـــ اليوم ولدت لى .

وراحت رقيقة بنت نوفل تزاحم الناس وهى ذاهلة عن كل ما حولها إلا مشاعرها التى كانت تدفعها دفعا لرؤية الحبيب الذى أصبح أسطورة قريش ،

لعل قلبها المتشوف لعبد الله يهدأ ، ولعل نفسها تستقر وتعرف السلام ، ولكنها عجزت عن أن تشق لها طريقا فى الجموع التى كانت تتدافع بالمناكب لتصل إلى حيث كان بنو هاشم وبنو مخزوم والذبيح .

ومرت لحظات وعبد الله قائم بين الجموع وقد صار مستودعا لأحاسيس فوارة غاية الفورة ، فراحت كنوز قلبه تمده بمشاعر الفرح والنشوة والنصر حتى فاضت جوانحه بعواطفه الرقيقة فجرت من عينيه الدموع ، ثم أحس الناس جميعا أن الشكر قد وجب لله فخروا سجدا وبكيا .

٦

انفرج باب الكعبة عن عبد المطلب وعبد الله وإخوته وسادات بنى هاشم وبنى مخزوم ، فصوبت العيون إلى عبد الله أحسن فتى يرى فى قريش وأجملهم وقد زاده الفداء سحرا على سحزه .

كان عبد الله فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد خرج من باب الكعبة يتألق فى مجده فراحت فتيات قريش من بنى مخزوم وعبد شمس وعبد مناف يأكلنه بأعينهن ، وقد استولت عليهن جميعا أمنية واحدة : أن يصبح عبد الله زوجا لهن ، وأن يأتى ذلك اليوم السعيد الذى يغلق فيه عليه وعليهن الأبواب .

وراحت رقيقة بنت نوفل تخوض فى الجموع التى تكدست فى الحرم فقد عزمت على أن تصل إلى عبد الله مهما قاست من مشقة ، ففؤادها يهوى إليه ، وكل جارحة من جوارحها تشتهيه ، وهى لا تستطيع قمعا لعواطفها المشبوبة التى تستبد بها ، فراحت تتقدم صوب من خفق بحبه الفؤاد ، وقد استحالت كل حواسها إلى عيون ترصد الفتى الهاشمى وقلوب تضطرب بالهوى والصبابة والهيام .

وجىء بمائة من أطيب إبل عبد المطلب ، وجاء صبيان مكة وفقراؤها فى أثرها . فماج الناس فى الحرم موجا شديدا ، واشتد الزحام حتى إن رقيقة بنت نوفل جرفت بعيدا عن عبد الله بعد أن صارت منه قاب خطوتين أو أدنى ، ولم يدب اليأس فى قلبها بل راحت تجاهد لتدنو منه مرة أخرى فقد وقر فى نفسها أنها تسعى لخير الدنيا وعز الآخرة .

وراحت الإبل تنحر بين إساف ونائلة ، وزراح فقراء مكة ينقضون عليها انقضاض الصقور وقد رفت على شفتي عبد المطلب ابتسامة رضا ، وسرعان ما تذكر وهو فى قمة نشوته نبوءة الحبر اليمنى ونبوءة سودة عمة وهب ، فرأى أن يتوج أفراحه بتزويج عبد الله آمنة بنت وهب ، واستولت عليه الفكرة فراح يتلفت يبحث بعينيه عن سيد بنى زهرة فإذا به قريب منه ، فذهب إليه وراح يناجيه فأشرق وجه سيد قريش وسيد بنى زهرة بالسرور والبهجة .

ونجحت رقيقة فى أن تصل إلى حيث وقف عبد الله فتهلل وجهها بالفرح وإن كانت أنفاسها مبهورة وقلبها يدوى دويا بين ضلوعها ، ومالت برأسها نحو الفتى المنتصب بين قومه كتمثال الذهب وقالت فى صوت مضطرب :

— أين تذهب يا عبد الله ؟

— مع أبى .

فجمعت نفسها التى ذهبت شعاعا وقالت فى وجد :

— لك مثل الإبل التى نحرت عنك وتعال معى .

فقال عبد الله وقد أشاح بوجهه عنها :

— أنا مع أبى لا أستطيع فراقه .

كانت رقيقة من أجمل النساء وكانت تطمع فى عبد الله ، فقالت لمن شغفت به حبا فى حرم الكعبة دون أن تغلق الأبواب : هيت لك ، فأعرض عنها لأن الكريم يحمى عرضه ، ولو كان مؤمنا لقال لها ما قال يوسف لامرأة العزيز : « معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون » .

وأفاقت رقيقة على طعنة الإعراض التى سددها حبيب الروح إلى قلبها الولهان فأحست كبرياءها تدمى ، وحقدت على نفسها لذلك الضعف الذى استبد بها وجعلها تعرض نفسها رخيصة على فتى قريش .

رخيصة ؟! إنها عرضت عليه مائة من الإبل ، ليته بقبل ، فإن فيه شيئا غامضا مثيرا يشدها إليه ، إن فيه سحرا تتفتح له الروح قبل أن يحن إليه الجسد ، إن فيه إشراقا لم تر مثله فى شباب قريش ، إن فيه سرا لا تعرف حقيقة كنهه وإن كانت تحس خطره كأنما قد ألهمته .

وجاء رسول وهب إلى دور بنى زهرة بالبشرى وقال إن زعيم قريش عبد المطلب بن هاشم قادم هو وابنه الذبيح ليزوج عبد الله آمنة بنت وهب ، وانتشر النبأ بين نساء بنى زهرة ففاضت القلوب بالفرح ، وخفت برة بنت عبد العزى إلى حيث كانت ابنتها آمنة وقالت لها وقد تهللت بالسرور وفؤادها يرقص طربا بين جنبيها :

ــ إن عبد المطلب قادم ليزوجك عبد الله .

وأطرقت آمنة حياء وإن أشرقت أساريرها ، وإن خفق قلبها أعـذب خفقات فى الوجود ، خفقات تحقيق أعظم حلم راود فتاة ، فقد كان عبد الله أملها مذ كان يلهو مع الغلمان فى ربوع مكة وعلى روابيها ، وكانت ترقب فى لهفة ذلك اليوم السعيد الذى يقبل فيه عبد الله الكوكب المنير بين إخوته ليطلبها لنفسه زوجة .

كانت أعز أمنيات حياتها أن يأتى البشير بأروع نبأ يهفو إليه فؤادها ، وها هى ذى أمها الحبيبة تحمل إليها البشرى متهللة الأسارير ، فتستشعر آمنة أن الوجود كله يخفق بالفرح ، وأن جبال مكة ووديانها تترنم بأهازيج البهجة ، وأن إشراقة ساحرة قد أشرقت على الكون فغمرته بنور لطيف يملأ النفوس أمنا ، إنها رقت حتى أحست كأنما تسبح فى فضاء هواؤه النشوة والحبور ، ولكنها راحت تجاهد لتدارى حقيقة مشاعرها غير أنها عجزت عن ذلك ، فقد كان وجهها مرآة صادقة للمشاعر الناعمة الموارة بين الضلوع .

جاءت جدتها قيلة بنت أبى كبشة أم وهب تسعى وقد هزها النبأ ، فما كانت تجد فى قريش فتى كفئا لفتاة بنى زهرة مثل عبد الله ، فراحت تقول فى صوت متهدج خنقته عبرات الفرح :

ـــ مبارك . مبارك يا آمنة .

وارتمت الفتاة فى أحضان جدتها فاحتضنتها وقلبها يتدفق بالحنان ، وغابا عن الوجود لحظة مترعة بأنبل ما فى البشرية من عواطف . وراحت برة ترنو إلى تعانق العزيزتين فطفرت الدموع من مآقيها وقد هزتها شدة انفعالها هزا .

كان سادات قريش يتشاورون قبل عقد زواج فتى من فتيانهم فى دار الندوة ، فقد كانت المصاهرة أمرا يهم القبيلة كلها ، فالفتى القرشى الشريف سيربط قبيلته بقبيلة أخرى ، فلابد أن يكون هناك تكافؤ بين الزوجين وبين الأسرتين وبين القبيلتين . وقد كانت آمنة بنت وهب أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا ، وكان عبد الله فتى قريش الذى يتمنى سادات قريش وأشرافها أن يزوجوه فتياتهم ، فلم يكن هنالك من سبب يدعو إلى تشاور أهل الرأى فى دار الندوة فى أمر ذلك الزواج الذى بدا كأنما كل ملابسات الحياة قد مهدت له ، ولكأنه كان أمرا مقضيا .

ودخل وهب على ابنته وقد تألقت عيناه بالفرح وقال لها :

ـــ إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله .

وأسبلت آمنة جفنيها على عينيها فقد خجلت من أن يقرأ أبوها سيد بنى زهرة الفرحة الطاغية التى ملأت جوانحها ، ولم يكن وهب ينتظر منها ردا فموجات الفرح على الوجوه وفى العيون وعلى الشفاه وفى حركات أمه وزوجته وابنته وسكناتهن أبلغ تعبير عن الترحيب بهذه المصاهرة .

وانطلق وهب خفيفا لا تكاد قدماه تلمسان الأرض من فرحته إلى حيث

جلس الرجال ، وجاءت بنات عبد المطلب ونسوة بنى هاشم وقد أشرقت وجوههن بالسرور ، بعد أن كن قياما هناك عند الكعبة يذرفن الدموع على عبد الله الذى كان كاهن هبل يضرب عليه بالقداح ينتظرن أمر الله فيه .

سعادة غامرة وفرحة مجنحة وسرور وحبور لف دار وهب وغمر من فيها من شيوخ وعجائز ورجال ونسوة وفتيان وفتيات ، وفاض حتى ملأ دور مكة وسكانها . ولم يحس بالحسرة والألم إلا الفتيات اللاتى كن يطمعن فى زواج عبد الله ، فقد كانت الغيرة تنهش أفئدتهن بعد أن تحطمت أحلامهن .

واجتمع رجال بنى هاشم وسادات بنى مخزوم أخوال عبد الله وشيوخ بنى زهرة ، وجلس عبد الله متسربلا بالجمال والجلال بين أخويه الزبير وأبى طالب ومن حوله باقى إخوته . وقد كان عبد الله على الرغم من حداثة سنة يحس خطره فقد فداه الله بمائة من الإبل كما فدى جده إسماعيل بذبح عظيم ، وقد أعرض عمن قالت له هيت لك كما أعرض يوسف عن امرأة العزيز .

كان كل سادات قريش ومكة فى دار وهب سيد بنى زهرة يحتفلون بذلك الرباط المقدس الذى سيربط بين أفضل حيين فى العرب بنى هاشم وزهرة ، ولو كان هناك فسحة من الوقت لبعث عبد المطلب يدعو أخواله من بنى النجار من يثرب ليشتركوا معه فى أفراحه ، فقد كانت صلة المودة وثيقة بين بنى هاشم وبنى النجار إذ كان عبد المطلب زعيم قريش وسيدها ثمرة مصاهرة مكة ليثرب .

وقام عبد المطلب يعدد مناقب قريش وبنى هاشم ، ثم طلب من وهب أن يزوج عبد الله آمنة بنت وهب . وفى نفس الوقت طلب من أخيه وهيب أن يزوجه ابنته هالة ، فقام وهب وعدد مناقب بنى زهرة ، ثم رحب بزواج عبد الله وابنته آمنة ، وقام بعده أخوه وهيب وأعلن موافقته على تزويج ابنته هالة

لعبد المطلب شيخ بنى هاشم وزعيم مكة .

وقام أبو طالب والزبير إلى عبد الله يقبلانه مهنئين ، ثم راح باقى إخوته يضمونه إلى صدورهم وهم يتمنون لأخيهم التوفيق . وأقبل رجال قريش على عبد المطلب وعبد الله ووهب ووهيب وراحوا يصافحونهم قائلين بالرفاء والبنين .

وهرعت نسوة بنى هاشم وبنى زهرة إلى آمنة وهالة ورحن يقبلنهما ويتمنين لهما أطيب التمنيات ، ووقفت سودة عمة وهب كاهنة مكة بعيدا تتفرس فى وجه آمنة ، إنها تنبأت لها ذات يوم بأنها ستلد نذيرا وإنها لترى فى وجهها تلك اللحظة شيئا غامضا مثيرا يهز وجدانها وإن عجزت كهانتها عن أن تميط اللثام عن كنهه، فهو شىء رائع لم تر فى وجوه فتيات العرب مثله ، شىء تهفو إليه الأرواح ويستعصى على فراسة الكهان والعرافين .

كان رجال قريش ونساؤها ورجال بني زهرة ونساؤها فرحين مستبشرين بزواج عبد الله وآمنة ، فتى قريش وزهرة بنى زهرة . وكانوا يرجون الخير الكثير لهذه المصاهرة ، وعلى الرغم من أن آمنة وأم عبد الله وأبويهما قد حلقوا كثيرا فى دنيا الأمانى ، فما من أحد من مكة ، قدر خطورة تلك الليلة حق قدرها ، فقد كانت ليلة مباركة لم يجد الزمن من قبل بمثلها ، ليلة قدر لها أن تكون مبدأ من سيجعله الله رحمة للعالمين ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون .

وكان من عادة العرب أن يبيت الزوج ثلاثة أيام فى بيت أهل زوجه ، وقد كان لوهب بيت فى منى عند الجمرة الصغرى ، فذهب عبد الله وآمنة إلى هناك ، بينما بات عبد المطلب وهالة فى بيت بنى زهرة بعد أن انسحب المهنئون .

وسار عبد الله وآمنة متسربلين بالليل فى منى ، فى نفس الطريق الذى سار فيه إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهاجر المؤمنة التى لو وزن إيمانها بإيمان أهل الأرض لرجحتهم ، يوم أن ذهب إبراهيم بابنه الوحيد ليذبحه تصديقا للرؤيا التى رآها فى منامه .

كان النسيم يهب رخاء والقمر يرسل أشعته الفضية فيكسو أرجاء منى بالسحر ، وجبل ثبير يطل على الوادى كحارس أمين ، ولولا ذلك الصنم الذى نصب فى المكان الذى هم إبراهيم فيه بذبح ابنه الحبيب لبدا كأن الرحمة قد تجلت على الكون .

ودخل عبد الله وآمنة بيت وهب فى منى وأغلقا الباب وراءهما ، فإذا بعبير طيب يملأ أرجاء الدار ، وإذا بنور القمر يتسلل من النوافذ فينفث فى النفوس راحة وأمنا . ولكن عبد الله وآمنة كانا فى قمة السعادة فغفلا عن كل شىء إلا نفسيهما ، فقد كانت هذه أول ليلة يخلو فيها كل منهما بصاحبه ، وحملت آمنة بنور الهدى وابن الذبيحين .

ومرت الأيام الثلاثة وعبد الله وآمنة يستشفان أريج الماضى التليد ويحسان خفق قلب الوجود ، فقد كانت جبال منى ووديانها تنبض بالذكريات ، فعند الجمرة الصغرى ظهر الشيطان لإسماعيل وقال له : أتدرى إلى أين يذهب بك أبوك ؟ إنه يزعم أن الله قد أمره بذبحك ، فحصبه إسماعيل . وفى ذلك المكان من ذلك العهد رمى العرب الشيطان بالجمرات إحياء لتلك الذكرى .

وأمام البيت الذى بنى به عبد الله بآمنة ، كانت الجمرة الوسطى حيث ظهر الشيطان لهاجر وقال لها : أتدرين أين يذهب الشيخ بابنك ، إنه ذاهب ليذبحه ، فحصبته هاجر المؤمنة المستسلمة لأمر الله . وعلى مرمى البصر الجمرة الكبرى حيث ظهر الشيطان لخليل الرحمن . وجبل ثبير ومجر الكبش .

إنها أماكن هرع إليها الناس مذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ومذ أذن إبراهيم فى الناس بالحج ، ومذ قال : « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » .

أماكن مباركة مذ فرض الله على الناس الحج بعد أن أقام إبراهيم القواعد من أول بيت وضع للناس ، ويا طالما ترددت فى جنبات ذلك الوادى تلبية المؤمنين على مر العصور : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ولما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بربهم ظلت مراسم الحج كما كانت على عهد إبراهيم الخليل ، إلا أن الوثنيين المشركين أضافوا إلى التلبية ما يتسق مع شركهم فقالوا :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

انقضت الأيام الثلاثة السعيدة المباركة التى أمضاها عبد الله وآمنة فى بيت وهب بمنى عند الجمرة الوسطى ، فأخذ عبد الله آمنة وانطلقا إلى داره بمكة ، وما كانت آمنة تدرى أنها حملت « بدعوة إبراهيم » . « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وبلغا دار عبد الله ، إنها دار من دور بنى هاشم لم تكن مرتفعة البنيان ،

ولكنها كانت دارا جميلة لعروسين ، فقاد عبد الله آمنة إلى الدرج الحجرى وراحا يرقيان فيه هونا حتى بلغا بابا يفتح من الشمال ، فدلفا إلى فناء واسع وسارا فيه كطيفين كريمين حتى وصلا إلى الجدار الأيمن قاصدين الباب الذى فتح فيه .

ودخل عبد الله وآمنة فإذا بقبة فى وسطها مقصورة من الخشب أعدت لتكون مخدع العروس ، والتفت عبد الله إلى آمنة فإذا وجهها قد تهلل بالفرح ، وإذا بابتسامة رضا قد رفت على شفتيها ، فأقبل عبد الله عليها وقد غمره السرور .

وخرج عبد الله ليطوف بالكعبة فلم يطف بها مذ خرج منها بعد أن نحرت مائة من الإبل فدية له لا يصد عنها إنسان ، وانطلق حتى إذا ما بلغ البيت العتيق رأى رقيقة بنت نوفل واقفة عند الكعبة فذهب إليها والتقت عيناه بعينيها ، وسرعان ما أشاحت بوجهها عنه .

وعجب عبد الله ، إنها قد عرضت عليه نفسها ومائة من الإبل منذ ثلاثة أيام فما لها تزور عنه اليوم ؟

وأراد عبد الله أن يعرف سر ذلك التحول فقال لها :

ـــ مالك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنتِ عرضت علىّ بالأمس ؟

فقد عبد الله سحره بعد أن تزوج آمنة بنت وهب وزهدت فيه رقيقة ، فقالت وهى تحول بصرها عنه إلى الكعبة :

ـــ فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة !

٧

جلس عبد المطلب على فراشه فى ظل الكعبة بعد أن غادر بيت وهيب وحمل زوجه هالة بنت وهيب إلى داره ، وكان عبد المطلب متفتح النفس متهلل الأسارير فقد تزوج هو وابنه عبد الله فى ليلة واحدة ، وقد توطدت بذلك الأواصر بين بنى زهرة وبنى هاشم ، وامتلأت صدور بنى مخزوم أخوال عبد الله بالسرور بعد أن فدى شيخ بنى هاشم ابنه بمائة من الإبل ، وزوجه آمنة بنت وهب فتاة بنى زهرة التى كانت تتيه بجمالها وشرفها ومقامها على بنات أشراف مكة وسادتها .

وجاء إلى مجلس عبد المطلب نديمه حرب بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان بعد أن أعرض عن اللهو وأغلق بينه وبين الشر أبوابا ، فقد كان عبد الله بن جدعان شريرا لا يعاشر إلا رفاق السوء ، سريع الغضب كثير الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، وحتى امتلأ قلب أبيه ببغضه فقد كان عار الأسرة والقبيلة .

أوغل عبد الله بن جدعان فى الشرور ثم فكر ودبر ، فرأى أن ارتكاب السوء يقود إلى الضلالة والضياع فى تيه الوجود . كانت نفس عبد الله طيبة وإن تبدت خامدة مكبوتة ران عليها ميل إلى الشر والعدوان والفجور ، فقد طمر الجوهر الطيب فى أعماق شعوره ، فلما بدأ الصراع فى جوفه بين الخير والشر ، بين المغلق والمفتوح انتصرت المعنويات على الماديات ، فهجر العدوان والسلب والنهب إلى المسالمة والأمانة فانتشل نفسه من انهيار سريع

بعد أن خان ذاته بفعل قوى مهلكة خداعة كامنة انطلقت تحت ضغط محنة أخلاقية إلى طريق الآثام والشرور .

حكم عبد الله بن جدعان على نفسه بعدوانه على أهله وعشيرته وقبيلته بمكابدة انهيار معنوى ، فلما نشب فى جوفه صراع روحى انزاحت الغشاوة عن جوهر طيب فاختار طريق الخير ، وقد قاده ذلك السبيل إلى الغنى والشرف والسلطان . ولكن الناس لا يستطيعون أن يصدقوا أن النفس قادرة على النهوض من كبوتها من تلقاء نفسها ، وأنها قادرة على أن تقود صاحبها إلى الغنى دون أسطورة ودون وصف صراع البطل الظافر مع جبار أسطورى فى سبيل الاستحواذ على كنز ، فقالوا إن عبد الله بن جدعان لما فر من وجه أبيه وقومه لجأ إلى الجبال ، وبينا هو مختبئ هناك إذ رأى ثعبانا على باب مغارة ، وهم بأن يفر من ذلك الثعبان ولكنه فطن إلى أنه من ذهب وعيناه من جوهر ، فاستولى على الثعبان ودخل المغارة وإذا به يعثر على كنوز مضاض بن عمرو الجرهمى .

إنها نفس الأسطورة التى رددتها الأساطير اليونانية وأساطير الشعوب كلما انتصرت نفس على ضعفها وانطلقت فى طريق الخير لتجمع ثروة ، وقد أصبح عبد الله بن جدعان من أغنياء مكة وأجوادها ، وصار مجلسه مع عبد المطلب زعيم قريش بعد أن كان مع مجان مكة وأشرارها .

وجاء عبد الله بن عبد المطلب متهلل الأسارير وألقى على الموجودين تحية الصباح ، ثم جلس إلى جوار أبيه ومد بصره إلى الكعبة وراح يراقب حمام الحمى وهو يطوف حولها ، والناس وقد ازدحموا عند زمزم ، فامتلأ قلبه بإشراقة من المحبة ، وأحس تعاطفا مع كل ما حوله وتناسقا مع الوجود ، فقد كانت نفسه راضية وآماله مجنحة بعد أن ذاق السعادة الحقة مذ انطلق مع

زوجة آمنة بنت وهب إلى بيت أبيها بمنى ، وبعد أن عاد بها إلى داره القائمة بين دور بنى هاشم خلف الكعبة .

إنه مذ بنى بآمنة يستشعر فى أعماقه أن شيئا عظيما مثيرا قد حدث ، فقد كانت الليلة الأولى التى أغلق فيها عليه وعلى آمنة الدار ليلة لم ير أروع منها طوال حياته ، كان القمر يرسل أشعته إلى جبال منى ووديانها ، وقد انسكب ضوءه من النافذة فغمر الحجرة بنور لطيف . إنه طالما سرى فى الليل ، وطالما أحس سحر القمر ، ولكن القمر فى تلك الليلة كان شيئا آخر ، كان أكثر تألقا مما كان ، وكانت أشعته كأنها عواطف حانية زاخرة بالمحبة تحتوى الوجود كله بين جوانحها ، وقد هب النسيم رخاء كأنما يحمل بشرى ورحمة للناس كافة .

إن أريج تلك الليلة لا يزال طيبا فى نفسه ، وإنه فى دهشة من أمره ! أفاح الطيب من أرجاء الدنيا حقا أم انبعث من روحه ، فقد أحس رائحة المسك فى أنفه مذ قالت له رقيقة بنت نوفل : هَيت لَك ، وأعرض عنها وذهب إلى بيت آمنة ، إنه ليشم رائحة المسك الأذفر أينما سار منذ تلك الليلة المباركة ، ويرى الدنيا تتلألأ بالبهجة والإشراق .

كان عبد الله أصغر الموجودين سنا فقد كان فى الثامنة عشرة ، إلا أنه أحس فى أعماقه على الرغم من حداثة سنه أنه أصبح شيئا جليلا بعد أن تزوج آمنة . ولم يكن ما أحسه كبرا فقد سمع أهله فى خطبهم يعددون مناقب قريش : نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومَعْدِن المجد ، فلم يملأه ذلك التفاخر زهوا ، ولكن الليلة خيل له فيها أن الأرض كانت تتلقى وحى السماء قد رفعت من شأنه فى عين ذاته ، حتى إن إحساسا غامضا قد غمره بأنه أصبح أجل شأنا من كل سادات قريش وأشرافها .

وأفاق عبد الله من أحلام يقظته على صوت فيه غنة يقول :

ـــ أنعم صباحا يا فياض ، يا مطعم طير السماء .

فرفع عبد الله رأسه فرأى ذلك اليهودى الذى كان فى جوار أبيه يحيى عبد المطلب ويجلس ، ولمح التغير الذى اعترى وجه حرب بن أمية فقد كان حرب يضيق بذلك اليهودى ولا يستريح لحديثه .

والتفت عبد المطلب إلى ولده وراح يأمرهم بترك البغى والظلم ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن سفاسف الأموز ، وفيما هو منطلق فى حديثه قال قائل من الجالسين عنده :

ـــ إنك تقول لنا فى وصاياك لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة .

فقال اليهودى :

ـــ إن المرء يثاب فى الدنيا على أعماله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

كان ذلك هو اعتقاد اليهود بعد أن حملوا أسرى من أورشليم إلى بابل ، وأعادوا كتابة التوراة هناك متأثرين بعقائد البابليين التى كانت تقول إن المرء بعد مغادرة الحياة يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها وأنه يثاب فى دنياه عن أعماله . وقد تأثر عبد المطلب بيهود يثرب لما كان فى كنف أمه سلمى بنت عمرو قبل أن يعود به المطلب إلى قومه ، واعتنق ذلك الرأى وراح يدعو إليه فى مجالسه ، وقد كان ذلك اليهودى ينبرى لتأييد رأى عبد المطلب فقد كان فى تأييده تأييد لدينه . وكان حرب بن أمية يحرق الأرم غيظا من ذلك المتطفل على مجلسهم فقال فى غلظة :

ـــ الزم الصمت .

ونظر عبد المطلب إلى نديمه فى عتاب وقد ضايقت نظرات عبد المطلب

حرب بن أمية ، ولو طاوع وسوسات نفسه لقام وشهر سيفه وأطاح برأس ذلك اليهودى الذى يعكر الصفو بين النديمين .

وراح قائل يعارض رأى عبد المطلب ويقول إن ظلوما من أهل الشام قد هلك بعد أن ملأ الأرض ظلما و لم تصبه عقوبة ، فأطرق عبد المطلب يفكر ثم قال :

ـــ والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسىء بإساءته .

و لم يكن ما قاله عبد المطلب من قبيل الإلهام فقد كان نصارى الروم والشام والحيرة والحبشة يغدون ويروحون فى مكة ، وقد سمع عبد المطلب منهم لا ريب عن الدار الآخرة ، فلما أفحمه الرأى القائل بأن الظلوم قد يخرج من الدنيا دون أن تصيبه العقوبة كفر بمعتقدات اليهود الذين شب بينهم فى المدينة ، واعتنق ما يقول به النصارى من أن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسىء بإساءته . ولو رفعت أسجاف الماضى البعيد عن بئر زمزم لرأى عبد المطلب هاجر جالسة عند البئر تلقن ابنها إسماعيل دين أبيه إبراهيم وتحدثه عن اليوم الآخر « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون » ولكن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشركوا بربهم ونسوا يوم الدين .

وعاد الصحاب يتحاورون ، وسرعان ما راح عبد الله يجرى وراء أحلامه فقد وعده أبوه بأن يبعثه إلى الشام مع قوافل قريش ، وقد قال له إنه سينزل بيثرب وسيرحب به أخواله بنو النجار ، فراح يرى نفسه بعين خياله فى قافلة قريش وهى تسرى فى أرض ذات نخل وعلى جانبيها الحقول كشطئان من سندس أخضر ، ورأى سوق الصياغة وهو يشترى لآمنة حليا فاخرة من يهود

بني قريظة ، ثم رأى نفسه يعود وقد كسب مالا ممدودا فأشرق وجهه بالابتسام . ولكن سرعان ما قطب جبينه فما كانت أحلامه تعبر عن المشاعر الفياضة التى تموج بين ضلوعه ، فما من مكى خرج إلى الشام إلا وقد عاد إلى أهله بالحلى والهدايا والكسب الوفير ، وإن ما يحسه فى أغوار ذاته شيء أروع من المال والتجارة ، شيء غامض ساحر لذيذ ، يملأ الروح بنور على نور ، ويمد الفؤاد بكنوز من السعادة تزرى بكنوز الأرض من ذهب وفضة .

ومالت الشمس لتغيب فى الأفق الغربى خلف جبال مكة فنهض عبد المطلب وقام بنوه ومن كانوا عنده وراحوا يطوفون بالكعبة قبل أن يعودوا إلى دورهم ، ثم انطلق عبد المطلب وبنوه إلى دور بنى هاشم من باب إبراهيم ، وخرج الآخرون من أبواب متفرقة .

ودخل عبد الله على آمنة فألفاها تتألق بالبشر وتقبل عليه مرحبة به كأنما قد آب من سفر طويل ، وراح العروسان يتناجيان فيحس كل منهما أن رباطا قويا قد شد كلا منهما إلى الآخر وإن لم يمض على زواجهما أكثر من أربعة أيام ، رباطا روحيا وثيقا يحطم كل الحواجز والسدود التى تقوم عادة بين نفسين وإن عاشا تحت سقف واحد عشرات السنين .

كانت آمنة سعيدة كل السعادة راضية كل الرضا تستشعر كأنما قد احتوت الوجود كله بين جوانحها ، وأن بركة عظيمة قد غمرتها بالنشوة وراحت تسكب فى فؤادها رحيق الحب لكل ما تقع عليه عيناها ، وأن فيضا روحيا ينبثق بالرحمة من أغوار نفسها فإذا بها تحس أنها تعيش فى دنيا جديدة تنبض رقة وأمنا وسلاما .

وبدت الدار الصغيرة للعروسين كأنها روضة من رياض الجنة ، فراحا يهيمان فيها كفراشتين حالمتين يخفق قلباهما بسعادة عارمة وتتفجر أعماقهما

بحب ليس له من نفاد ، حتى إذا ما دثر الليل الكون بعباءته السوداء ذهب عبد الله وآمنة إلى مخدعهما وأسلما جنبيهما للرقاد .

وطافت بمكة أحلام قطبت جباه ورفت على الشفاه بسمات ، وقد كانت البسمة التى توجت شفتى آمنة أعذب بسمة رسمت على شفتين فى تلك الليلة ، فقد كان حلمها رائعا غاية الروعة لكأنما كان حقيقة واقعة ساحرة أخاذة تبدهُ النفس والعقل والوجدان ، وتملأ المشاعر بخدر لذيذ .

وانبعث من أعماقها نور وهاج أضاء أرجاء الدنيا ، إنها ترى قصور بُصْرى من أرض الشام ، وإن هاتفا يهتف بها :

— إنك قد حملت بسيد هذه الأمة .

٨

كان العرب يتعشقون الحرية ، وقد مارسوا تلك الحرية وتحللوا من القيود حتى صارت الحرية إباحية ، وقد فقد الدين سلطانه على النفوس وأصبح علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان ولا تحكم واقع الحياة ، وصار الدين أداة لجلب منافع دنيوية وسعادة أرضية ، فقد وقر فى أذهان العرب الوثنيين أن المرء يثاب فى دنياه على أفعاله ، وأن ليست هناك دار أخرى .

ولم تعد الأخلاق قيمة حقيقية من قيم الدين ، وتغاضى المجتمع عن الجرائم الخلقية وصار الناس يوزنون بما يملكون من ذهب وفضة ، فراحت شهوة المال المجنونة تعربد فى النفوس وتتحكم فى تصرفات الناس ، فأصبح التعامل مع الطبيعة لا مع ما وراء الطبيعة ، مع المادة لا مع الله .

وأصبح الدين فى مكة فى عزلة عن المجتمع المكى وإن كان المكيون جميعا يطوفون بالبيت العتيق كل صباح قبل أن يستفتحوا يومهم وكل مساء قبل أن يستشيروا إلـٰههم ويضربوا بالقداح عنده ، وما كانوا يفعلون ذلك عن إيمان عميق بدينهم بل تسكينا للخوف من المجهول الذى كان يستبد بهم ، واستجابة لوسوسات الكهان والعرافين الذين عملوا على نشر الأساطير والخرافات والجهل لتحقيق مغانم دنيوية مستغلين ما يتمتعون به من وميض الفراسة الذى بسط سلطانهم على المكيين جميعا .

وكان أهل الكتاب الذين يعيشون فى مكة يعانون ازدواج الشخصية ، فاليهودى كان يمارس شعائر دينه فى تزمت شديد وفى نفس الوقت يرتكب كل

المحرمات مع المسيحيين أو الوثنيين من العرب ، فقد كان اليهودى يعتقد أنه هو الناس وأما عدا اليهود فهم أمم « كلاب البشرية » ، وأن الله لن يحاسب اليهود على ما يرتكبون من آثام فى حق الأميين : « ليس علينا فى الأميين من سبيل » .

وكان المسيحيون يمارسون شعائرهم الدينية ويقولون للعرب فى استعلاء ما لقنهم بولس من عقائد فاسدة : « لسنا أولاد جارية » . وكان المسيحى إذا احتاج إلى المال يقترضه من اليهودى بربا فاحش نهت عنه المسيحية ، وكان يأبى إلا أن يحقر مقرضه فلا يسلم عليه بيده ولا يلمسه إنما يأمره أن يقف بعيدا ويصرخ فيه : « ضع المال واغرب عن وجهى يا خنزير » ، ونسى الناس جميعا أنهم لآدم وآدم من تراب ، وأن رب الناس وإلـٰه الناس وملك الناس واحد لا شريك له .

تحرر المجتمع المكى من قيود الأخلاق ، فبعد أن كان الرجل يخطب إلى الرجل وليته أو ابنته ويعين صداقها ثم يعقد عليها أصبح ذلك فى فئة قليلة من الذين حافظوا على التقاليد القديمة ، أما الذين تحرروا من عقائد القوم والأفكار الموروثة فقد صاروا يدخلون دون العشرة على امرأة ما ثم يصيبها كلهم عن رضا منهم وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان . تسمى من أحبت باسمه فيلتحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

وانتشرت البغايا فى مكة وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَمًا فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها من دخل بها ودعوا القافة ، فيتفرس القائف فى الولد ثم الرجال فيعرف شبه الولد بالوالد بوميض الفراسة والآثار الخفية ، فيلحق ولد البغى بالذى يرى القائف أن

يستحلفه به فيدعى ابنه لا يمتنع عن ذلك .

وقد اشتهرت بغايا كثيرات فى مكة منهن سريفة جارية زمعة بن الأسود ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل . وكان بعض الإماء يمقتن البغاء فكن يكرهن عليه : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

ولم يعد للرباط المقدس الذى يربط الرجل بزوجه أى وزن ، فإذا أراد الرجل أن ينجب كريما أو شجاعا أو قويا يقول لزوجه إذا طهرت من طمثها .

— أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه .

فترسل المرأة إلى الرجل المنشود وتطلب منه الجماع ، فكان الرئيس أو الشجاع أو الكريم يأتى إلى دار الزوج ليؤدى ما يطلب منه لتحسين النوع وهو راضى النفس ، وكان زوجها يعتزلها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، وكان نكاح الاستبضاع مباركا من الزوج والزوجة والمجتمع جميعه .

وانتشر فى مكة زواج المتعة وهو زواج إلى أجل ، فإذا انقضى وقعت الفرقة . ونكاح البدل وهو أن يقول الرجل الرجل : انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى . ونكاح الخدن وهو أن تتخذ الزوجة صديقا . وقد كان العرب يقولون ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم ، وقد قل فى النساء المحصنات : « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان » .

وقد حكم الربا الحياة الاقتصادية فى مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب ، فقد كان الدائنون يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، فأصحاب النخيل عند جنى الثمر كانوا يتفقون مع القائمين على جمع المحصول على أن يدعوا لهم على أن يسددوا ضعفه فى العام القابل ، فإذا ما

حل الأجل وعز المدين عن السداد فقد كان الدائن يمنحه أجلا آخر على أن يسدد المدين ضعف الكمية التى استحقت فى الأجل الأول .

وإذا أقرض الدائن المدين ناقة عمرها سنة فعلى المدين أن يدفع للدائن بعد عام ناقة عمرها سنتان ، فإذا عجز عن تقديم تلك الناقة فعليه أن يدفع فى السنة التالية ناقة عمرها ثلاث سنوات . وكان ذلك هو الحال فى العمليات المالية ، فإذا أقرض رجل آخر مائة دينار لمدة عام فعلى المدين أن يدفع فى الأجل المسمى مائتى دينار ، فإذا عجز عن الوفاء صار عليه أن يدفع فى السنة التالية أربعمائة دينار ، وهكذا دواليك إلى أن يوفى المدين دينه .

وكانت المعاملات جميعا بين الدائن والمدين على مثل تلك الحال ، فإذا ما أقرض رجل آخر مبلغا من المال أو سلعة من السلع ، فعلى المدين أن يدفع فى الأجل المسمى المبلغ المقترض أو السلعة مع فائدة يتفق عليها ، فإذا أعلن المدين عجزه عن الوفاء فإن الدائن يقبل عن طيب خاطر مد الأجل على أن يسدد المدين الدين مضاعفا : « لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » ..

وكان بنو ثقيف يأتون من الطائف إلى مكة ليقدموا القروض لبنى المغيرة ، وغالبا ما كان بنو المغيرة عند حلول الأجل يعتذرون عن السداد ويطلبون مد الأجل لقاء دفع فوائد تأجيل السداد ، فكان أفراد الطرفين يحررون عقودا جديدة بما اتفقوا عليه عند الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود ، وهم يستنزلون اللعنات على من خان أو فجر أو بدل .

كان بنو ثقيف يقدمون الذهب والفضة والأنعام ومحاصيل أرضهم الخصبة ، فما كان لهم فى الناس من دين فعليهم أن يسددوا رأس المال أضعافا مضاعفة . إنها سنة وشرع شرعه القادرون الذين يملكون الذهب والفضة وما

فى الأرض من متاع ، وفرضوه على المحتاجين المضطرين الذين لا يجدون سندا من حاكم قوى مرهف الحس والضمير ، أو من دين سماوى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل وينذر الكافرين منهم بعذاب أليم .

وانقسم الربا إلى ربا نسيئة وربا فضل ، فربا النسيئة أن يقدم الدائن إلى المدين مبلغا ما على أن يتقاضى فوائده كل شهر ويظل رأسه ثابتا لا يربو ، فإذا حل الأجل سدد المدين ما اقترض ، وإلا طلب مهلة وقبل عن طيب خاطر أن يدفع الدين مضاعفا .

أما ربا الفضل فهو استبدال الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح والورق بالورق إلى أجل ، على أن يحصل على فائدة من نفس الصنف لا أن يرد مثلا بمثل سواء بسواء ، أو يبيع غائبا بناجز لتحقيق أرباح غير مشروعة .

وكان العرب يرون شرعية الربا وكانوا يقولون فى بساطة : « إنما البيع مثل الربا » ويضربون مثلا بمن يشترى ثيابا بعشرة دنانير ويبيعها بأحد عشر دينار ، فذلك عمل مشروع ، وكذلك الحال فيمن يقرض آخر عشرة دنانير ويحصلها أحد عشر دينارا ، فكما أن البيع مشروع فالربا مشروع على هذا القياس . وكانوا يرون أن أية عملية تجارية أو ربوية مشروعة ما دام الطرفان قد ارتضيا شروطها ، فالبيع والربا ضروريان لسد حاجات البشر ، فإن كان المقرض لا ينال فى النهاية إلا رأس ماله فلماذا يخاطر بماله ويقرضه للمحتاجين ؟

كانوا يرون أن الربا يقوم بخدمة اجتماعية فهو يمكن المحتاجين من سد حاجاتهم ويشجع المقرضين على أن يقرضوا أموالهم للناس لإشباع رغباتهم ، وما كانوا بقادرين أن يتصوروا شيئا آخر فقد كانوا يعيشون فى مجتمع توزن فيه كل الأمور بالمادة ، وما كان اللروحانيات وزن يذكر .

وانتشر في بلاد العرب كما انتشر في كل بقاع الأرض العبيد ، فالرقيق بضاعة ضرورية لا بد منها لأهل المال تدر عليهم أرباحا عظيمة ، فهم آلات ذلك الزمن ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ، كما أنهم سلاح يستخدم للدفاع عن السادة الأثرياء في أيام السلم وفي أيام الحرب .

وكانت مكة بلد الأثرياء والتجار غاصة بعبيد الحبشة والسودان والروم والفرس والغساسنة وعرب الحيرة وكان أثرياء مكة يستغلون العبيد في الأعمال الشاقة وفي حراسة قوافل التجارة وفي زيادة رءوس أموالهم ، وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء ليبتغوا عرض الحياة الدنيا .

كان الأسرى البيض الذين يقعون في أيدي الفرس أو الروم أو القبائل المغيرة على الحدود يباعون في أسواق النخاسة ، وكانت أسعار هذه البضاعة تفوق البضاعة المستوردة من إفريقية ، وكانت جودة إنتاج الرقيق الأبيض والتفنن فيه والبراعة في الصناعة التي لا تعرفها إفريقية تعوض عن ذلك الفرق .

ووكل إلى موالي العراق وبلاد الشام والروم وغيرهم من ذوي البشرة البيضاء إدارة الأعمال والقيام بالحرف التي تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن ، فكانوا ينهضون بأعمال البناء والنجارة الدقيقة . وهذه البضاعة التي استوردتها قريش من الخارج وإن كانت تابعة تؤمر فتفعل وتكلف فتستجيب ، إلا أنها كانت بضاعة حية لها قلب نابض ودماغ يعمل ولحم ودم ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها ، فأثر هؤلاء العبيد أصحاب الحضارت في حضارة قريش وفي معتقداتها .

وجلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة وحوله ندماؤه وأبناؤه العشرة كأنهم أسد غاب ، وراح عبد المطلب يرقب الكتاب الذين كانوا يرمون العقود عند الملتزم والناس أحرارا وعبيدا وهم يطوفون بالبيت ،

ويصغى إلى الابتهالات التى تنبعث من القلب حارة فتهز وجدانه هزا وترهف ضميره وتجعله يهيم فى الكون العريض .

ووقف رجلان ينظران إلى عبد المطلب وأبنائه ويتناجيان ؛ فقال أحدهما لصاحبه :

— بمثل هؤلاء تبنى الممالك .

والتقطت أذن عبد المطلب حديث الرجل فشرد ذهنه وتذكر تلك الرؤيا التى هالته ففزع منها فزعا شديدا ، رأى كأن شجرة نبتت من ظهره قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب وما رأى نورا أزهر منها وأعظم من نور الشمس سبعين مرة ، ورأى العرب والعجم لها ساجدين وهى تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا ، ساعة تخفى وساعة تظهر . ورأى رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، وقوما من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم ير قط أحسن منه وجها ولا أطيب ريحا فكسر أظهرهم وقلع أعينهم ، فرفع يده لينال منها نصيبا فلم ينل ، فقال : « لمن النصيب ؟ » فقيل له : « النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك » .

إنه انتبه فى تلك الليلة مذعورا و لم تستقر نفسه حتى ذهب إلى كاهنة قريش ، فقالت : « لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس » .

ونظر عبد المطلب إلى ابنه أبى طالب . كان أبو طالب فى الخامسة والثلاثين وكان عبد المطلب يحس فى أعماقه أن سيكون لابنه هذا شأن عظيم ، حتى إنه قال لأبى طالب بعد أن قص عليه حلمه وما قالت كاهنة قريش : « لعلك أن تكون هو المولود » .

وأسبل عبد المطلب جفنيه على عينيه ليرى فى وضوح ما يدور فى رأسه

ويسمع ما تهمس به نفسه ، فقد قام فى جوفه سؤال : « أيكون ملك فى مكة ؟ » .

ولاح فى وجه عبد المطلب حيرة . أيصدق حلمه ويملك أبو طالب بمكة أم يثور الناس عليه ؟.

وانقضى النهار وانصرف عبد المطلب وأبناؤه إلى دورهم ، فذهب شيخ بنى هاشم إلى هالة بنت وهيب ، وانطلق عبد الله على جناح الشوق إلى آمنة بنت وهب ، ويمم أبو طالب والزبير شطر دور بنى هاشم ، بينا انسل أبو لهب إلى دار فتاة من فتيات البغاء المنتشرات فى مكة ليجتمع بشباب سادات قريش المترفين الفاسقين الباحثين عن المتعة المتمرغين فى حمأة الفساد .

واكتمل عقد الشباب العابثين فدارت كئوس الخمر ، وامتزجت ضحكات الرجال بضحكات الناس ، وجرت الألسن بأشعار ماجنة حتى كاد الليل أن ينتصف ، فمشى الملل إلى النفوس التى أنهكها طول العبث والمزاح ، وأراد الرجال أن يعيدوا إلى أفئدتهم التى كادت تموت الحماس فصاح صائح :

— الميسر يا صحاب .

فقال أحدهم عابثا .

— أهو من اليسر أم من اليسار ؟

— إنه من اليسر إن كان أخذ مالك بيسر ، وهو من اليسار إن كنا سنسلب يسارك .

وتجاوبت فى المكان ضحكات فارغة وقام الرجال والنسوة للعب القمار ، وجيء بالقداح وهى عيدان قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول ، وهى الأزلام والأقلام وهى عشرة ، الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس

والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد ؛ فللأول وهو الفذ سهم إن فاز وفوزه خروجه ، وعليه غُرم سهم إن خاب و لم يخرج . وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه ، إلى المعلى ، وهو السابع له سبعة إن خرج وعليه سبعة إن لم يخرج . يفرض فى كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه حز ، وتكثر هذه السهام بثلاثة أخر أغفال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة ، وهى المنيح والسفيح والوغد .

ووضعت السهام فى كيس والتفت الذى سيضرب بالقداح إلى الأيسار الذين سيشتركون فى القمار ، فقال أحدهم :

ـــ الفذ .

فراح زملاؤه يركبونه بسخريتهم فقال :

ـــ إن خاب فغرم سهم وإن فاز فكسب سهم ، وأنا سهل أحب السهل .

وقال آخر :

ـــ التوأم .

ونظر إلى أبى لهب وقال :

ـــ كهاشم وعبد شمس .

فنظر صاحب القداح إلى أبى لهب وقال :

ـــ وأنت يا بن سيد قريش ؟

فقال أبو لهب فى زهو :

ـــ المعلى .

فقال قائل :

ـــ وما ضرك لو خسرت ، مال عبد المطلب كحصى مكة .

فمالت فتاة عليه وقالت :

ـــ إنه ابن أكرمين ، ويا لسروري يوم أن يصبح سيد قريش .

وراح صاحب القداح يوزع الأزلام على اللاعبين ، وبقى سهمان فقال الرجل :

ـــ من يتمم ؟

فصاحت الأصوات :

ـــ أبو لهب .. أبو لهب .

فأخذ أبو لهب ما فضل من القداح وقال للأيسار فى زهو :

ـــ قد تممتم .

وأخذ ثوب شديد البياض ولف على يد « الحرضة » وهو الذى سيضرب للأيسار بالقداح ليغشى بصره فلا يعرف قدح أبى لهب دون غيره بعد أن لف بقطعة من جراب ، لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة .

وأخذ الحُرْضة و لم ينظر فيها ، وجلس خلفه آخر هو الرقيب وهو الذى ينظر فيما يخرج من القداح فيخبر الأيسار به ويعتمدوا على قوله فيه .

جلس الأيسار حول الحرضة ضارب القداح دائرين به ، ومد الحرضة يده وأخرج سهما ورفعه من غير أن ينظر إليه ثم ناوله الرقيب وصاح :

ـــ التوأم .

ودفع بالسهم إلى صاحبه فأخذ الرجل سهمين من الأموال الموضوعة ، فقال له الحرضة :

ـــ أتعيد السهم ؟

فقال الرجل :

ـــ لا أرغب فى التثنية .

واكتفى الرجل بفوزه . واستأنف ضارب القداح الضرب بالقداح الباقية

على الثمانية أسهم الباقية ، ورفع الرجل قدحا فتسلمه الرقيب وقال :

ــ المسبل .

ودفع بالقدح إلى صاحبه فتناول الرجل ستة أسهم من الأموال ثم أعاد سهمه وهو يستشهد بقول النابغة فى زهو :

إنى أتمم أيسارى وأمنحهم ... مَثنَى وأكسو الجفنة الأدما

وأطل الجشع من العيون ودنت النسوة من الأيسار وقد سال لعاب طمعهن.وانبهرت الأنفاس وأرهفت الحواس وأشرقت وجوه وغامت بالحزن وجوه وبدت نواجز أقوام وقطبت جباه أقوام ، وقد لاح على أبى لهب الكدر الشديد فقد خاصمه حظه وخسر كل ما كان معه .

وأقبل رجل يسعى حتى وقف على رءوس الأيسار وصاح :

ــ جاءت قافلة من الشام تحمل خمرا .

فضج المكان بصياح الفائزين والنسوة البغايا وأطرق أبو لهب أسى ، ومرت لحظة وإذا بغزالتى الذهب اللتين علقهما عبد المطلب فى الكعبة تملآن صفحة رأسه ، وإذا به يرى نفسه ينسل ويسرق غزالة منهما ويشترى بها خمرا .

وأحس أبو لهب جهدا فراح يزفر فى صوت مسموع ، وأسبل جفنيه على عينيه لكيلا يرى تلك الصورة البشعة التى استولت على تفكيره ولكن غزالة الكعبة استقرت أمام عين خياله لا تريم .

وتململ وهز رأسه فى عنف ليطرد الرؤى التى تنثال على رأسه ، ووضع أصابعه فى أذنيه حتى لا يسمع همزات شيطانه ، ولكن الصور التى كانت تمر فى ذهنه والأصوات التى تتردد بين جنبيه كانت نابعة من أغوار نفسه تتفجر تفجر البراكين .

واندكت مقاومة أبي لهب فنهض وقد لاح في وجهه عزم أكيد ، ونظر إلى بعض الرفاق وأشار لهم برأسه أن اتبعوني فهبوا واقفين ، ثم ساروا خلف ابن سيد القوم وزعيم مكة يمنون النفس بخمر الشام اللذيذ .

وانطلق أبو لهب ورفاقه إلى الكعبة ودخلوا في جوفها وسرقوا غزالة من الغزالتين متسترين بالليل ، ثم هرعوا إلى القافلة التي أقبلت من الشام واشتروا بالغزالة خمرا .

وتنفس الصبح وخرج المكيون ليطوفوا بالحرم ، وفتح كاهن هبل بابها للراغبين في تقديم القرابين للإلٰه أو في الاستقسام بالأزلام ، وحانت من الكاهن التفاتة فلم يجد إلا غزالة واحدة معلقة فندت منه صيحة إنكار ، ثم خرج مفزوعا يعلن على الملأ النبأ الأليم .

وقرع الخبر أذني عبد الله بن جدعان وبلغ مسامع قريش ، فأحس الناس خوفا يقبض أفئدتهم وأصبحوا يخشون أن تنزل بهم نازلة من السماء فانتشروا في مكة يبحثون عن غزالة الذهب التي سرقت من البيت المقدس . وكان عبد الله بن جدعان أشدهم طلبا لها فقد بات يهاب المجهول بعد أن كان أكثر أهل مكة شرورا وأقساهم قلبا .

ووعد عبد الله بن جدعان بجائزة لمن يرشد إلى من سرق الغزالة ، وإذا بعقد الألسن تحل وإذا بأصابع الاتهام تشير إلى أبي لهب وصحبه ، فذهب عبد الله ابن جدعان إلى رجال القافلة التي وردت من الشام واسترد منهم الغزالة ، ثم انطلق في إثر أبي لهب ورفاقه المجان .

وألقى القبض على بعض صحاب أبي لهب وقطعت أيديهم جزاء وفاقا على ما ارتكبوه في الحرم ، وفر بعضهم إلى أخواله من خزاعة .

وجاء عبد الله بن جدعان ورجال من قريش ليقبضوا على أبي لهب وينفذوا

الحكم فيه ، ولكن خزاعة منعت عنه قريش ، فراح الرجال يعيرونه صائحين :

ـــ سارق غزالة الكعبة .. سارق غزالة الكعبة .

منعت خزاعة عن أبى لهب قريشا ، ونفذ حكم القطع فى فريق دون فريق ، و لم يكن ذلك بدعا فقد كان الشريف الذى يسرق لا يقطع بينا تقطع يد السارق إن لم يكن له ولى ولا نصير .

وخشى عبد المطلب أن تسرق الغزالتان مرة أخرى فجاء بهما وضربهما فى باب الكعبة ، فكان أول ذهب حليت به .

٩

جلس أحيحة بن الجلاح الأوسى وقد أطرق يفكر فى أمره وأمر ذلك الوليد الذى ستضعه امرأته بعد حين وقد صار شيخا وبلغ من العمر عتيا ، فراحت حياته تمر فى مخيلته فتنبسط أساريره مرة وتنقبض مرات ، فقد كانت حياة حافلة بالأحداث لكأنما كانت تاريخ يثرب بما فيها من صراع وكفاح وأمل .

رأى نفسه وهو شاب يافع يتقدم لخطبة سلمى بنت عمرو الخزرجية ليشد الأواصر بين الأوس والخزرج وليوحد بين الحيين من العرب حتى يستطيعا أن يقفا فى وجه اليهود سكان المدينة إذا ما تركوا خلافاتهم ذات يوم وعزموا على مناهضة قوة العرب التى كانت آخذة فى النمو فى المدينة . ثم رأى فى وضوح ليلة أن بنى بسلمى ويوم أن ولدت له عمرا وأخاه معبدا فتهللت أساريره ، وسرعان ما عبس لما تذكر الخلاف الذى دب بينه وبين سلمى وانتهى بطلاقهما .

كانت سلمى امرأة ذات شخصية قوية تحس استقلالها ، وكان هو شاعرا مرهف الحس قد ذاع صيته ولم يتجاوز شرخ الشباب ، فكان يضيق بانطلاقها وذهابها إلى الأسواق لتشرف على تجارتها ، فكان الجفاء والخصام والانفصال .

وأبت سلمى أن تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلا فارقته . وجاء هاشم بن عبد مناف سيد قريش فى تجارة إلى يثرب ورأى سلمى وقد وقفت على مرتفع من الأرض تشرف على تجارتها ،

فأعجب بها وتقدم إليها يخطبها . ثم تزوجها فولدت له شيبة وقد صار شيبة عبد المطلب زعيم قريش وسيدها .

ورأى أحيحة نفسه وهو يتنازع الشرف هو ومالك بين العجلان ، كان هو سيد الأوس وكان مالك سيد الخزرج . وقد علا ذكر مالك يوم أن قتل الفيطوان ملك اليهود الذى أراد أن يفتض نساء العرب قبل أن يدخلن على أزواجهن ، ثم انطلق إلى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة واستنجد به فجاء الحارث بجنوده وقتل سادات اليهود ومكن للعرب فى يثرب .

ورأى أحيحة والأسى يعتصر قلبه ذلك اليوم المشئوم الذى فتح باب العداوة بين الأوس والخزرج . كان سوق بنى قينقاع يغص بالناس ، وجاء رسول عبد ياليل الثقفى إلى السوق بفرس وحلة ثم وقف وقال :

ــ إن عبد ياليل بن عمرو الثقفى قد بعثنى بهذه الفرس وهذه الحُلة وقال لى : ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فوثب إليه كعب الثعلبى وهو رجل من غطفان كان جارا لمالك بن العجلان الخزرجى وقال :

ــ مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

ــ بل أحيحة بن الجلاح أعز أهل يثرب .

ودوت أصوات التنافر فى أذنى أحيحة وهو جالس فى مكانه كأنما كانت آتية من أغوار بئر عميقة ، إنها أصداء أصوات رنت فى سوق قينقاع فى الماضى البعيد ، ولكنها ظلت حية فى نفسه تبعث الألم كلما طافت بذاكرته أو ترددت فى وجدانه .

واستجاب الرسول لقول الثعلبى فدفعهما إلى مالك ، فقال كعب

الثعلبى :

ـــ ألم أقل لكم إن حليفى أعزكم وأفضلكم .

وغضب سُمير وكان رجلا من بني عمرو بن عوف فرصد الثعلبى حتى قتله ، وبلغ مالك بن العجلان ذلك فأرسل إلى بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس :

ـــ إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله .

فلما جاءهم رسول مالك قالوا :

ـــ إنه كان فى السوق التى قتل فيها صاحبكم ناس كثير ، ولا يُدرى أيهم قتله .

ـــ إنما قتله سُمير ، فأرسلوا به إلىّ أقتله .

ـــ إنه ليس لك أن تقتل سُميرا بغير بينة .

وكره بنو عمرو بن عوف أن ينشبوا بينهم وبين مالك حربا فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ؛ فأرسلوا إليه :

ـــ إن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سُميرا ، فأبت بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بنى الحارس بن الخزرج ، فقضى على مالك بن العجلان أنه ليس له فى حليفه إلا دية الحلف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج . فأبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره غضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقامت مناوشات بين الأوس ومالك بن العجلان ، وقد فتح سُمير باب الحروب بين الأوس والخزرج التى كانت تثور لأتفه الأسباب .

وجرى خيال أحيحة إلى صديقه الشاعر امرئ القيس الملك الضليل لما تذكر عمرو بن امرئ القيس . إنه نسب إلى الإلٰه قيس زوج مناة إلٰهة الأوس والخزرج العظيمة ، وشب فى كنف أبيه حجر ملك كندة وكان أصغر أولاده ، وقد طرده أبوه لما تغزل بامرأة من نساء أبيه فصار يتجول فى الآفاق يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طىء وكلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه .

وفى أرض اليمن أتاه عامر الأعور يحمل خبر أبيه ومقتله ، فقال :

ــ ضيعنى صغيرا وحملنى دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر .

خليلى ، لا فى اليوم مصحى لشارب

ولا فى غد إذ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعا ، فلما صحا آلى ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره .

وقدم عليه رجال من بنى أسد واعتذروا إليه ، وأرادوا أن يسووا القضية فقالوا له :.

ــ نعطيك ألف بعير دية ، أو نقيدك من أى رجل تشاء من بنى أسد ، أو تمهلنا حولا .

ــ أما الدية فما ظننت أن تعرضوها على مثلى ، وأما القود فلو قيد إلى ألف من بنى أسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفئا لحجر . أما النظرة فلكم ، ثم ستعرفوننى فى فرسان قحطان أحكم فيكم ظبا السيوف وشبا الأسنة حتى

أشفى نفسى وأنال ثأرى .

وارتحل حتى نزل بكرا وتغلب ، فسألهم النصر على بنى أسد قتلة والده ، فبعث العيون على بنى أسد فأحس بنو أسد ريبة وكأنما كان العيون إنذارا لهم فلجأوا إلى بنى كنانة . وخرج امرؤ القيس وبكر وتغلب فى أثرهم ، فأدرك بنو أسد أن امرأ القيس يتعقبهم فارتحلوا ليلا ، فلما دخل امرؤ القيس إلى بنى كنانة ظانا بنى أسد بينهم نادى :

— يا لثارات الملك ! يا لثارات الملك .

فخرج له بعض نفر من كنانة وقالوا :

— ما نحن إلا كنانة .

— وأين بنو أسد ؟

— لما نزلت بجمع ذعر القطا فطار عن مجاثمه ، فقالت بنت « علياء بن الحارث » القائم بأمر بنى أسد : « ما رأيت كالليلة قطا أكثر » . فقال علياء : « لو ترك القطا لغفا ونام » ، وعرف أنك قد اقترنت منه فارتحل .

ورأى أحيحة وهو جالس فى مكانه ينتظر ما تضع زوجه ، رأى امرأ القيس وهو خارج إلى اليمن بعد امتناع « بكر بن وائل » و « تغلب » من أتباع بنى أسد ، إنه استنصر « أزد سُنوءة » فأبوا أن ينصروه وقالوا :

— إخواننا وجيراننا .

ورآه بعين خياله وهو ينزل بمرثد الخير بن ذى جدث الحميرى ، ورأى الرجل وهو يمده بخمسمائة رجل من حمير ، ورأى امرأ القيس وقد تبعه من استأجر من قبائل العرب وقد وقفوا عند صنم « ذى الخلصة » ، وقد راح امرؤ القيس يستشير الإلـٰه فى أمر حربه ويدير القداح ، فإذا بالناهى يخرج ثلاث مرات ، ورأى امرأ القيس وهو حانق غاضب يكسر السهام ويضرب

بها وجه الصنم ويقول :

ــ مصصت بظر أمك ، لو أبوك قتل ما عققتنى .

وتململ أحيحة فى مجلسه وذهب ليرى ما فعلت زوجه ، فقيل له إنها لا تزال تضع . فعاد إلى مجلسه وإذا بخياله يعدو وراء صديقه امرىء القيس فراح يرى رجال بنى أسد وقد لجئوا إلى المنذر ملك الحيرة يستنجدونه ، فألح المنذر فى طلبه ووجه الجيوش من أياد وبهراء وتنوخ لحربه فلم يقدروا عليه ، فأمد أنو شروان حليفه المنذر بجيش من الأساورة فسرحهم فى طلبه .

ورأى أحيحة فى وضوح ــ وإن كل بصره ــ تفرق حمير من حول صديقه ، ورأى الصديق البائس يفر من قبيلة إلى قبيلة ومعه أدراع خمسة : الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وأم الذيول ، كن لبنى آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك .

ورأى امرأ القيس وقد نزل عند « الحارث بن شهاب » ، ورأى المنذر وقد بعث إليه بمائة من أصحابه يوعده بالحرب إن لم يسلم إليه بنى آكل المرار ، ورأى الحارث وهو يسلمهم لأصحاب المنذر ، ورأى امرأ القيس وهو يفر ومعه بنته هند والأدرع والسلاح ومال كان بقى معه .

ورأى صديقه وهو يذهب إلى تيماء ويترك ابنته وبعض الأدرع عند السموأل ، ثم يأتى إليه فى يثرب ويترك عنده ما بقى معه من أدرع ومال .

وأطرق أحيحة برأسه ، إنه ليذكر ذلك اللقاء الذى كان بينه وبين امرىء القيس قبل أن ينطلق صديقه إلى القسطنطينية يستنصر يوسطنيانوس قيصر الروم ، كان ذلك من ثلاثين سنة خلت ولكنه يذكر أحداث ذلك اليوم لكأنما كانت وقعت بالأمس القريب ، فقد كان وداعا لا لقاء بعده ، وإن كانت أنباء الصديق تفد إلى يثرب بما يثلج القلب وينعش الأمل .

إنه سلك طريق الشام ومر بحوران وبعلبك وحمص وحماه وقيصرية وأخيرا القسطنطينية . وقبله قيصر وأكرمه وسارت له منزلة عنده ، وأن ابنة قيصر نظرت إليه فعشقته فكان يأتيها وتأتيه .

وأنجد يوسطنيانوس امرأ القيس وأمده بجند كثيف فيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكن الطماح من بنى أسد كان يمقت امرأ القيس أشد المقت فهو من بنى أسد وقد قتل امرؤ القيس أخا له . فلحق به وأقام مستخفيا ، حتى إذا ما ارتحل امرؤ القيس ذهب إلى قيصر وقال له :

ـــ إن امرأ القيس غوى عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل فى ذلك أشعارا يشهر بها فى العرب فيفضحها ويفضحك .

وغضب قيصر فبعث إلى امرئ القيس بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب ، فلما بلغ الرسول امرأ القيس قال له :

ـــ إن مولاى القيصر يوسطنيانوس العظيم أرسل إليك بحلته التى كان يلبسها تكرمة لك ، فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إليه بخبرك من منزل منزل .

ولبسها امرؤ القيس واشتد سروره ، فأسرع فيه السم وسقط جلده وسار يتحامل على نفسه حتى بلغ جبل عسيب ، فرأى « ذو القروح » فى الجبل قبرا ، فسأل من عنده :

ـــ قبر من هذا ؟

ـــ امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت فى سفح الجبل .

وأحس أنه يجود بأنفاسه فسار يجر رجليه حتى ارتمى بجوار القبر ، وراح يقلب بصره فى جبل عسيب ففطن إلى أن نور عينيه يكاد ينطفئ وأن روحه

توشك أن تنسل من بين جنبيه ، فقال ابن الملوك وهو ينظر إلى قبر بنت الملوك :

أجارتنا إن المزار قريب ... وإنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيب

ومات الملك الضليل أمير الشعراء ذو القروح ، امرؤ القيس بن حجر الكندى غريبا فى أنقرة ، ورن فى أذنى أحيحة بن الجلاج قوله لما ظفر ببنى أسد :

قولا لدودان عبيد العصا ... ما غركم بالأسد الباسل ؟
قد قرت العينان من مالك ... ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بَنى غنم بن دودان إذ ... نقذف أعلاهم على السافل
حلت لى الخمر وكنت امرأ ... عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثما من الله ولا واغل

وندت من امرأة أحيحة صرخة إلم أخرجته من شروده ، فهب واقفا وهو يغمغم :

ـــ الشعر باطل ، الملك باطل ، النعيم زائل ، كل شىء باطل . فيم الحياة ؟ ولم الممات ؟ وفيم هذه الحروب الطاحنة التى لا يخبو لها أوار بين قبائل العرب ؟ أنعيش حياتنا كالأنعام ثم نموت كما يموت البعير كأن لم يكن شىء ؟!

واحتلت صفحة ذهن أحيحة تلك المقابلة التى لم يمض عليها شهور والتى تمت بينه وبين شيخ من أحبار اليهود ، دار الحديث بينهما حول الله والدين وأصنام العرب وإلٰه بنى إسرائيل وإذا بالحبر الشيخ يشرد قليلا ثم يقول :

ـــ قد تقارب زمان نبى يبعث هذا أوان مولده .

ـــ وممن يبعث ؟

ـــ من العرب .

— وما اسمه ؟

— محمد .

كان أحيحة قد ضاق بتلك الحروب الناشبة بين الأوس والخزرج وبالعداوة المشتعلة بين قبائل العرب ، وبالضياع الذى يعيش فيه شباب العرب وشيوخهم ، لا أمل يرتجى ولا هدف يسعى إليه ، بل فراغ فى العقيدة وضيق فى أفق الحياة ، وضرب فى بيداء الوجود على غير هدى ، فلما سمع من الحبر أن نبيا يبعث فى العرب هذا أوان مولده يحملهم إلى ما فيه عز الدنيا والآخرة ، طمع فى أن يكون ذلك النبي من صلبه ، فعزم على أن يسمى ابنه محمدا إذا ما وضعت زوجه ذكرا .

ودخلت القابلة على أحيحة بن الجلاح وهو غارق فى أفكاره وقالت له :

— وضعت ذكرا كأنه القمر .

وهز الفرح الشيخ فانطلق إلى زوجه منبسط الأسارير وقال فى انفعال :

— سأسميه محمدا .

وتهلل الشيخ بالسرور وحسب أنه أول من عرف ذلك النبأ العظيم ، وراح ينظر فى وجه الوليد وهو يرجو أن يكون محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى هو نبى هذه الأمة المنتظر وما دار بخلده أن سفين بن مجاشع فى اليمن قد عرف من رهبان النصارى أن أوان مولد النبى المرتقب قد أظل الكون زمانه ، فسمى ابنه من قبل محمدا ، فكان محمد بن سفين بن مجاشع أول من سماه أبوه محمدا أملا فى أن يكون النبى الذى يبشر به أحبار اليهود ورهبان النصارى .

وعرف مسلمة الأنصارى أن نبيا يوشك أن يولد فسمى ابنه محمدا ، وكذلك براء البكرى ، وحمران الجعفى ، وخزاعى السُلَمِى ، من أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان العرب بقرب مولد النبى العربى الأمى الذى

يبعثه الله فى الأميين لا فى بنى إسرائيل ، فسموا أبناءهم محمدا ، وكل منهم يرجو أن يكون ابنه هو الرسول الكريم ، فكان محمد بن سفين ين مجاشع ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، أول من تسمى بمحمد فى العرب لا سابع لهم ، رجاء أن يكون أحدهم هو النبى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

« والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » .

١٠

كان حرب بن أمية قميئا هزيلا ولكنه كان يسير مرفوع الرأس شامخ الأنف يختال كبرا ، يستشعر فى أعماقه أنه الكون وأنه أشرف من ولدته امرأة . وكانت طمأنينة نفسه أسمى غاياته فراح على مر الأيام يحرر قلبه من الاضطراب ببتر الخوف والرغبة وسد المسالك التى يتدفق من خلالها الألم والقلق إلى وجدانه .

كان على علم بأن الحب والشفقة هما الثقب الذى يسمح بدخول موجة القلق والألم الطاغية إلى قلبه ، فراح يجاهد ليطرح الشفقة جانبا . فالشفقة ضعف . وكان يترفع عن تقبيل أطفاله حتى لا يفتح أبواب الوهن فى نفسه ، ويطلق لعواطفه العنان ، فنبذ الحب ليتحرر من الشعور ، وراح يشاور رأسه ويتجاهل فؤاده ، فكان بذلك يفتت ما جمعه الله ، فاستوى فظا غليظ القلب انفض الناس من حوله ، يهابون سطوته ويتأخرون عنه إذا ما تقدم لا حبا له واحتراما لمقامه فيهم ، بل خوفا من شروره وأذاه .

وكان يعتزل الناس ترفعا فما كان يجد فيهم من هو كفء لمجالسته ، ولو أن إنسانا كان يستطيع أن يعيش فى عزلة عن العالم وحده لاعتزل حرب الناس جميعا ، ولكن الإنسان لا يقدر أن يعيش فردا بل هو فى حاجة إلى أنيس كحاجته إلى الطعام والشراب والهواء . فنادم عبد المطلب . وكان يضيق بالمتحدثين فى مجلس سيد قريش وكثيرا ما كان ينهرهم ويصدهم من الحديث فى غلظة وجفاء ، وكان يحس الغيرة تنهش قلبه إذا ما مدح مادح عبد المطلب

أو خاطبه بخطاب ينم عن أن عبد المطلب زعيم مكة ، فقد كان حرب يعتقد فى قرارة نفسه أنه أكرم من عبد المطلب وأعلى منه شرفا . ولا غرو فقد نافر أبوه أمية من قبل عمه هاشم أبا عبد المطلب ، فإن كان قد نزل على حكم الحكم وغادر مكة إلى الشام عشر سنين ، إلا أنه لم يقبل ذلك الحكم عن رضا بل لعن الحكم واليوم الذى صار فيه حكما يحكم فيه بأن هناك على وجه الأرض من هو كفء لأمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

وسار حرب فى سوق من الأسواق يتيه خيلاء ومن حوله رؤساء قريش حتى بلغوا مكانا ضيقا لا يسمح إلا بمرور إنسان ، فتأخر أشراف قريش ليتقدم حرب ، وإذا برجل من تميم يزاحمه فى التقدم فالتفت حرب إلى التميمى فى شزر وقال فى صوت غاضب ناهر :

ــ أنا حرب بن أمية .

فلم يلتفت إليه التميمى ومر قبله ، فرماه حرب بنظرة قاسية وقال متوعدا :

ــ وعدك مكة .

وزفر حرب حمم غضبه وراح يرسل نظرات حانقة خلف التميمى وهو يرغى ويزبد ، ثم مر من المضيق وهو يعلل النفس بالانتقام من ذلك الذى جرح كبرياءه يوم أن يفد إلى مكة .

وبقى التميمى دهرا ، ثم أراد دخول مكة فقال :

ــ من يجيرنى من حرب بن أمية ؟

فقيل له :

ــ عبد المطلب بن هاشم.

فانطلق التميمى متسترا بالليل حتى أتى دار الزبير بن عبد المطلب ، فدق الباب وهو يترقب خشية أن يراه حرب قبل أن يجيره آل عبد المطلب .

وبلغ الدق مسامع الزبير وأخيه الغيداق ، فقال الزبير لأخيه :

ــ قد جاءنا رجل إما مستجير أو طالب حاجة أو طالب قرى ، وقد أعطيناه ما أراد . فخرج الزبير وما إن رآه التميمي حتى أنشد :

لاقيت حربا فى الثنية مقبلا
والصبح أبلج ضوءه للبارى

فدعا بصوت واكتنى ليروعنى
ودعا بدعوته يريد فخارى

فتركته كالكلب ينبح وحده
وأتيت أهل معالم وفخار

ليثا هزبرا يستجار بقربه
رحب المنازل مكرما للجار

ولقد حلفت بمكة وبزمزم
والبيت ذى الأحجار والأستار

إن الزبير لمانِعى من خوفه
ما كبر الحجاج فى الأمصار

فقال الزبير للتميمى :

ــ تقدم فإنا لانتقدم على من نجيره .

وأصبح الصباح وخرج التميمى والزبير إلى الحرم ، والتميمى يتقدم ابن عبد المطلب ، حتى إذا ما دخل المسجد رآه حرب فقام إليه فلطمه ، فاستل الزبير سيفه وهجم على حرب فراح حرب يعدو والزبير فى أثره والسيف فى يده ، ورأى أبناء عبد المطلب أخاهم فى أثر شيخ بنى أمية فخفوا إليه لينصروه إذا ما حاول بنو أمية نصرة سيدهم .

وانطلق حرب إلى دار عبد المطلب وهو مبهور النفس يتلفت من الفزع ، ثم دخل الدار وهو يدير فى المكان عينين زائغتين وقلبه فى صدره يخفق كجناح حمام ، حتى إذا ما رأى عبد المطلب قال فى صوت مرعوب :

ــ أجرنى .

ــ ممن ؟

ــ من الزبير .

فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها ، وبقى حرب تحتها يرتجف فرقا تنثال على رأسه أفكار مفزعة مرغت كبرياءه فى الرغام ، فقد ثارت كرامته مرة وحرضته على الخروج لأبناء عبد المطلب وليقتل كريما فتثأر بنو أمية لمقتله ، وسرعان ما غاضت تلك الكرامة لما هجس فى صدره هاجس يوسوس له : وماذا يفيدك سفح دم كل بنى هاشم يا حرب لو مت مقتولا ؟

وبقى تحت الجفنة وهو فى هلع قد أرهفت حواسه ، تذهب نفسه شعاعا لزفيف النسيم أو رفيف ثوب أو حفيف قدم تمشى هونا على الأرض . وكاد يموت من الخوف لما سمع وقع أقدام قادمة فقد خيل له وهمه أن الجفنة سترفع ثم ينزل سيف ليقطع رأسه ، ومس صوت عبد المطلب أذنيه مسا رقيقا أعاد الطمأنينة إلى نفسه قال :

ــ اخرج يا حرب .

فقال وهو ينكمش فى نفسه تحت الجفنة :

ــ كيف أخرج وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيوفهم على الباب ؟

ــ اخرج وأنا أجيرك .

ورفع عبد المطلب الجفنة وألقى على حرب رداءه ، فوقف حربَ برهة يجمع شتات نفسه ، ثم خرج على الزبير وإخوته فلما رأوا رداء أبيهم علموا أنه

أجاره فوضعوا سيوفهم . وسار حرب بينهم مطمئنا وما لبث أن شمخ بأنفه ورفع رأسه ومشى فى كبر وخيلاء .

وذات يوم ذهب حرب إلى سوق من أسواق تهامة إذا تقدم تأخر الناس ، وإذا تكلم صمت الناس. وبينا هو فى قمة غروره جاء اليهودى الذى كان فى جوار عبد المطلب والذى يمقته حرب من كل قلبه ، و لم يلق سمعه إلى ما يقول حرب وهو صامت بل راح يجادله على أعين الناس ، فضاق حرب بذلك اليهودى الوقح ونهره ، فأغلظ اليهودى القول على حرب فأذهب غيظ قلوب الناس وشفى صدورهم وإن كتموا عواطفهم خشية بطش أمية وأهله .

وضاقت الأرض أمام حرب على رحابتها وغشيتها ظلمات ، وإن كانت الشمس ترسل نورها مشرقا وهاجا فقد غامت نفسه بسحب الحنق والغضب وأعمته عن كل ما حوله ، و لم يعد يحس إلا المهانة التى لحقته من ولد عبد المطلب وحليف عبد المطلب اليهودى وإن كان فى جوار عبد المطلب !

ودعا حرب رجلا من رجاله وراح يوسوس له ويغريه وينفث فى صدره سموم غضبه ، فانطلق الرجل ينقب عن ذلك اليهودى الذى أهان سيد بنى أمية حتى عثر عليه فى ناحية من السوق قتيلا .

وبلغ عبد المطلب أن حربا أغرى على قتل اليهودى الذى كان فى جواره فغضب وعزم على أن يفارق حربا وعلى أن يترك منادمته إلى أن يدفع دية القتيل .

وجاء حرب يكاد ينفجر من الكبر وهم أن يجلس بالقرب من فراش عبد المطلب ، فقال له عبد المطلب :

— لا تنادمنا حتى تدفع دية القتيل .

— أى قتيل ؟

ـــ الذى أغريت على قتله فى السوق ؟

ـــ اليهودى ؟!

ـــ نعم . إنه كان فى جوارى .

وتغير حرب واربد وجهه واستشعر مهانة لما طالبه ابن هاشم بدية يهودى أغلظ له القول على أعين الناس فأغرى به من قتله جزاء وفاقا على وقاحته . ودار حرب على عقبيه وانطلق مغاضبا هؤلاء القوم الذين يحاولون على الدوام أن ينالوا من كرامته دون أن يحفلوا بمكانته بين أشراف مكة وساداتها .

كان الغيظ يملأ جوانحه ، وراحت الأفكار المريضة تزحف على عقله حتى استولى عليه سؤال حائر : لماذا يحاول بنو هاشم أن يحقروا بنى أمية كلما سنحت لهم سانحة ؟ أجار الزبير ذلك التميمى وهو يعلم ما فعله من وقاحة لما تقدم عليه يمر من المضيق قلبه ، وهو من يتأخر عنه الناس احتراما وإجلالا ؛ واحتضن عبد المطلب ذلك اليهودى سليط اللسان وأجاره فراح ذلك اليهودى فى كل مجلس يعامله معاملة الأكفاء . وقد شجعته حماية عبد المطلب له على أن يغلظ له القول فى السوق فحق عليه القتل ، فلما نال جزاءه هب عبد المطلب ينادى بدفع ديته . لماذا يطالب عبد المطلب بدية اليهودى ؟ إنهما ما فعلا ذلك إلا تحقيرا لشأنه ، وخوفا من أن ينتزع من بنى هاشم الشرف والسلطان.

ورن فى جوفه سؤال فيه إنكار لذلك الخاطر : « وهل بنو هاشم أشرف من بنى أمية ؟ إن كانت لهم السقاية والرفادة فلنا دار الندوة وعقد لواء الحرب » وكاد يستريح لذلك القرار لولا أن همس فى جوفه هامس : « إنهم يحيون الناس بإطعامهم وسقايتهم بينا تسوقونهم إلى الحرب لتسفك دماؤهم كالأغنام ».

وغضب من ذلك الخاطر الذى عكر عليه صفوه الذى كاد أن يلفهُ وراح

يقول بصوت مسموع ليطغى على وسوسات نفسه التى بدأت تقلقه : « إننا لا نعقد لواء الحرب إلا دفاعا عن شرف قريش ، إننا لا تعلن الحرب إلا على أعداء قريش ، ولولانا لذهب قريش أدراج الرياح . ولو أنصف العرب لعرفوا لنا ذلك الفضل ولرفعوه فوق كل فضل ، ولكن العرب لا يرون جلائل الأعمال إلا ببطونهم » .

وساءه أن يعترف بفضل بنى هاشم فعاد يقول فى نفسه : « إن كان عبد المطلب قد أطعم الحجيج وسقاهم ، وإن كان بنو هاشم قد أوسعوا على الناس فى المواسم فإن نيران الضيفان مشتعلة على الدوام على دور أمية ، فإن كانوا قد أطعموا فقد أطعمنا ، إننا وبنى هاشم فى الكرم كفرسى رهان ، ولكننا سبقناهم بقيادة الجيش وحمل اللواء » .

وتذكر فى لحظة غضبه ابنه أبا سفيان فتهللت أساريره ، وراح يقيم الموازنات بينه وبين أبناء عبد المطلب : « أبو سفيان يرجح الزبير ، وهو أكفأ من أبى طالب ، وأين عبد الله منه ، إنه لو وزن بأبناء عبد المطلب لرجحهم جميعا . وليس فى بنى هاشم من هو كفء لأبى سفيان ، فعلى بنى أمية أن تتكاتف لتمهد الأمور ليصبح أبو سفيان سيد مكة بلا منازع » .

وأشرق صدره بالأمل . ولكن سرعان ما غاض ذلك البصيص وعاد الغل يستولى عليه ، وراحت أصوات بغيضة تفح فى وجدانه فحيح الأفعى . أيجير على الزبير ؟! أيطالبنى عبد المطلب بدية اليهودى ؟! لا كان الزبير ولا كان عبد المطلب ولا كانت قريش ولا كانت مكة لو أننى رضخت لإرادة من يريدون تحقيرى » .

ورأى أباه أمية بن عبد شمس يقوده عبده ذكوان فوسع من خطوه ليلحق بهما ويفر من وحدته التى تفجر مراجل الحقد والغضب والغل فى نفسه ، وما

إن سار معهما حتى أحس راحة ، ولكن ما أسرع أن ضاق بتلك الصحبة فانطلق لا يلوى على شيء .

وعزم حرب على أن يعتزل عبد المطلب ومجلسه وقد حسب أن ذلك يريحه من الهوان الذى يستشعره إذا ما طالبه عبد المطلب بدية اليهودى ، ولكن عبد المطلب لم يدعه بل أرسل إليه يطالبه بالدية فثارت ثورته وأعلن فى غضب أنه لن يدفع تلك الدية أبدا .

ومرت أيام وحرب بن أمية برم بوحدته حانق على ذلك الصوت المنبعث من نفسه يهدده : « الدية أو الثأر » ، ثائر على ضعفه الذى يزين له سلوك طريق السلامة ودفع الدية والعودة إلى منادمة الصحاب .

واستكبر حرب ولج فى العناد وإن كانت معاول الهزيمة تدك مقاومته على مر الأيام ، حتى ساق ذات صباح مائة من الإبل إلى بيت عم اليهودى دية القتل ، فقد عجز حرب عن الاستمرار فى عداوة عبد المطلب وأنف من مخالطة عامة الناس ، فما كان بقادر على أن يعيش فى عزلة عن قومه وقد تاقت نفسه المتكبرة إلى مجالسة السادة ، فهرع بعد أن أدى الدية وهو صاغر إلى منادمة عبد المطلب لا حبا فى عبد المطلب بل حبا فى نفسه .

١١

كانت جبال مكة تمتص حرارة الشمس الحامية ثم تنفثها كشواظ من نار فى أرجاء الوادى المقدس ، وكان الحصى الذى يفرش الأرض حول الكعبة يتصاعد منه دخان لكأنما يوشك أن يتوهج ، وقد غاب حمام الحمى عن الحرم فقد طار إلى دور مكة يختفى فى ظل شرفاتها من الحر اللافح . وعلى الرغم من القيظ الشديد الذى انبهرت له الأنفاس فى الصدور فقد كان رجال يطوفون بالبيت العتيق ، وكان عبد الله يطوف معهم وقد تفصد منه العرق فغمر جسمه وسال على لحيته التى بدأت تنبت فى وجهه ، فقد كان عبد الله شابا يافعا فى الثامنة عشرة لم يضع بعد قدمه على أعتاب العشرين .

وانتهى من طوافه فوسع من خطوه ، وخرج من باب إبراهيم يغذ السير ويحتمى من لفح الشمس بالدور ، حتى إذا ما بلغ الطريق الضيق الذى يقوده إلى داره وقف فى الظل يلتقط أنفاسه فى راحة ويفكر فى هدوء . إنه خارج فى المساء فى رحلة الصيف إلى الشام ، إنه سعيد بهذه الرحلة ، فسيزور المدينة فى عودته وسينزل ببنى النجار أخوال أبيه عبد المطلب ، وسيشترى لآمنه حلية من الذهب من سوق قينقاع ، فما من شاب من شباب مكة خرج إلى المدينة إلا وعاد بأساور أو أقراط أو خلاخيل لأهله .

وسار هونا والأفكار تتوافد على رأسه ، إنه فقير لا يملك إلا جارية حبشية وخمسة أجمال وقطعة من غنم ولكنه لا يزال فى مقتبل العمر . سيضرب فى الآفاق ويخرج فى عير قريش إلى الشام وإلى اليمن وإلى الحيرة إلى مصر ، وسيكسب

من التجارة فيجمع بين الغنى والشرف ويصبح سيدا من سادات قريش يطعم المحتاج ويغيث الملهوف ويعين على نوائب الدهر .

وتهلل بالفرح لما تذكر أن أباه الشيخ قد عهد إليه أن يمتار من المدينة تمرا ، وفى القافلة رجال عركوا التجارة وعركتهم لهم باع طويل فى البيع والشراء ، إن أباه ما فعل ذلك إلا ليشعره أنه صار رجلا يمكن أن تعتمد عليه قبيلته فى بعض أمورها . وسيأتى اليوم الذى يصبح فيه عماد مكة وصاحب الكلمة العليا فيها .

وفاضت نفسه بالسرور واستشعر أنه قد دخل الحياة من أوسع أبوابها ، وهل للحياة باب أوسع من باب التجارة ؟ سيطوف بالدنيا وسيدلف إلى قصور كسرى وقصور قيصر وفرعون مصر وملك الحبشة وملك الحيرة ، وسيبرم معاهدات الصداقة بينه وبينهم جميعا كما آلف أجداده هاشم والمطلب ونوفل من قبل ملوك الأرض وأباطرتها .

كان فرحه لا يحد لما فداه إلٰهه بمائة من الإبل ، ولكن غبطته فى تلك اللحظة كانت تفوق كل غبطة فقد ملأه يقين أن أيام سعادته قد أقبلت ، وأنه سيصبح شيئا مذكورا لا فى مكة وحدها بل فى طول الأرض وعرضها .

وبلغ الدار وراح يدق بابها فى رفق وهو ينتظر أن ينفرج عن جاريته الحبشية ، وإذا بالباب يفتح وإذا بآمنة تستقبله بابتسامة مشرقة فأحس كأن الوجود كله قد تهلل بالفرح . وسار إلى جوارها وأقبل عليها يحدثها عن آماله العريضة وهى تصغى إليه منشرحة الصدر ناعمة البال تطوف

بها سكينة وأمن ، وإن كانت تعلم أن زوجها مفارقها بعد سويعات فى رحلة قد تكون أطول من الأيام السعيدة التى قضياها معا فى العش الجميل .

إنها شهور قليلة تلك التى مرت مذ تزوج سليل البيت الهاشمى أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا ، ولكنها كانت شهورا مترعة بالنشوة . وقد كانت تلك الليلة التى كانت فيها بين اليقظة والمنام والتى سمعت فيها هاتفا يهتف بها فى رؤياها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة » أروع أيام حياتها ، فقد انتشت مع مس الهاتف أذنيها نشوة روحية ملأت جوانحها حتى انها باتت تحيا فيها ولها وبها .

كانت آمنة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ولكنها كانت تعرف مكانتها . إنها سيدة من سادات قريش وزوجة ابن زعيم قريش وأحب ولده إلى قلبه ، وقد تحقق لها أعز حلم تحلم به فتاة عربية أن تصبح أما ، وقد سمعت هاتفا يهتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد طار بها الخيال فرأت ابنها يجلس على فراشه فى ظل الكعبة كما يجلس جده عبد المطلب وقد التف الناس حوله وألقوا إليه أسماعهم وهو يفصل فى قضاياهم ، فقد كان أقصى ما يمكن أن تتخيله امرأة من قريش أن يكون ابنها زعيما كعبد المطلب ، أو شريفا كعبد الله بن جدعان ، أو شيخا من شيوخ دار الندوة .

وراح الزوجان اللذان لم يمض على زواجهما إلا بضعة أشهر يتناجيان ، وما أسرع أن أقبل المساء وحانت ساعة الوداع . فراح عبد المطلب يرنو إلى وجه آمنة الذى كان يتألق بالنور فى حب واعجاب ودهش ، ففى عينيها هيام

وعلى شفتيها بسمة هادئة ، لم يعرف وجهها الفزع ولم ترتجف خوفا من وحدتها فلن يكون معها فى الدار إلا جاريته الحبشية الصغيرة التى كانت فى مثل سنها ، بل كانت ثابتة مرفوعة الجبين تعرف حقيقة دورها فى مجتمع يعيش بالتجارة وعلى التجارة ، يطوف رجاله بالآفاق ثم يعودون إلى الزوجة الصابرة التى تنتظر أوبة حبيبها لتنسيه متاعب الرحلة ووعثاء الطريق ، ولا غرو فقد كانت فتاة من أشرف حى فى قريش .

وفطن عبد الله إلى الجهد الذى تبذله زوجته الشابة حتى لا تبدو أمام عينيه منهارة متهالكة تنشج بالبكاء ويعلو صوتها بالنحيب ، ففاض تأثره حتى وادت فى طرف عينيه القريبتين من أنفه دمعتان ، وخشى أن يبدو أمامها ضعيفا يسح العبرات فدار على عقبيه وانصرف لا يلتفت خلفه .

كانت آمنة تحس رغبة فى البكاء لما كان عبد الله معها ولكنها كانت تتجلد لتبدو هادئة ، وكانت ثورة عارمة فى أعماقها تكاد تعصف بها فما سبق لها أن عاشت فى فى دار كدارها وحدها . ومشى الخوف إليها إلا أنها كبحت جماح ضعفها وراحت توحى لنفسها أن تتماسك حتى يخرج عبد الله ثم تطلق لعواطفها العنان ، وكانت تحسب أنها ستنهار بعد أن يغيب زوجها الحبيب عن عينيها وستنفجر باكية ، ولكن ما إن ذهب عبد الله حتى أحست أنسا يملأ أرجاءها لكأنما الكون كله معها فى دارها يؤنس وحدتها . وعجبت لحالها ! كانت تسمع من نسوة بنى زهرة عن مشقة الحمل وثقله ولكنها حملت فما وجدت له مشقة ، وكانت تهاب الوحدة وترتجف منها فرقا وإن أبدت

شجاعة وعزما ، وكانت واثقة من أن قلبها سينخلع رعبا بعد أن يخلو الدار من فتاها ، ولكن سكينة وأمنا نزلا بها وهدهدا مشاعرها .

وخرج عبد الله وقد ارتفع القمر فى السماء ينير السبيل فسار بضع خطوات ثم وقف والتفت خلفه وألقى نظرة طويلة على داره ، فانقبض صدره وطافت به موجة من الأسى واستشعر وحشه لم يحسها من قبل . إنه يحب آمنة وإنه لما يؤ لم النفس أن يفارقها فى أشهر زواجهما الأولى ، ولكنه ما كان يحسب أن فراق آمنة ينزل به مثل الحزن الذى انتشر بين جوانحه . ومرت لحظات وعيناه ثابتتان على داره لكأنما يتزود لدهر طويل من البعاد ، ثم دار على عقبيه وراح يسعى إلى الكعبة .

كانت النيران مشتعلة على جبل قبيس لكأنما كانت منارة يهتدى بها الضاربون فى البيداء ، وكانت ألسنة نيران الضيفان تتراقص فى سواد الليل على بيوت الكرام ، وكانت المشاعل فى أيدى الخارجين إلى حيث بركت عير قريش ، فبهرت أضواء النيران نور القمر وأحالت ليل مكة إلى نهار .

وراح عبد الله يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ، ثم ذهب إلى حيث العير فإذا بالمكان يموج بسادات مكة وعبيدها ورجالها ونسائها ، وقد تبرجت النساء وأبدين زينتهن ورحن يضربن بأرجلهن حتى توسوس الخلاخيل وسوساتها التى تجعل الرجال يلوون أعناقهم ولا يغضون من أبصارهم . وانتشرت حلقات السمار : حلقة تعب كئوس الخمر وتصغى إلى قينة من القيان تغنى شعرا لامرئ القيس ، وحلقة ضربت حول عراف يضرب الرمل ويروى على الذين أعاروه سمعهم ما يخبئه الغيب ، وحلقة من الفقراء والمساكين أقبلوا على طعام جاء به أجواد من قريش ، وهنا وهناك البغايا صاحبات الرايات الحمر وقد انتشرن فى المكان يودعن شباب القافلة ورجالها

المترفين الذين راحت أفكارهم تسبقهم إلى صاحبات الرايات الحمر فى يثرب والشام .

وراح عبد الله يقلب وجهه فى المكان فإذا بمشاعر رقيقة تغمره ويحس أن عطفا سابغا متبادل بينه وبين الحرم وجبل قبيس والأخشبين جبلى مكة والحجون والصفا والمروة ، ومد بصره إلى بعيد فرأى غار حراء كقبة غمرتها أشعة الشمس الفضية بدت كلؤلؤة تتألق بنور لطيف لكأنما تجلت على الغار أنوار السماء .

واستشعر رحابة فى قلبه وأحس أنه يحتوى الوجود كله ويضمه بين جنبيه ، وأن شيئا جليلا غامضا ساحرا لذيذا قد أمسى يربط بينه وبينى الوادى المقدس بل بينه وبين الكون جميعه ، ورفع بصره إلى السماء فخيل إليه أن اسمه قد كتب بأحرف من نور وقد سبقه اسم آخر غشى نوره عينيه فلم يتبينه ، فهمس فى نفسه هامس : إن لى لشأنا مع هذا البيت وهذه السماء وهذا الكون . وأفاق من أحلامه على صوت يناديه :

— عبد الله .. عبد الله ..

فالتفت فإذا بأخيه الزبير قد جاء يسعى ، فهرع إليه وقال له :

— أين أبى ؟

— إنه قادم فى إثرى ليودعك قبل الرحيل .

وسار عبد الله والزبير يتناجيان ، وكان عبد الله يشرد بخياله بين لحظة وأخرى فقد كانت عواطفه جياشة نابضة بمشاعر رقيقة ما كان يدرى أن كنوزا نفيسة عامرة بها ، فقد سافر من قبل مع أبيه إلى اليمن قبل أن يتزوج آمنة ولم يحس يومها ما يحسه فى هذه الليلة من تناسق مع كل ما حوله ، ومن فناء فى كل ما حوله ، ومن حب لكل الدنيا ، وإنه هو وآمنة قد ارتفعا ليملآ ما بين

أرض مكة وسمائها ، وأنه يسير فى عالم مسحور حتى إنه بات لا يدرى أيعيش فى يقظة أو فى حلم من الأحلام .

وجاء عبد المطلب يحف به أبناؤه كالقمر ومن حوله نجوم السماء ، فخف اليه عبد الله وارتمى فى أحضانه وبقى على صدره فترة طالت كأنما قد استراح إلى القلب الحنون الذى يخفق بحبه . ثم ابتعد عبد الله عن أبيه الشيخ فانقبض صدر عبد المطلب فقد أحس كأنما قد انتزع ابنه منه ، وزاد فى قلقه أنه شعر بدموع تبلل روحه وإن لم تطفر إلى عينيه .

ووقفت رقيقة بنت نوفل تنظر اليه ؛ كان إخوة عبد الله يعانقونه مودعين فردا فردا وكان بين ذراعى أبى طالب ولكنها لم تكن ترى إلا وجه عبد الله وعجبت فى نفسها لماذا تديم النظر إليه فى تلك الليلة ، إنها طالما رأته بعد أن عرضت عليه نفسها وقالت له : هيت لك . يوم أن فداه إلـٰهه بمائة من الإبل قبل أن يدخل على آمنة ولكنها لم تنجذب إليه بعدها ، كان ساحرا قبل أن يدخل على بنت وهب إلا أنه فقد ذلك السحر بعد أن دخل عليها فلم يعد لها فيه حاجة ، فما بالها تطيل إليه النظر ؟ إنها لا تدرى وكل ما تدريه أن نفسها تحدثها أن شيئا ما سيقع لابن عبد المطلب يتجاوب صداه جبال مكة ووديانها كما تجاوبت به يوم أن هم أبوه بذبحه .

وساد المكان سكون رهيب ، أطبقت المغنيات شفاههن وماتت ضحكات الماجنين ووضعت كئوس الخمر ، حتى البغايا صاحبات الرايات الحمر أطرقن برءوسهن فقد جاء موكب الإلـٰه وارتفعت الأصوات بالحمد والتسبيح .

كان الإلـٰه فى محفة على أعناق الكهنة وقد انطلقوا به حتى بلغوا الخيمة المقدسة وأريج الطيب ينتشر فى المكان ، وبين الابتهالات والدعوات وضع الإلـٰه فى الخيمة التى كانت على ظهر بعير برك على رأس القافلة .

وقام الجمل بحمله المقدس فأذن بالرحيل ،فالتقت عيون بعيون وخفقت قلوب وقلوب وسحت دموع وانهمرت دموع ، وسارت القافلة إلى الأفق البعيد ، فالتفت عبد الله خلفه يلقى نظرة وداع على أحب بقعة فى الأرض إلى قلبه .

كانت وديان مكة قد لبست حلتها السندسية ، اخضرت الأرض وحملت الأشجار أطيب الثمار بعد الجدب الشديد ، فعرفت تلك الأيام بسنة الابتهاج ، وأتى قريش الرغد وحلت عليهم بركات السماء .

وسرت القافلة فى الليل تسير على بساط أخضر يموج بأنوار القمر الفضية السحرية قد وشى بالنوار الأصفر ، فكان روعة تبده البصر والعقل والوجدان .

وانطلقت القافلة فى أروع معبد حتى أطبق عليها الأفق وبعدت عن الوادى المقدس ، وإن ظل البيت العتيق مشرقا فى سويداء القلوب مضيئا جنبات أرواح تعلقت به وشغفت به حبا .

وقامت مكة من رقادها على صوت عيص الراهب الذى جاء من الشام ونزل بمر الظهران يقول :

ـــ يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته .

كان عيص يلزم صومعة له ويدخل بين الحين والحين فيلقى الناس ويقول مقالته ثم يقفل راجعا إلى صومعته . وقد هزهم قوله أول مرة ولكنهم ألفوا نبوءته فأعرضوا عنها ، فأين ذلك العربى الذى تدين له العرب ويملك العجم ، والأمم من حولها تكاد أن تتخطفهم ؟

١٢

أطرق أبرهة برأسه يفكر فيما جاء به رسول يوسطينوس الثانى قيصر الروم ، فإمبراطور الروم يسأله أن يتحرك بجيوشه ليغزو الجزيرة العربية حتى تتصل جيوش الحبشة واليمن التى تدين بالنصرانية بجيوش الشام والقسطنطينية ، ثم تنطلق الجيوش الصليبية لغزو فارس . وإن إمبراطور الروم يستحثه على الإسراع بالخروج فالحرب الدائرة بين الشرق والغرب توشك أن تكون نكبة على القسطنطينية ، وفى انكسار الروم توهين للمسيحية وإضعاف لشأن الملوك المسيحيين .

وعادت به ذاكرته إلى ثلاثين سنة مضت، إلى تلك الأيام التى كانت الدعاية البيزنطية والحبشية لا هم لها إلا بث الكراهية فى العالم المسيحى على اختلاف مذاهبه للحميريين الذى تهودوا واضطهدوا النصارى المسالمين . فكانت حملة الحبشة على اليمن فى ظاهرها باسم الدين ، وإن كان هدفها الحقيقى الذى تخفيه هو الاستيلاء على اليمن وإدخال ذلك القطر الغنى ذى الموقع الخطير تحت نفوذ البيزنطيين، لتتم لهم السيادة على مياه البحر الأحمر ، والسيطرة على مضيق المندب والمحيط الهندى وعلى ثروة إفريقية والهند وما وراء الهند.

إن ما يدعو إليه قيصر مشروع خطير راود عقل الإسكندر من قبل وظل حلما فى خياله ، وحاول أوليوس غاليوس أن يخرج الحلم إلى عالم الوجود فمنى بإخفاق شديد ، ترى أينجح أبرهة فى تحقيق حلم الإسكندر وفيما أخفق فيه أوليوس غاليوس القائد الرومانى العظيم؟

وراح أبرهة يفكر فى الجزيرة التى ما فتئ قياصرة الروم يلحون عليه أن يسير بجيوشه فيها حتى تلتقى جيوش الحبشة بجيوش الروم فألفاها قبائل متنافرة حالت المنافسات بين زعمائها دون تكوين دولة عربية قوية لها وزن فى ميزان الدول ، وما أيسر تأليب رئيس على رئيس أو تأييد زعيم موال أو القضاء على زعيم انتقض ليثور على سلطانه ، إنه قوة لا قبل لقبائل العرب بها ، وهو على يقين من أنه لو سار بجيوشه فلن تلبث القبائل العربية أن تركع مستسلمة عند قدميه .

وانتفخت أوداج أبرهة غرورا ، وراح يجرى وراء خياله فتذكر حليفه زهير بن خباب سيد كلب وشريفها وخطيبها وشاعرها وطبيبها وكاهنها وفارسها وأوجهها عند الملوك ، وتذكر حين طلع على نجد وأتاه زهير فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب ثم أقره على بكر وتغلب ابنى وائل ، وقد فرح آل زهير وقالوا : إن أبرهة اصطفى آل زهير وسوسهم على الناس . إن زهيرا قد جبى له الخراج من قبيلته ، وقد أصابتهم سنة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم فطالبهم زهير بها فاعتذروا عن الدفع ، فاشتد عليهم ومنعهم من النجعة حتى يؤدوا ما عليهم فكادت مواشيهم تهلك ، فلما رأى ذلك « ابن ريابه » أحد بنى تيم الله بن ثعلبة أتى زهيرا وهو نائم فأغمد السيف فى بطنه ، ثم فر هاربا ظانا أنه قد أهلكه .

وأفاق زهير فأخذه من كان معه من قومه حتى وصلوا به إلى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من أهل اليمن وغزا بهم بكرا وتغلب وقاتلهم قتالا شديدا انهزمت به بكر وقاتلت تغلب بعدها فحاقت بها الهزيمة ، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وأخذت الأموال وكثرت القتلى فى بنى تغلب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم وانتصر زهير نصرا عظيما .

ودانت لأبرهة نجد ، وحمل زهير إليه خراج معد وبكر وتغلب فوقر فى وجدانه أن ما من زعيم من زعماء القبائل العربية إلا ويتهلل بالفرح إذا ما أقره على قبيلته ، وما من أحد منهم إلا ويسارع بحمل الخراج إليه تقربا إليه وكسبا لرضاه فقد كان سيد اليمن المطاع وأقوى ملك فى المنطقة .

وكان أبرهة يعيش حياة الملوك المترفين ، فكان لا يقل فخامة ولا روعة عن قصر كسرى أنو شروان فى المدائن أو قصر يوسطينوس بالقسطنطينية أو قصر الخورنق مقر ملوك الحيرة ، وقد بنى الكنائس العظيمة فى مأرب وفى ظفار وفى صنعاء وفى نجران ، وراح ينشر النصرانية فى اليمن ويدعو العرب إلى الحج إلى كنيسته العظيمة فى صنعاء ويعمل على أن يصرفهم عن الحج إلى مكة لتعود عليه المغانم التى تجنيها قريش من الحجيج فى موسم الحج . فما دار بخلده أبدا أن أشراف قريش يخرجون عن جزء من أموالهم لإطعام حجاج بيت الله ، وأن السقاية والرفادة شرف عظيم يتنافس عليه سادات قريش ليكون لهم ذلك المجد الذى تشرئب إليه أعناق الرجال .

وكان أبرهة قد فوض ابنه أكسوم أمر « معاهر » أرض أقيال معاهر انتزعها من أصحابها وسلمها إليه فعرف بذى معاهر ، وفوض ابنه الثانى الذى أنجبه من زوجته العربية التى انتزعها من زوجها عَلى شناتر وعرف بذى شناتر ، وعرفه الغرب بمسروق لأنه جاء من امرأة سرقها أبرهة من زوجها بسلطانه .

كانت الأمور مستقرة لأبرهة ، إنه يحيا حياة الملوك المترفين ، فكان إلحاح قياصرة الروم عليه بغزو الحجاز لا يصادف هوى فى نفسه فكان يتلكأ فى تنفيذه ، فما الذى يحمله على المغامرة وقطع فيافى وقفار فى صحراء جرداء تحت نار الشمس الحامية عرضة للعطش والضياع ، وأن ينزل به ما نزل بأوليوس غالوس يوم أن أغراه قيصر بفتح بلاد العرب والاستيلاء على ما بها

من كنوز ؟

ورأى أبرهة أن يمد سلطانه على القبائل بأن يبعث إليهم رجالا موالين له يسوسهم على الناس يرغمونهم على طاعته ويجبون له الجزية ، فمن حوله أشراف كل قبيلة رهن إشارته وطوع أمره . واستراح للفكرة فبعث رجلا ممن عنده اصطفاه ليكون حاكم تهامة من قبله .

وخرج الرجل من قصر أبرهة يكاد يطير من الفرح فقد ولاه سيد اليمن على تهامة ، ولم يفكر الرجال فى أن أبرهة قد ولاه على قوم لم يخضعوا لسلطانه ، فقد كان الرجل مبهورا بسيده لم يخطر له على قلب أن هناك على وجه الأرض من يعصى له أمرا أو تراوده فكرة عصيانه وشق عصا طاعته .

وبينما كان أبرهة فى قصره بين ندمائه ورجال من أشراف اليمن والحبشة وأشراف القبائل التى تحالفت معه ، جاءه رسول يحمل إليه نبأ مقتل الرجل الذى اصطفاه ليكون حاكم تهامة ، فقد أبى القوم أن يسمعوا له ويخضعوا للذل الذى جاءهم به ، وقد نفسوا عن ثورتهم بسفك دمه .

وغضب أبرهة ومارت فى جنباته ثورة عارمة لكرامته التى أهدرت ، وكان لا بد من أن يشن حربا على العرب جميعا انتقاما لكبريائه التى جرحت ، ولتكن الحرب التى ما فتىء قياصرة الروم يلحون عليه أن يسنها نصرا لدينه وتخفيفا عن الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تقاسى وحدها وطأة الحرب الدائرة بينها وبين فارس .

وراح أبرهة يدبر أمره ويرسم خططه فرأى أن العرب قبائل متناحرة متنافرة ما أيسر أن يخضعها بحد السيف لسلطانه ، لا يربط بينها إلا ذلك البيت العتيق الذى بمكة والذى يحجون إليه ويعظمونه والذى عجز عن أن يحول عنه حجاج العرب إلى كنيسته الفاخرة ، فإن هدم ذلك البيت فإنه سيمزق

الآصرة الوحيدة التي تربط بين أفئدة العرب جميعا ولن تصبح بين القبائل رابطة ، فعزم على أن يخرج ليدك ذلك البيت ليسهل له بسط سلطانه على العرب .

وعجب أبرهة فى نفسه من هؤلاء العرب عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا دينه ولجوا فى العناد ، وعلى الرغم من أن أبرهة قد لبث فيهم سنين طويلة فإنه لم يفهم عقليتهم ، فالعرب تفخر بالأسرة الكبيرة التي يكثر عددها ، وترى فى ذلك عزة ومنعة ، فإن كانت النصارى يدعونهم إلى إلـٰه ليس له إلا ولد واحد فإنهم يعبدون إلـٰها عظيما له بنات وبنون يقربونهم إليه زلفى ، وعندهم أن الإلـٰه الذى له أولاد كثيرون خير من إلـٰه ليس له إلا ولد واحد . « وقالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه ! بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون . بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

توج أبرهة محمد بن خزاعى وأمَّره على مضر وأمره أن يسير فى الناس يدعوهم إلى حج كنيسته التي بناها بصنعاء ، وأن يجبى له منهم الخراج وأن يلزمهم طاعته ، فسار محمد بن خزاعى حتى إذا نزل ببعض أرض بنى كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له ، بعثوا إليه رجلا من هذيل رماه بسهم فقتله ، فلما بلغه النبأ حلف ليغزون بنى كنانة ، ولكنه قد وطن العزم على هدم الكعبة وكان لا بد من سبب لتبرير ذلك الاعتداء .

كان أبرهة فى مجلسه ينظر إلى الباب كأنما كان ينتظر قدوم أحد ، وكان من عنده من العرب والأحباش يظهرون له الود والإكبار والإجلال يلتمسون فضله وإن هى إلا لحظات قصيرة حتى فتح الباب وأقبل راهب من الرهبان وفى وجهه فزع وقال :

ـــ دنست كنيستك يا مولاى .

فقال أبرهة فى دهش :

ـــ كيف ؟

ـــ قعد فيها رجل من العرب .

ـــ من أى العرب ؟

ـــ من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع من قول مولاه : لست بمنته حتى أصرف إلى كنيستى حاج العرب .

وهب أبرهة غاضبا وأقسم بالله ومسيحه ليسيرن إلى البيت فيهدمه .

كان سببا واهيا ذلك السبب الذى قيل لتبرير شن الحرب على مكة وهدم بيتها العتيق ، ولكنه كان سببا على أية حال ، فقد كان لا بد من سبب يثير حماسة الجماهير لامتشاق الحسام لتحقيق أغراض السادة السياسية .

وبعث أبرهة إلى النجاشى ينبئه أنه قد عزم على غزو مكة وعلى تقويض كعبتها ، وسأله أن يمده بالجنود والفيلة ، فتدفقت الجنود على اليمن . وجاءت الفيلة من الحبشة ، وراح أبرهة يعد العدة لحملة لم تر جزيرة العرب مثلها ، ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى غسان والقسطنطينية ، ثم ينطلق حملة الصليب نحو الشرق لقتال الفرس ونشر لواء المسيحية الخفاق على وجه الأرض .

وراح أبرهة يحلم بأيام مجيدة كأيام الإسكندر الأكبر ، وسمع العرب بما عزم عليه أبرهة فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم فراحت كل قبيلة فى طريق البيت العتيق تتأهب للدفاع عن بيت الله الحرام أو الهلاك دونه ، ولم يفكر أحد منهم فى أن يجمع كلمة العرب ليقفوا فى وجه الطاغية صفا واحدا ، « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

١٣

وراح الحادى يغنى بصوت يموج بالشجن يصور حنينه إلى الوطن وإلى البيت العتيق وإلى الحجون وإلى الصفا وإلى ما فى مكة من أحبة وصحاب ، فإذا بإحساسات ناعمة تتدسس إلى أفئدة الفتيان ، وإذا بالركبان يشاركون الحادى فى الغناء ، وإذا بالدموع تطفر إلى عينى عبد الله فقد لاحت له آمنة تملأ الفضاء بين الأرض والسماء يشع من جبينها ذلك النور الذى يملأ جوانحه حبا ورحمة وأمنا .

إنه مذ ودع آمنة يحس كأنما خلف قلبه هناك ، فلم ينثن طيفها عنه آناء الليل وأطراف النهار . إنها فى خياله وفى وجدانه وفى سويداء الفؤاد ، إنها أمامه وعن يمينه وعن شماله وحيثما يقلب وجهه يمس حديثها العذب أذنيه مسا رقيقا يحيى فيه أجمل الذكريات . وإن صوتها وهى تحدثه عن الرؤيا التى رأتها والتى سمعت فيها هاتفا يهتف بها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، يسرى فى ضميره كموسيقى حالمة ناعمة تدغدغ حواسه ، أو كصوت ملائكى آت من السماء بالبشرى يحمله على أجنحة السعادة إلى عوالم من الفرح والبهجة ، تبدو له من فرط نشوته أنها ليست من هذه الأرض .

وراح يحاول أن يميط اللثام عن الغيب وأن يرسم صورة بخياله لابنه الحبيب الذى بشرت به آمنة ، إلا أن كل أحلامه قد قصرت على أن تسمو إلى ما ينتظر ابنه من مجد ، فقد كانت أمانيه أرضية عجزت عن أن ترتفع بابنه إلى السماء وإلى ما فوق السماء ، لتربط بينه وبين رب الكوب الأسباب .

ومد رجل من رجال القافلة أنفه وزفر زفرة طويلة ثم قال :

ــ أشم ريح غزة .

ومس الصوت أذنى عبد الله فإذا بصوت حنون ينبعث من أغواره يقول فى وجد :

ــ أشم ريح مكة .

وعاد يعيش بوجدانه فى مكة ويطوف بالكعبة ويلقى نظرات حب على مجلس عبد المطلب فى ظل البيت ، ويهرع إلى داره الحبيبة يناجى آمنة ، ويتبسم لجاريته الحبشية ويوصيها بسيدتها خيرا ، فإنها قد حملت بسيد هذه الأمة . وتدور محاورات طويلة مفعمة بالنشوة بينه وبين الصحاب وإن كان يطوى مع عير قريش أرض الله .

وهبت ريح النسيم وبدت السحب فى رقعة السماء كأنها قطيع من بقر الوحش ، فراح الرجال يحثون الإبل على الإسراع لتجد القافلة لها عاصما من المطر فى غزة ، فإن هى إلا سويعات وينهمر الغيث . ومرت ساعة وراحت السحب تمر كأنها بغال دهم تجر جلالها ، وصار لا هم لرجال القافلة إلا مراقبة السماء بينا كان عبد الله غائبا عن الوجود بالرؤى العذاب التى تترادف على رأسه فتولد فى نفسه آمالا مشرقة عريضة تعزف على قيثارة فؤاده أرق الألحان .

وطافت به نبوءة سودة عمة وهب ، كاهنة قريش ، فقد تنبأت لآمنة بأنها النذيرة أو تلد نذيرا . وقد جاءت رؤيا آمنة وذلك الهاتف الذى هتف بها بأنها ستلد سيد هذه الأمة مؤكدة نبوءة كاهنة قريش . ستلد آمنة ذلك النذير الذى كانت نساء مكة كلها يتمنين أن يخرج من بطونهم . وتهلل عبد الله بالفرح فسيكون لابنه شأن عظيم وإن كان لا يدرى ما النذير ، فقد كان من قوم لم

يبعث الله فيهم من قبل نذيرا ولا رسولا

ودنت السحب من الأرض وتدلت فبدت كأنما بين أعلاها وأسفلها أثواب هينة رقيقة منشرة ، أو ضوء مصباح خافت يكاد أن يلفظ أنفاسه ، ثم أسدل عل وجه السماء نقاب من سحب داكنة فارتفع صوت الحادى بالحداء يحث الإبل على الإسراع فقد لاحت أرباض غزة .

وبرق البرق ثم هزم الرعد وسرعان ما هطلت الأمطار ، فاضطرب قطار القافلة لحظات ، فقد خف الرجال لتغطية ما يخشى عليه من البلل ، وهرع الكاهن ليطمئن إلى أن إلـٰهه فى مأمن من الماء النازل من السماء ، ثم استقامت العير وانطلقت تغذ السير فى دروب غزة .

وجفت دموع السحب وأطلت زرقة صافية من بين الغمام وما لبثت أن انداحت حتى استولت على رقعة السماء ، وبدت الأرض على جانبى القافلة كأنما كسيت ببساط من سندس أخضر وشى باليواقيت والزبرجد والمرجان ، وبلغت القافلة السوق فحطت رحالها وراح الرجال يلتقطون أنفاسهم .

وتمدد عبد الله فى خيمته وقد أطلق لخياله العنان ، فراح الفتى يجتر ذكرياته وهو سعيد ، فقد كانت السنوات القليلة التى مرت على عمره مفعمة بأحداث جسام وبتجارب قد لا يمر بها من بلغ من العمر عتيا ، فمَن مِن سادات قومه أخذه أبوه ليذبحه قربانا لإلٰهه ففداه الإلـٰه بمائة من الإبل ، ومَن مِن زوجات أشراف قريش بشرت بأنها قد حملت بسيد أمته ؟ إنه سعيد بحياته راض كل الرضا عن دنياه .

وتذكر جده هاشم بن عبد مناف أول من ثرد الثريد وهشمه فى الجدب . وأول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام .

وقد صارت إليه الرفادة والسقاية وساد قومه ولما يبلغ الخامسة والعشرين . إن هاشما قد امتاز بصفات فاضلة لم يطاوله بها أحد من قومه . ترى أتمتد به الأيام ليبلغ ما بلغه هاشم من مجد ؟ أيكون ابنه الذى بشرت به آمنة صنو هاشم ؟ وطافت به فكرة أن ينطلق لزيارة قبر هاشم فقام قبل أن يأخذ نصيبه من الراحة واتخذ طريقه إلى القبر وهو يتمثل مطرود بن كعب الخزاعى :

وهـــاشم فى ضريح وَسط بلقَعــــة
تسفـــى الريـــاح عليــه بين غـــزات

وبلغ قبر هاشم فوقف الحفيد مطرقا خاشعا أمام قبر جده الذى ربط بزواجه من سلمى الخزرجية بين مكة ويثرب . والذى جعل لهم بذلك الرباط المقدس أخوالا من بنى النجار ، فهو الجسر الذى شد وثاق مكة بالمدينة ، والذى خلق لبنى هاشم عصبية من أهم محاط فى طريق قوافلهم .

وشرد خياله فتذكر المطلب الذى هلك بردمان فى أرض اليمن ، ونوفلا الذى فاضت روحه بسلمان من ناحية العراق ، وطاف به سؤال : ما حكمة موت سادات قريش غرباء فى أرض العرب بين قبورهم مفاوز وصحراوات ، أتكون قبورهم معالم على طريق قوافل قريش ؟ أتكون رابطة بين مكة والعراق واليمن والشام تجعل الأفئدة تهفو إلى تلك البلاد ما دامت الرابطة السياسية بين تلك الدول قد انفصمت وحلت بينها العداوات ؟ و لم يهتد الفتى اليافع إلى شىء فدار على عقبيه وهو يفكر فى الموت ، ويعجب من القائلين إن هى إلا حياتنا الدنيا ، فإن كان ما يقولون حقا فما أتفهها من حياة ، أيعيش المرء سنين قصرت أم طالت ثم يموت كما يموت البعير ثم لا شىء ؟ لو كان الأمر كذلك لكان الخلق باطلا . إنه يؤمن بما وصل إليه أبوه بأن وراء هذه الحياة حياة

أخرى يحاسب الإنسان فيها على ما قدمت يداه إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ومرت أيام السوق مفعمة بالعمل والبهجة ، فقد باع رجال قريش كل ما معهم من سلع وحققوا أرباحا أثلجت صدورهم ، وأقبلوا على الشراء بعد البيع فكانت الخمور أكثر ما اشتروه فمترفو مكة وساداتها يدفعون فى خمور الشام كل ما يطلب منهم من ثمن .

وتقضت أيام غزة ولياليها النابضة الحية ، فقد كان السمر يمتد حتى مطلع الفجر ؛ رجال قريش يتبارون فى شعر الفحول من شعراء العرب ، والمتأدبون من أهل غزة يهرعون إلى ذلك النادى يلقون سمعهم إلى الرواة منتشية أرواحهم مفعمة بالفرح أفئدتهم ، وكان بعض رجال غزة يقصون أنباء الغساسنة ويروون أنباء الحروب التى لا تنقطع بين الغرب والشرق ، بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية وإمبراطورية فارس الساسانية .

وتجهزت عير قريش للعودة فاستوى الرجال على ظهور إبلهم ، وأذن بالرحيل فانطلقت القافلة وقد استقبلت مكة، وراح الرجال يكثرون من التلفت فقد كانوا يعتقدون أن كثرةالتلفت توجب العودةوكانوا جميعا يتمنون الأوبة ليسعدوا بالخضرة والماء والوجه الحسن ، فقد كان فى كل سوق من أسواق الأرض منازل للبغايا صاحبات الرايات الحمر .

وراح عبد الله يفكر فى يثرب وفى أخواله من بنى النجار ، فأبوه قد أرسله مع القافلة ليمتار تمرا ويزور أخواله ، فعبد المطلب يحب أن تظل الأسباب متصلة بين بنى هاشم والخزرج فى المدينة. فشيخ قريش لا ينسى ذلك اليوم الذى أراد فيه عمه نوفل أن يسلبه حقه فوجد من ينصره من أخواله على عمه ، وقد عرف ما كان من نصرة رزاح بن ربيعة لأخية قصى يوم أن جاءه فى حج قضاعة وثبت سلطانه على مكة ، فكان عبد المطلب حريصا على أن تظل

الوسائل طيبة بينه وبين بنى النجار ، فقد يفزع إليهم يوما بعض ولده يلتمس منهم النصرة والتأييد .

وسرت القافلة فى الكون العريض ، وانصرمت ليالى وأيام وأحس عبد الله وهنا يدب فى جسمه فلم يحفل به كثيرا ، فقد كان يحسب أن التعب دب فى أوصاله وأن ذلك الإرهاق لن يلبث أن يزول إذا أعطى حقه من الراحة .

ودخل خيمته ، وما إن أسلم جنبيه للرقاد حتى راح فى سبات عميق وغط فى نومه وانبثق منه العرق وذبل لونه ، حتى إن الذى دلف إلى خيمته ليوقظه وقف ينظر فى وجهه الأصفر خافق القلب وقد نزل بصدره شيء من الخوف والقلق .

وتقدم الرجل وهتف فى صوت خافت :

— عبد الله .. عبد الله .

وظل عبد الله فى نومه يلتقط أنفاسا مضطربة فى جهد شديد ، فمد الرجل يده وراح يهزه وهو يناديه :

— عبد الله .. عبد الله .

وفتح الفتى عينين واهنتين عجز عن أن تظلا مفتوحتين ، فسحب عليهما جفنيه ، وأطرق برأسه على صدره وزفر زفرة طويلة فى صوت مسموع ، فقال له الرجل :

— ما بك يا عبد الله ؟

وأراد عبد الله أن ينهض ولكنه عجز عن النهوض فقال فى صوت خافت :

— إنى سقيم .

وامتلأت خيمة عبد الله برجال القافلة ، فابن شيخ قريش وأحب ولده إلى قلبه مريض ، وأعطاه كاهن القافلة وطبيبها بعض العقاقير ، ثم حمل عبد الله

ووضع فى هودج على ظهر بعير ، ورجال قريش يرجون أن تزول عنه الوعكة التى ألمت به قبل أن يبلغوا المدينة .

وانسابت القافلة فى دروب المدينة تمشى وهنا ، وارتفعت أصوات الترحيب من المدنيين .

— عير قريش .. عير قريش ، مرحبا بعير قريش .

ولم تتهلل الوجوه بالفرح بل كان العبوس على كل الوجوه ، فعبد الله لا يزال مريضا وإن أمره يسوء يوما عن يوم ، وقد حار فيه كاهن القافلة وطبيبها .

وحطت القافلة رحالها فى السوق ، وفى نفس الوقت كان سادات قريش ممن كانوا فى العير آخذين بخطام الناقة التى عليها هودج عبد الله المريض منطلقين إلى دور أخواله من بنى النجار ، وسار الركب الصغير يغمره الأسى فى طرقات المدينة ، ومر بالدار التى بناها تبع اليمن تبان أسعد للنبى المنتظر يوم أن جاء ليهدم يثرب ومنعه أحبار اليهود عن ذلك قائلين ، إنها مهاجر رسول من بنى إسماعيل ، ولم يحس الركب خطر تلك الدار فقد كانت دار تريد أن تنقض ، وكان الغيب وحده يعلم ما بين المريض الذى فى الهودج وبين تلك الدار من وشائج وأواصر وأسباب .

ووقف الهودج أمام دور بنى النجار ، وما إن بلغ مسامعهم أن عبد الله مريض حتى خفوا إليه مهطعين وحملوه فى رفق ، وقبل أن يغيبوا به فى الدار جاهد عبد الله وفتح عينيه وقال لرجال قريش فى صوت ضعيف :

— لا تنسوا أن تشتروا التمر الذى طلب منا عبد المطلب أن نشتريه .

ثم أغمض عينيه ولاح فى وجهه شىء من الراحة ، فقد اطمأن إلى أن قافلة قريش ستعود وهى تحمل ما طلبه أبوه .

وانصرف الرجال يبتهلون إلى آلهتهم أن يشفى ابن عبد المطلب ليعود معهم . فقد أصبحوا يفزعون من مجرد فكرة عودة القافلة إلى مكة دون أن يكون فيها فتى قريش الذبيح .

وراح رجال قريش يمضون وقتهم فى السوق وفى عبادة الله وقد أعرضوا عن مباهج يثرب ولهوها ، باتت نفوسهم قلقة لما أيقنوا أن أوبة عبد الله معهم لم تعد أمرا ميسورا ، فقد اشتدت عليه وطأة المرض وخشوا أن يهلك منهم فى الطريق .

وجاء يوم الرحيل فذهب الرجال إلى حيث رقد عبد الله وراح الرجال وبنو النجار يتناجون ، كان بعض الرجال يرى أن يحمل معه عبد الله ، فدخول القافلة مكة وعبد الله معها مريض أهون على أهل مكة من عودة القافلة دون أن يكون فتاها بين العائدين . ولكن أخوال عبد الله من بنى النجار أبوا أن يغادر عبد الله فراشه قبل أن يبل من مرضه ، وانتصر الرأى القائل ببقاء عبد الله عند أخواله ، فألقى الرجال على عبد الله نظرة طويلة ثم داروا على أعقابهم منكسى الرءوس ، تخفق أفئدتهم خوفا ورهبة كلما تذكروا دخولهم مكة دون أن يكون فيهم فتى مكة وابن سيدها الحبيب .

١٤

نشر الليل رداءه الأسود على مكة ، وغابت نجوم السماء وهجع الكون وراح فى سبات ولكن النسوة فى أغلب دور المدينة المقدسة لم تعرف عيونهم النوم ، فقد حان أوان عودة قافلة قريش من الشام ، ودنت ساعة تلاقى الأحبة بعد طول الفراق .

واختلجت عين امرأة منهن فأشرق وجهها بالابتسام ، ورأت أخرى تهلل أسارير صاحبتها فقالت لها :

ــ فى وجهك حلم شهى .

ــ اختلجت عينى . سأرى من أحب عن قريب .

فقالت لها صاحبتها :

إذا اختلجت عينى تيقنت أننى أراك وإن كان المزار بعيد

وفى دار أخرى أخذت زوجة ترابا من موضع قدم زوجها وموضع رحله ، فقد لقنت منذ نعومة أظفارها أن ذلك أسرع لرجوعه ، وراحت تقول وهى تغدو وتروح فى غرفتها متلهفة على عودة رجلها :

أخذت ترابا من مواطئ رحله غداة غد كيما يئوب مسلما

وراحت الفتيات المتلهفات على الزواج ينشرن جانبا من شعورهن ويكحلن عيونهن ويحجلن على إحدى أرجلهن فى جنح الليل وهن يقلن :

ــ يا لكاح ! أبغى النكاح ، قبل الصباح .

وبالقرب من النافذة راحت آمنة ترقب الطريق خافقة القلب وعلى مقربة منها جلست جارية عبد الله الحبشية تتحدث وآمنة غائبة عنها ، فقد سبقها خيالها إلى لقاء الحبيب . رأت بعين الشوق قافلة قريش تحط رحالها خارج أول بيت وضع للناس ورأت عبد الله ينزل عن راحلته يتألق وجه بالنور ويشرق بالابتسام ثم ينطلق كالقمر يحف به رجال قريش كالنجوم إلى الحرم ، يطوف به سبعا . وسرعان ما رأته يعدو فى دروب مكة ، وخيل لها وهمها ولهفتها على أن تلقى عبد الله أنها تسمع طرقاته على الباب ، وراحت تجرى وراء أحلامها المجنحة التى تملؤها نشوة وانشراحا ، فرأت نفسها تستقبل زوجها العائد الذى تركها وهى لا تزال فى ثياب العرس فى وجد وهيام ، وراحت تحدث طيفه وقد تهلل بالفرح وتروى له أعذب الأحاديث عن ذلك الذى حملت به ولم تحس ما سمعت عنه من نساء بنى زهرة من ثقل الحمل وآلامه .

واستراحت للأحداث البهيجة التى كان خيالها يمدها بها فأطلقت العنان لأفكارها ، وراحت تقول لطيف عبد الله وقد رفت بسمة حالمة على شفتيها : إن هالة قد حملت من أبيك وقد عزم عبد المطلب أن يسمى ابنه حمزة إن جاء ولدا ، بينا لم نفكر بعد فى اسم لوليدنا ، أنسميه قصيا أم هاشما أم عبد المطلب ؟ إنى أعلم يا عبد الله أنك تحب أبا طالب وأن أبا طالب يحبك ، أنسميه أبا طالب ؟

وملأت النشوة فؤاد آمنة فشرد خيالها ، وطالت وقفتها عند الشباك حتى خدرت رجلها فالتفتت إلى جارية عبد الله وقالت :

— خدرت رجلى .

فقالت الجارية التى كانت تتحدث غير ملتفتة إلى شرود سيدتها .

ـ ذكر الحبيب يزيل خدر الرجل . ادعى أحب الناس إليك .

فقالت آمنة فى صوت متهدج فيه رنة آسرة منبعثة من كنز الحب :

ـ يا عبد الله .. يا عبد الله .

وعادت آمنة لتغيب عما حولها فى الدنيا المشرقة الخافقة بالأمل التى أقامتها فى وجدانها ، رأت عبد الله يئوب إليها وعلى شفتيه بسمة أروع من كل مباهج الدنيا ، ويلف حول عنقها قلادة من الذهب أتى بها من سوق بنى قينقاع . إنها تكاد تحس أنامله وهو يصلح القلادة على جيدها ، وأنفاسه تتردد فى جنبات الغرفة ، وصورته تملأ الأفق كله وتحيل ليل حياتها نورا لطيفا مفعما بالبهجة والحب والسلام .

ومزق سكون الليل صوت جهورى تردد فى جنبات مكة كأنه البشرى أو العيد :

ـ أقلبت عير قريش .. أقبلت عير قريش .

ودق قلب آمنة بين ضلوعها دقات عالية عنيفة وتبخرت فى لحظة كل أحلامها ، وسرت فى بدنها رعدة وقشعريرة . إنها باتت أمام المجهول وجها لوجه وعما قليل ينبلج الصبح عن الحقيقة ، ترى كيف أنت يا عبد الله ؟ أين أنت يا حبيبى ؟ وغلبتها عاطفتها الجياشة فى جوفها فانهمرت الدموع من مآقيها .

وفتحت دور مكة وخرج الرجال مهرولين لاستقبال الأحبة العائدين . وانطلق عبد المطلب وأبناؤه ليضموا عبد الله إلى صدورهم الملهوفة ، وراح أبو لهب يهرول ويتحلب ريقه لخمر الشام .

وحطت القافلة وأقبل أهل مكة يستبقون إليها وعانق الرجال الرجال ، وانبثقت دموع الفرح وعبرات الرحمة من العيون وارتفعت الأصوات تنادى

الأحبة ، وقد ماج القادمون بالمستقبلين وارتفع صوت عبد المطلب ينادى فى انفعال :

— عبد الله .. عبد الله .

وراح الحارث والزبير وأبو طالب وإخوتهم يشقون الجموع ويتلفتون بعيون زائغة وينادون على أخيهم فى فزع ولهفة دون جدوى ، فلم يكن عبد الله فتى قريش اليافع بين العائدين .

وأقبل زعيم القافلة على شيخ بنى هاشم وهو يتصنع التجلد ويرسم بسمة هادئة على شفتيه ، وما إن رآه عبد المطلب حتى قال له فى صوت فيه رهبة ووجد :

— أين عبد الله ؟

فذهبت نفس الرجل شعاعا و لم يقو على أن يستمر فى بشاشته ، بل قال وقد عبس :

— خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض .

فأحس كأن يدا قوية تهصر قلبه وأن دموعا تبلل روحه تريد أن تطفر من مقلتيه ، وراح يجاهد ليقاوم مخارفه ، ولكنه لما تذكر آمنة انهارت مقاومته وكادت تخور عزيمته . فإنها لمهمة ثقيلة على قلبه أن يقول لآمنة التى تنتظر أوبة حبيبها وهى مفعمة بالسرور إن فتاها مريض هناك فى يثرب عند أخواله بنى النجار .

لك الله يا آمنة ، خلا كل حبيب بحبيبه وحبيبك غريب مريض فى أرض الغرباء . ترى أيئوب عبد الله يوما ؟ وقفزت إلى رأس عبد المطلب ذكريات أليمة مرت بقريش ، إن أباه هاشما مات غريبا فى غزة ، ومات عمه المطلب فى

أرض اليمن ، وهلك عمه نوفل فى أرض العراق ، أيموت عبد الله فى يثرب ؟

وفزع عبد المطلب لذلك الخاطر وأن أنة كان فيها ذوب نفسه ، لكأنما كانت سكينا مزقت نياط قلبه . وجاء إليه أبناؤه وقد بلغهم خبر مرض عبد الله ولاح فى وجوههم الأسى العميق إلا أنهم راحوا يحاولون إدخال الطمأنينة على قلبه وإن كانت الطمأنينه قد فرت من أفئدتهم ، فقد كانوا يعلمون أن عبد الله أحب إلى أبيهم منهم أجمعين .

وذهب عبد المطلب وبنوه إلى دار آمنة مطرقى الرءوس قد سكنت ألسنتهم عن الدوران فى أفواههم وإن كانت أفكارهم جميعا قد اتجهت إلى الفتى المريض فى يثرب ، وإن كانت قلوبهم مفعمة بالرحمة والإشفاق .

ونسى أبو لهب لما سمع بمرض عبد الله خمر الشام وسمر الليل وما راوده من أحلام المترفين الغارقين حتى الذقون فى الشهوات ، فأبو لهب يحب عبد الله ويحس راحة تغمره كلما جلس إليه وناجاه ، فقد كان فى عبد الله شيء غامض مثير يجذب إليه النفوس والأرواح .

ورأت جارية عبد الله الحبشية شيخ قريش وولده قادمين فتفرست فيهم لعلها ترى عبد الله ولكنها لم تجده بينهم ، فقالت فى صوت خافت :

— سيدى عبد المطلب قادم .

ونظرت آمنة وقد أشتد وجيب قلبها وراح صدرها يعلو ويهبط فى اضطراب . وتدفقت مشاعر متباينة إلى جوفها حتى اختلط عليها أمرها وأحست أنها تعيش لحظة حاسمة فى حياتها ولفها خوف شديد لما تبينت أن زوجها الحبيب لم يقبل مع القادمين .

ودخل عبد المطلب باسر الوجه وخلفه بنوه على وجوههم غبرة ، فما إن رأتهم آمنة حتى بدا الهلع فى وجهها وملأ الفزع عينيها واستشعرت كأن

روحها تكاد أن تفر من فيها ، وقرأ عبد المطلب الرعب فى محياها فقال فى حنان :

ـــ لا تراعى يا آمنة إنه بخير .

ـــ أين عبد الله ؟

ـــ عند أخواله فى يثرب .

ـــ ولماذا لم يعد مع العائدين ؟

فأطرق عبد المطلب وقال وهو يغالب دموعه :

ـــ إنه مريض هناك .

وكأنما أراد أن يطمئن نفسه قبل أن يدخل الطمأنينة على قلبها :

ـــ سيسافر الحارث إلى يثرب ليعود بأخيه .

فقال الزبير فى انفعال :

ـــ بل سأسافر أنا وأعود بعبد الله .

وشردت آمنة وساد المكان سكون ثقيل ، وانبعثت الضحكات من دور مكة وخيم القلق والأسى والخوف من المجهول على دار عبد الله .

وفى الصباح كان عبد المطلب وبنوه يودعون الزبير وألسنتهم تلهج بذكر عبد الله ، وقد فاضت عواطفهم حتى إن أحدهم كان يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينى صاحبه . وعلى البعد وقفت جارية فتى قريش ترصد ذلك الوداع ، حتى إذا ما انطلق الزبير ورفقاؤه نحو الأفق عادت الجارية إلى سيدتها القلقة الأرقة المنزعجة لتنبئها سفر الزبير وقرب عودته بأخيه بارئا ليملأ الدار حياة وأملا .

ومرت الأيام والزبير يغذ السير ليفر من وساوسه التى كانت تعذبه وتضنيه وتلهب وجدانه بسوط عذاب ، فقد كانت مخاوفه تفح فى سريرته بأن أخاه

وأنه سيجد عند بلوغه يثرب أنه قبر ، فكان الزبير يهز رأسه هزا عنيفا يريد أن يطرد ما احتله من رؤى مشئومة ، ولكن محاولاته كانت تذهب أدراج الرياح فقد كانت فكرة موت أخيه تلح عليه إلحاح الذباب كلما ذب آب .

وما أكثر ما أغمض عينيه حتى لا يرى صورة أخيه مسجى على فراش الموت ، ولكن الصورة ظلت واضحة فى ضميره تزداد وضوحا كلما حاول أن يطمسها من وجدانه ، فقد أبت عين خياله أن تغمض عن المخاوف التى كانت تساوره فى نهاره وتعذبه فى منامه .

ودلف إلى يثرب من ثنيات الوداع ، وما إن اجتازها حتى رن فى أغواره صوت بشع يردد : « ثنيات الوداع .. الوداع .. الوداع » وجاهد ليصم أذنيه عن نذير البين ولكن هيهات فقد صارت نفسه كقاعة يرن فى جنباتها صوت خطيب مفوه لا حديث له إلا الوداع الذى لا لقاء بعده .

وانتهت عند دار بنى عدى بن النجار رحلة العذاب ، فما إن بلغ دار أخواله وسأل عن عبد الله وقيل له إنه بخير حتى تبخرت كل متاعبه وآلامه ؛ وراح يرقى الدرجات وقد نامت مخاوفه إلى حين وبدأ الأمل يزحف إلى صدره . ولكن ما إن دخل على أخيه ورآه ذابلا ذبول الموت حتى غاض تفاؤله وأحس وقدة نار فى حلقه وأن الأرض تميد به وأنه يريد أن ينقض ، إلا أنه تمالك وانتزع بسمة رفت على شفتيه وإن كان قلبه يدمى فى وجد :

ـــ عبد الله .. عبد الله .

وخيل لعبد الله أن صوت أخيه آت من واد سحيق وإن مس أذنيه مسا رقيقا عذبا ، وجاهد حتى فتح عينيه فرأى صورة الزبير تتراقص أمامه فأحس راحة فى أعماقه وعجزت أساريره عن أن تعبر عن الفرحة التى انتشرت بين

ضلوعه . ومد يدا ضعيفة واهنة إلى الزبير فاحتواها الزبير بين يديه وهو يبتسم ، وإن كانت الخناجر تطعن فؤاده ، وتمزق أحشاءه .

وراح الزبير يروى لأخيه أنباء آمنة وأخبار عبد المطلب ولهفة إخوته على عودته وعبد الله يصغى وقد لاح فى وجهه الأسى والوجد حتى نال منه التعب فأسبل عينيه وراح فى سبات ، فانسل الزبير من الغرفة وذهب بعيدا ليجهش بالبكاء .

ومرت أيام والزبير إلى جوار أخيه يحاول أن ينفث فيه الأمل بأحادثه الطلية عن آمنة وعن ابنها الذى حملت به ، وعن رغبة آمنة فى عودته ليشهد ابنه الحبيب ، ولكن عبد الله كان يعانى من سكرات الموت . وبينما كان يجود بآخر أنفاسه سمع صوت آمنة كالطنين تقول : « بينما كنت بين اليقظة والمنام سمعت هاتفا بى : إنك حملت بسيد هذه الأمة » ، فرفت بسمة على شفتى عبد الله ثم سكنت حركته إلى الأبد .

وجهز عبد الله وحمل على الأعناق ، وسار الزبير خلف نعش أخيه وهو واله حزين ، لا يرقأ له دمع ، فقد مات فتى قريش غريبا فى يثرب كما مات سادة قريش غرباء فى الأرض ولم يجد عبد الله من يندبه ، ولو مات فى مكة لوقفت النائحات على رءوس الجبال يندبن ابن عبد المطلب .

وقبر عبد الله فى دار التابعة أحد بنى عدى بن النجار وصار الفتى فى الغابرين ، ثم عاد الزبير مهيض الجناح كسير القلب إلى راحلته ، وانطلق إلى مكة يحمل إليها أسوأ خبر مذ عاد الناعون بنبأ هلاك هاشم بن عبد مناف .

وفى الطريق راح الزبير يسأل نفسه : فيم كان الفداء إذا كان الموت قد كتب على عبد الله ؟ لو أن عبد المطلب ذبح حبيبه بيده قربانا إلى إلـٰهه لوجد فى الوفاء بنذره بعض العزاء . أما وقد رضى إلـٰهه بنحر مائة من الإبل عوضا

عن عبد الله فلم اغتال الفتى بعد الفداء ؟

ورأى نفسه ينعى عبد الله إلى عبد المطلب فأحس غثيانا وبالأرض تدور به وأنه يوشك أن ينهار . وراحت القافلة الصغيرة تسير هونا لم يرتفع فيها صوت الحادى وقد أطرقت الإبل برءوسها كأنما كانت تحس فداحة الخسارة التى منيت بها قريش .

ورأى الزبير جبال مكة العالية فلم يتهلل بالفرح كما اعتاد أن يفرح كلما وقعت عليها عيناه ، بل انقبض صدره وأسف على انتهاء الرحلة التى ود أن تطول إلى الأبد حتى لا ينعى إلى عبد المطلب أحب ولده إلى قلبه .

وحطت الإبل بفناء الكعبة ونزل الزبير عن راحلته وذهب مطأطئ الرأس إلى حيث يجلس عبد المطلب وأبناؤه وندماؤه . ورأى عبد المطلب الزبير وهو قادم وحده فى وجهه أعمق الأسى فاشتد وجيب قلبه وعرف فى لحظة كل المأساة . ورأى الإخوة أخاهم الزبير فهرعوا إليه مفزوعين قائلين :

— أين عبد الله ؟

وملأت الدموع عينى الزبير وقال فى صوت حزين وقد نكس رأسه :

— مات .

وسار الشيخ وقد انحنى ظهره بين أبنائه يكاد ينوء من الحزن وقد نزل بقلوبهم هم ثقيل ، وانطلق الجميع إلى بيت آمنة ليواسوها فى أفدح نكبة تنزل بامرأة ، وما إن دخلوا عليها حتى فهمت كل شيء فانهارت الدموع من عينيها وراحت تندب الزوج والحبيب ، وانتبذت مكانا قصيا وراحت تقول :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم

وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعتـــه المنايـــا دعـــوة فأجـــابها

وما تـركت فى الناس مثـل ابـن هـــاشم

عشيـــة راحـــوا يحملـــون سريـــره

تعـــاوره أصحابـــه فى التزاحـــم

فـــإن تك غالتـــه المنـــون وريبُهـــا

فقـــد كان معطـــاء كـــثير التراحـــم

وذاع فى مكة خبر موت عبد الله فسكتت القيان عن الغناء وساد الوجوم ولبست المدينة المقدسة على فتاها الذبيح ثوب الحداد ، وراح الناس يتساءلون فى عجب كما تساءل من قبل الزبير بن عبد المطلب : وفيم كان الفداء ؟ ولم يفطن فى مكة كلها إلى حكمة الفداء غير رقيقة بنت نوفل فقد قالت فى نفسها أو فى عبد الله غايته من الحياة بعد أن فداه الله بمائة من الإبل ودخل على آمنة بنت وهب وأودعها ما كان يتألق فى وجهه من سحر ونور .

١٥

تجهز جيش أبرهة لغزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والقسطنطينية ولينطلق الجميع إلى أرض فارس لوضع حد للحروب الناشبة بين الشرق والغرب ، بين المجوسية والمسيحية ، ليرفرف الصليب على وجه الأرض ، ولتدين البشرية بدين اختلف أهله وانقسموا إلى طوائف وفرق .

وجاء أبرهة بفيل من الحبشة امتطاه وسار به على رأس جيشه ، وذاع بين العرب أن جيش أبرهة ما خرج من اليمن إلا ليهدم الكعبة ليجذب العرب إلى كنيسته وليفرض عليهم النصرانية وليؤدبهم جزاء وفاقا على انتهاك بعضهم حرمة كنيسته وتلطيخها بالدنس ، ولم يفطن العرب إلى الغرض السياسى الذى كان يريد تحقيقه فرأوا جهاده حقا عليهم .

ودعا ذو نفر رجالا من اليمن وكان من ملوكهم وأشرافهم ، فخف إليه قومه ومن أجابه من العرب وسار بهم لحرب أبرهة وصده عن البيت المقدس الذى جعله الله مثابة وأمنا .

والتقى جيش أبرهة برجال ذى نفر ودار بين الجانبين قتال استبسل فيه اليمنيون ومن استجاب لندائهم من سائر العرب ، ثم دارت الدائرة على اليمنيين وحاقت بهم الهزيمة وسقط ذو نفر أسيرا فى يد جنود أبرهة .

وأتى به أسيرا إلى أبرهة فجعل يرميه بنظرات غاضبة ثم أمر بقتله ، فقال له ذو نفر :

— أيها الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى .

فأمر أبرهة أن يحبسوه عنده فى وثاق ، ثم انطلق فى أرض العرب حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب .

كان نفيل والذين معه أذل من أن يصدوا زحف جيش الفيل ولكنهم وقفوا فى وجهه وقد شهروا سيوفهم وحاربوا عن بيتهم المقدس فى شجاعة ، وسقط الرجال قتلى يغطون أرض المعركة و لم يولوا الأدبار و لم يزولوا عن مواقعهم ، حتى سقط نفيل أسيرا فى أيدى جنود أبرهة .

وسيق نفيل إلى حيث كان الملك فراح أبرهة يرميه بنظرات حامية ، ثم أمر بقتله فقال له نفيل :

— أيها الملك لا تقتلنى ، فإنى دليلك بأرض العرب .

فخلى سبيله وخرج معه يدله . وبلغت الأنباء الطائف أن جيش أبرهة يدنو وأنه ما خرج إلا ليهدم الكعبة ، فدخل الناس إلى معبد اللات وأطلقوا البخور ونحروا القرابين وسألوا آلهتهم أن ترفع عنهم غضب أبرهة ومقته .

ومر أبرهة بالطائف فخرج إليه مسعود بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فقالوا له :

— أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا الذى تريد ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك منندلك عليه .

وفرت سقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر

وتجاوز أبرهة عنهم فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال وقد امتلأ أبرهة غرورا فما استطاع أحد أن يصمد فى وجهه وإن القبائل ترتجف منه فرقا وتملأ منه رعبا إذا ما عاينت جيشه ورأته على رأس فيله شامخا بأنفه . ووقر فى وجدانه أن ليس فى الأرض ولا فى السماء من قوة تحول بينه وبين هدم بين العرب والزحف إلى الشام ليلتقى نصارى الجنوب بنصارى الشمال .

وخطر على رأسه أنها وثبة واحدة ثم ينقطع آخر خيط يشد العرب بعضهم إلى بعض ، وثبة واحدة ثم تتفرق كلمة العرب إلى الأبد ، فذلك البيت هو الخطر الذى قد تتجمع حوله قبائل العرب المتنافرة المتباغضة المتقاتلة يوما ما إذا وجدت الزعيم الحانى الذى يؤلف بين قلوبهم ويجمعهم بين ذراعيه كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال يدله على الطريق ، ولم يحاول أبو رغال أن يضلل جيش أبرهة كما فعل صالح يوم أن كان دليلا لجيش أوليوس غالوس ، بل سار بأبرهة على الطريق حتى أنزله المُغَمَّس على طريق الطائف ومكة .

وعسكر أبرهة وراح يتأهب للوثبة الفاصلة . إنه يرى جبل أبى قبيس والأخشبين جبلى مكة وإن هى إلا زحفة واحدة ويسوى بالأرض بيت العرب المقدس . وفيما هو عاكف على رسم خططه جاءه من قال له : إن أبا رغال قد مات .

وقبر أبو رغال فى المغمِّس ، وبعث أبرهة إلى الأسود بن مقصود وكان رجلا من الحبشة وأمره أن يغير على تهامة ليجس نبض المكيين ويعرف مقدار استعدادهم .

وأغار الأسود بن مقصود ومن معه من الفرسان على تهامة فأصاب مائتى بعير لعبد المطلب ، وساق أمامه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وبلغ

ذلك قريش فاجتمعت كنانة وهذيل ومن كان بالحرم وعقدوا العزم على قتال من ارتكب إثم الإغارة على الأموال والإبل التى ترعى فى حماية البيت المحرم .

وصعد الرجال على الجبال ونظروا فإذا بجيش أبرهة يغطى وجه الأرض : خيل وإبل وبعير وفيل عظيم لم يسبق لهم أن رأوا مثله على رأس جيش وجنود لا قبل لهم بها ، فعرفوا أنهم لا طاقة لهم بقتال هؤلاء القوم فأعرضوا عن فكرة القتال وانتظروا ما يسفر عنه الغد .

وجاء حناطة الحميرى إلى مكة وقال :

ـــ أين سيد أهل هذا البلد وشريفها ؟

ـــ ماذا تريد منه ؟

ـــ أنا رسول الملك أبرهة إليه .

كان عبد المطلب جالسا على فراشه فى ظل الكعبة ومن حوله سادات قريش وأبناؤها وندماؤه فأشير إليه ، وقيل لرسول أبرهة :

ـــ إنه هناك .

وذهب حناطة الحميرى إلى حيث يجلس عبد المطلب . كان وحده على فراشه أبيض حسن الوجه فى جبينه عز الملك ، فنظر إليه حناطة برهة ثم قال :

ـــ إن الملك يقول لك إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم .

فالتفت عبد المطلب إلى من عنده ثم قال :

ـــ والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليلة إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

.فقال حناطة وهو لا يكاد يصدق أذنيه :

— فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، وفى الطريق علم به عبد المطلب أن صديقه ذا نفر وقع أسيرا فى يد أبرهة وأنه قد حبس عنده ، فلما أتى العسكر سأل عن ذى نفر ودخل عليه وهو فى محبسه فقال له :

— يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال ذو نفر وهو يطرق برأسه :

— وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشيًّا . وما عندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك بخير إن قدر على ذلك .

— حسبى .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له :

— إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه بما استطعت .

— أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له :

— أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رءوس الجبال ، فأْذن له عليك فليكلمك فى حاجته .

فاعتدل أبرهة على سرير ملكه وقال :

— فليدخل .

ودخل عبد المطلب مديد القامة فخما ، فقد كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه .

— قل له ما حاجتك ؟

فقال له ذلك الترجمان فقال :

— حاجتى أن يردَّ على الملك مائتى بعير أصابها لى .

فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه :

— قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لا تكلمنى فيه .

— أنا رب الأبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه .

— ما كان ليمتنع منى .

— أنت وذاك .

ودخل يعمر بن نفاثة بن عدى سيد بنى بكر وينتهى نسبه إلى كنانة ، وخويلد بن وائلة الهذلىّ سيد هذيل ، وانضموا إلى عبد المطلب وقالوا :

— لك ثلث أموال تهامة على أن ترجع عنا ولا تهدم البيت .

وأبى أبرهة عليهم وأمر أن يرد على عبد المطلب الإبل التى أصاب له ، فعاد عبد المطلب بالإبل ونحرها جميعا قربانا لله ، وأخبر قريش الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رءوس الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش .

وراح المكيون رجالا ونساء وولدانا وشيبا يرقون فى الجبال ، وخرجت آمنة بنت وهب وهالة بنت وهيب فيمن خرج من النساء . ووقفت آمنة على جبل قبيس تنظر و لم ترتجف فرقا بل طاف بها أمن وسلام .

ومس أذنيها ذلك الصوت الرقيق الذى هتف بها يوما مذ سبعة أشهر مضت : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فراحت الأفكار تدور فى رأسها : أتكون للعرب أمة إذا هدم بيتها ؟ قلبها يقول لها إن الله سيحمى بيته وإلا كان ذلك الهاتف بها وهمًا من الأوهام .

وذهب عبد المطلب إلى الكعبة وأخذ بحلقة بابها وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب :

لا هـــم إن المرء يمـ ... ـنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبـــن صليبهم ... ومحالهم أبـــدا محالك
إن كـنت تاركهم وكعـ ... ـبتنا فأمرا ما بـدالك
فلئــن فعــلت فإنــه ... أمــر يتمُّ بــه فعــالك
اسمع بـأرجس مـا أرا ... دوه وانتهكــوا حــلالك
جــروا جميــع بلادهــم ... والفيل كـى يسبـوا عيـالك
عمــدوا حماك بكيدهــم ... جهـلا ومـا رقبـوا جـلالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش إلى رءوس الجبال . وذهب عبد المطلب إلى حيث كانت آمنة وهالة ووقفوا ينتظرون ما فعل أبرهة بمكة إذا دخلها .

وشخصت الأبصار إلى السماء ، نسى الناس فى شدتهم هبل واللات والعزى ومناة والأصنام المكدسة فى جوف الكعبة واتجهوا دون وساطة إلى

رب السماء والأرض رب العالمين ، وراحوا يبتهلون إلى الله أن يصونهم وأن يبعد عنهم معرة جيش أبرهة ، وراحت آمنة تدعو الله ليحمى بيته ويخفر المعتدين .

وأصبح الصباح وتهيأ أبرهة لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه و لم يبق إلا وثبة واحدة ثم ينهار البيت وينفتح الطريق إلى الشام ويتحقق حلم قيصر .

وجاء نفيل بن حبيب الخثعمى حتى جاء إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال :

ـــ ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام . ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام .

ثم أرسل أذنه وخرج يشتد حتى أُصعد فى الجبل .

وأمر أبرهة بالتقدم وسحب أنيس الفيل ولكن الفيل أبى أن يتقدم . فضربوا رأسه بالفأس ليتقدم فأبى . فأدخلوا خشبة بها اعوجاج فى بطنه فأدموه بها فأبى أن يتقدم . فوجهوه راجعا إلى اليمن فراح يهرول ، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى مكة فوقف فى مكانه لا يريم .

وأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فإذا بها تجدرهم جدرا . وتفشى الجدرى فى عسكر أبرهة فراح أبرهة يسأل :

ـــ أين نفيل بن حبيب ليدلنا على الطريق ؟

وارتفعت أصوات تنادى نفيل بن حبيب فقال نفيل :

أين المفر والإلٰه الطالب   والأشرم المغلوب ليس الغالب

وخرج الأحباش يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل .

وأصيب أبرهة فى جسده وعاد يجرجر أذيال الإخفاق وقد أصبح كل أمله أن يصل إلى صنعاء قبل أن يلفظ أنفاسه فى الطريق ، بعد أن كان يقول وهو

منتفخ الأوداج ليس فى الأرض ولا فى السماء قوة تمنعنى من هدم البيت .

ورأى الناس وهم فى رءوس الجبال أن الله قد حبس أبرهة وجيشه عن بيته وأنه قد هزم أعداءه وحده ، فارتفعت الابتهالات بالشكر حتى بلغت عنان السماء ، وعادت النسوة آمنات فرحات إلى دورهن فلم تلحقهن معرة جيش أبرهة ، وعادت آمنة إلى دارها وقد أيقنت أن الهاتف الذى هتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة حق ، فقد حمى الله بيته لأمر ذى بال ، وقد أصبحت تحس فى وجدانها أن الله قد منع بيته ببركة ذلك الذى فى بطنها .

وخرج رجال قريش فى إثر فلول جيش أبرهة ينظرون ، فرأوا الأحباش يترنحون ويسقطون كأنهم أعجاز نخل خاوية وقد غطت جثثهم وجه الأرض ، وظلوا منطلقين فرحين حتى بلغوا المغمَّس ، ورأوا قبر أبى رغال الذى كان دليل أبرهة إلى البيت فراحوا يرجمون القبر بالحجارة ويلعنون الخائن الأثيم .

وتهلل عبد المطلب بالفرح وفاضت عواطفه فقال :

أيها الداعى لقد أسمعتنى ... ثم ما بى عن نداكم من صمم

إن للبيت لربا مانعا ... من يرده بأثام يصطلم

رامه تبع فيمن جندت ... حمير والحى من آل قدم

فانثنى عنه وفى أوداجه ... جارح أمسك منه بالكظم

قلت والأشرم تردى خيله ... إن ذا الأشرم غر بالحرم

وذاع فى قبائل العرب أن الله رد الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصاب به من

النقمة فأعظمت العرب قريشا وقالوا :

ــ أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .

١٦

كان كسرى أنو شروان فى إيوانه يفكر فى مكة فخطرت الحيرة على ذهنه فلم يعد عليها أحد من آل المنذر ، فقد ملك كسرى بن قبيصة الطائى عليها إلى أن يرى رأيه فمكث مملكا عليها أشهرا ، و لم يجد كسرى أحدا يرضاه فقال :

ــ لأبعثن إلى الحيرة اثنى عشر ألفا من الأساورة ، ولأملكن عليهم رجلا من الفرس ، و لآمرنهم أن ينزلوا على العرب فى دروهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم .

وكان عدى بن زيد واقفا بين يديه فأقبل عليه وقال :

ــ ويحك يا عدى ! من بقى من آل المنذر ؟ وهل فيهم أحد فيه خير ؟

ــ نعم أيها الملك السعيد إن فى ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير .

ــ ابعث إليهم فأحضرهم .

فبعث عدى إليهم فأحضرهم وأنزلهم جميعا عنده ، ثم بعث إلى النعمان وكان قد تزوج هندا ابنته وقال له :

ــ لست أملّك غيرك فلا يوحشنك ما أفضل به إخوتك عليك من الكرامة ، فإنى إنما أغترهم بذلك .

وراح يفضل إخوته جميعا عليه فى النزل والإكرام والملازمة ويريهم تنقصا للنعمان ، وأنه غير طامع فى تمام أمر على يده ، وجعل يخلو بهم رجلا رجلا فيقول :

ــ إذا أدخلتكم على الملك فالبسوا أفخر ثيابكم وأجملها ، وإذا دعا لكم

بالطعام لتأكلوا فتباطئوا فى الأكل وصغروا اللُّقم ونزروا ما تأكلون ، فإذا قال لكم : أتكفوننى العرب ؟ فقولوا : نعم . فإذا قال لكم : فإن شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه ؟ فقولوا : لا . إن بعضنا لا يقدر على بعض ، ليهابكم ولا يطمع فى تفرقكم ، ويعلم أن للعرب منعة وبأسا .

فقبلوا منه ، وخلا بالنعمان فقال له :

ـــ البس ثياب السفر وادخل متقلدا سيفك ، وإذا جلست للأكل فعظّم اللقم وأسرع المضغ والبلع وزد فى الأكل وتجوع قبل ذلك ، فإن كسرى يعجبه كثرة الأكل من العرب خاصة ، ويرى أن لا خير فى العربى إذا لم يكن أكولا شرها ولا سيما إذا رأى غير طعامه وما لا عهد له بمثله ، وإذا سألك هل تكفينى العرب ؟ فقل : نعم . فإذا قال لك : فمن لى بإخوتك ؟ فقل له : إن عجزت فإنى عن غيرهم لأعجز .

وجاء بنو مرينا إلى الأسود بن المنذر وكانوا قد أرضعوه فيهم وربوه ، وخلا به عدى بن مرينا فسأله عما أوصاه به عدى فأخبره ، فقال :

ـــ غشك والصليب والمعمودية وما نصحك . ولئن أطعتنى لتخالفن كل ما أمرك به ولتملّكن ، ولئن عصيتنى ليملكن النعمان ، ولا يغرنك ما أراكه من الإكرام والتفضيل على النعمان فإن ذلك دهاء فيه ومكر ، وإن هذه المعُدّية لا تخلو من مكر وحيلة .

ـــ إن عديا لم يألُنى نصحا وهو أعلم بكسرى منك ، وإن خالفته أوحشته وأفسد على ، وهو جاء بنا ووصفنا وإلى قوله يرجع كسرى . وراح الرجل يبذل للأسود النصيحة والأسود معرض عنه ، فلما أيس من قبوله منه قال :

ـــ ستعلم .

(مولد الرسول)

ودعا بهم كسرى فلما دخلوا عليه أعجبه جمالهم وكمالهم ، ورأى رجالا قلما رأى مثلهم ، فدعا لهم بالطعام ففعلوا ما أمرهم به عدى ، فجعل ينظر إلى النعمان من بينهم ويتأمل أكله ، فقال لعدى بالفارسية :

ـــ إن يكن فى أحدهم خير ففى هذا .

فلما غسلوا أيديهم راح يوعد بهم رجلا رجلا فيقول له :

ـــ أتكفيني العرب ؟

ـــ نعم أكفيكها كلها إلا إخوتى .

ودخل النعمان آخر من دخل عليه وهو فى ثياب السفر متقلدا سيفه ، فراح كسرى يرنو إليه فى إعجاب وإن كان أحمر أبرش قصيرا و لم يكن فى مثل جمال إخوته « الأشاهب » ، وإن كانت أمه يهودية من أهل فدك ، فما كان الفرس يضطهدون اليهود كما يفعل الروم ، ثم قال له :

ـــ أتكفينى العرب ؟

ـــ نعم .

ـــ فكيف لى بإخوتك .

ـــ إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز .

فملكه كسرى على الحيرة وخلع عليه وألبسه تاجا قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب .

فلما خرج وقد ملِّك قال عدى بن مرينا للأسود :

ـــ دونك عقبى خلافك لى .

وخشى عدى بن زيد مكر عدى بن مرينا ، فصنع عدى بن زيد طعاما وأرسل إلى ابن مرينا أن ائتنى بمن أحببت فإن لى حاجة .

فأتى ابن مرينا فى ناس فتغدَّوا ، فقال عدى بن زيد لابن مرينا :

ـــ يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يلم عليه من كان مثلك ، وإنى قد عرفت أن صاحبك الأسود بن المنذر كان أحب إليك أن يُملَّك من صاحبى النعمان ، فلا تلمنى على شيء كنت على مثله ، وأنا أحب ألا تحقد على شيئا لو قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطينى من نفسك ما أعطيك من نفسى فإن نصيبى فى هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك .

وقام فحلف ألا يهجوه أبدا ولا يبغيه غائلة ولا يزوى عنه خيرا أبدا ، فلما فرغ عدى بن زيد قام عدى بن مرينا فحلف بمثل يمينه وإن كان قلبه لم يصفح أبدا .

وخرج النعمان حتى نزل الحيرة ودخل قصير الخورنق ، فقال عدى بن مرينا لعدى بن زيد :

ألا بلـــغ عديـــا عـــن عـــدى
فــلا تجزع وإن رثت (ضعــفت) قــواكا
هياكلُنـــــا تبـــرُك غير فقـــــر
لتحمـــــد أو يتم بها غنـــــاكا
فـــإن تظفـــر فلـــم تظفـــر حميـــدا
وإن تعـــطب فـــلا يبعـــد سواكا
نـــدمت ندامـــة الكُسَعـــى[١] لما
رأت عينـــاك مـــا صنـــعت يـــداكا

وعاد عدى بن مرينا والأسود إلى الحيرة فقال ابن مرينا للأسود :

---

(١) الكسعى نسبة إلى كسع حى من قيس عيلان وهو رجل رام رمى بعد ما أظلم الليل عيرا فأصابه وظن أنه أخطأه فكسر قوسه ، ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولا وسهمه فيه .

— أما إذا لم تظفر فلا تعجزن أن تطلب بثأرك من هذا المعدى الذى فعل بك ما فعل ، فقد كنت أخبرتك أن مَعدًا لا ينام كيدها ومكرها وأمرتك أن تعصيه فخالفتنى .

— فما تريد ؟

— أريد ألا تأتيك فائدة من مالك وأرضك إلا عرضتها علىَّ .

كان ابن مرينا كثير المال والضيعة وقد عزم أن يستخدم ماله ومال الأسود وبنى المنذر فى القضاء على عدى بن زيد الذى أطار الملك من يدْ من أرضعوه وربوه ، فلم يكن فى الدهر يوم يأتى إلا على باب النعمان هدية من ابن مرينا ، فصار من أكرم الناس عليه حتى كان لا يقضى فى ملكه شيئا إلا بأمر ابن مرينا .

وكان عدى بن زيد يترك قصر كسرى ويخرج من المدائن إلى الحيرة للصيد مع النعمان . وفى ذات يوم خرج عدى مع النعمان وخدمه وحشمه فمروا بشجرة فقال له عدى :

— أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟

— لا .

— تقول :

رب ركب قد أناخوا عندنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا	وكذاك الدهر حالا بعد حال

ثم جاوزوا الشجرة فمر بمقبرة ، فقال له عدى :

— أيها الملك أتدرى ما تقول هذه المقبرة ؟

— لا .

— تقول :

أيها الـــركب المخبـــو ... ن على الأرض المجدون
فكمـــا أنتم كنـــا ... وكما نحن تكونـــون

— إن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان ، وقد علمت أنك إنما أردت عظتى .
فما السبيل التى تدرك بها النجاة ؟

— تدع عبادة الأوثان وتعبد الله ، وتدين بدين المسيح عيسى بن مريم .

— أو فى هذا النجاة ؟

— نعم .

وذهب النعمان إلى المدائن يحمل الخراج لكسرى ، فلما دخل عليه وجد عنده وفود الروم والهند والصين وقد أخذ كل وفد يذكر فى فخر ملوكهم وبلادهم ، فالتفت كسرى إلى النعمان وقد أخذته عزة الملك :

— يا نعمان لقد تذكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت فى حال من يقدم علىّ من وفود الأمم فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها ، وأن لها دينا يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها ؛ ورأيت الهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبعها ، مع كثرة أنهار بلادهم وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها .

وكذلك الصين فى اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها ؛ والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير من أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة .

ومع أن ما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع

الوحوش النافرة والطير الجائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . وإن قرَى أحدهم ضيفا عدها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها . ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

وأحس النعمان مهانة ، ورأى أن يرد على كسرى وأن يلقمه حجرا وليكن ما يكون ، فقال :

— أصلح الله الملك ، حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها وتعلو درجتها ، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تكذيب له ، فإن أمننى من غضبه نطقت به .

— قل فأنت آمن .

— أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة نقرنها بالعرب إلا فضلتها .

بماذا ؟

— بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

وأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم

ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة .

وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها ، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم وحفوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حموله وشبعه وربه ، فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفلذة ويجتزى بالشربة ، فيعقرها له ويرضى له أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك

رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومىء الإيماءة فهى وَلْث (عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق ولا تُخفر ذمته ، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر (غدر) من جوار ، وإنه ليلجأ إليهم المحرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله .

وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة ، وإنه لا شىء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا وتركهم الأنقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف (الأخذ منهم) بالعسف .

وعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال :

ـــ إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ولما هو أفضل .

ثم كساه كسوته وسرحه إلى موضعه بالحيرة ، فلما قدم النعمان الحيرة

وفى النفس ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث أكثم بن صيفى وحاجب ابن زرارة التميميين ، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثه وعامر بن الطفيل ، وإلى عمرو بن الشريد السلمى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والحارث بن ظالم المرى ، فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم :

ــ قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا كبعض طماطمته (من فى لسانه عجمة) فى تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله .

فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليهم فقالوا :

ــ أيها الملك وفقك الله ! ما أحسن ما رددت وأبلغ ما حججته به ، فمرنا بأمرك وادعنا إلى ماشئت .

ــ إنماأنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شىء أحب إلىّ مما سدد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ، ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل ، وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى لسنىّ حاله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتم بها ، فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم علمى بجميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه ، فلا يكونن ذلك منكم

فيجد فى آدابكم مطعنا فإنه ملك قادر مسلط .

ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حلل الملك كل رجل منهم حلة وعمامة وختمه بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة ، وكتب معهم كتابا : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم ، وأجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكتها وحملت ما يليها بفضل قوتها تبلغها فى شيء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة ، وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغامض عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وليكرمنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم فى أسفل كتابى إلى عشائرهم .

فخرج القوم فى أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم ، إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم . فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه ، وأقام الترجمان ليؤدى إليه كلامهم . ثم أذن لهم فى الكلام فقام أكثم بن صيفى فقال :

ـــ إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد

بلاد لا أمير فيها . شر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجز لا محالة . أفضل الأولاد البررة .

خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسُنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه. الصمت حكم وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدد نفّر ، ومن تراحم تآلف .

فتعجب كسرى من أكثم ، ثم قال :

— ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعك كلامك فى غير موضعه .

قال أكثم :

— الصدق ينبئ عنك لا الوعيد .

قال كسرى :

— لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

قال أكثم :

— رب قول أنفذ من صَول (الوثبة عند الخصومة) .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال :

— ورَى زندك وعلت يدك ، وهيب سلطانك . إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مِرتها (القوة) ، ومنعت درتها ، وهى لك وامقة ما تألفتها ، مسترسلة ما لاينتها ، سامعة ما سامحتها . وهى العلقم مرارة ، وهى الصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلال سلاسة .

نحن وفودها إليك ، وألسنتها لديك . ذمتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة . إن نؤب لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمدَتنا ، وإن تذم لم نخص بالذم دونها .

قال كسرى :

— يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها .

قال حاجب :

— بل زئير الأسد بصولتها .

قال كسرى :

— وذلك .

ثم قام الحارث بن عبار البكرى فقال :

— دامت المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها . من طال رشاؤه (حبله) كثر مَنُحه (استقصاؤه) ، ومن ذهب ماله قل منحه . تناقل الأقاويل يعرف اللب، وهذا مقام سيوجف (يضطرب) بما تنطق به الركب ، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب . ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا جمة ، وجيوشنا فخمة . إن استنجدتنا فغير ريض (غير مقصرين) ، وإن استطرقتنا فغير جُهض . (غير مانعين) ، وإن طلبتنا فغير غمض . لا ننثنى لذعر ، ولا نتنكر لدهر . رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار .

قال كسرى :

— لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك .

قال الحارث :

— أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغررا بنفسه على الموت ، فهى منية استقبلها ، وجنان استدبرها . والعرب تعلم أنى أبعث العرب قدما وأحبسها وهى تصرف بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحى ، وبرقها سيفى ،

ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوفى ضحضاحها ، حتى أنغمس فى غمرات لجحها ، وأكون فلكا لفرسانى إلى بحبوحة كبشها ، فأستمطرها دما ، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم (مسن) .

فالتفت كسرى لمن حضره من العرب وقال :

ـــ أكذلك هو ؟

قالوا :

ـــ فعاله أنطق من لسانه .

قال كسرى :

ـــ ما رأيت كاليوم ، وفدا أحشد ، ولا شهودا أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال :

ـــ أيها الملك نعم بالك ، ودام فى السرور حالك ، إن عاقبة الكلام متدبرة ، وأشكال الأمور معتبرة ، وفى كثير ثقلة ، وفى قليل بُلْغة (ما يتبلغ به) . وفى الملوك سَورة العز . وهذا منطق له ما بعده ، شرف فيه من شرف وخمل فيه من خمل ، لم نأت لضيمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لرِفدك (لعطائك) . إن فى أموالنا منتقدا ، وعلى عزنا معتمدا ، إن أورينا نارا أثقتنا ، وان أَرْوَد (أرفق) دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنّا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رامك كافحون ، حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر .

قال كسرى :

ـــ ما يقوم قصد منطقك بإفراطك ، ولا مدحك بذمك .

قال عمرو :

ـــ كفى بقليل قصدى هاديا ، وبأيسر افراطى مخبرا ، ولم يلم من عزبت نفسه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ .

قال كسرى :

— ما كل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال :

— أحضر الله الملك إسعادا ، وأرشده إرشادا . إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غصة ، وعيُّ المنطق أشد من عى السكوت ، وعثار القول أنكأ من عثار الوعث ، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى أننى له مطيق ، أحب إلى من تكانى ما أتخوف ويتخوف منى .

وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونعم حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة .

قال له كسرى :

— نطقت بعقل ، وسموت بفضل ، وعلوت بنبل .

ثم قام علقمة بن علاثة العامرى فقال :

— نهجت لك سبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد . إن للأقاويل مناهج ، وللآراء مدالج ، وللعويص مخارج . وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه . إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قست كل رجل منهم، وعلمت منهم ما علمنا ، لوجدت له فى آبائه دنياً أندادا وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحمى حماه ، ويروى نداماه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترز منه جاره .

أيها الملك ، من يبل العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإنهم الجبال الرواسى عزا ، والبحور الزواجر طميا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى عددا ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك .

قال كسرى وخشى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه :

ـــ حسبك ، أبلغت وأحسنت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال :

ـــ أطاب الله بك المراشد ، وجنبك المصائب ، ووقاك مكروه النصائب (الشدائد) . ما أحقنا إذا أتيناك بإسماعك ما لا يحنق صدرك ، ولا يزرع حقدا فى قلبك . لم نقدم أيها الملك لمساماة ، و لم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا فى المنطق غير محجمين ، وفى الناس غير مقصرين . إن جورينا فغير مسبوقين ، وإن سومينا فغير مغلوبين .

وتذكر كسرى أن قيس ترك الوفاء بضمانه السواد ، فقال :

ـــ غير أنكم إذا عاهدتم فغير وافين .

قال قيس :

ـــ أيها الملك ما كنت فى ذاك إلا كواف غدر به ، أو كخافر أخفر بذمته .

ـــ ما يكون لضعيف ضمان ، ولا لذليل خفارة .

ـــ أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتى ، أحق بإلزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتهك من حرمتك .

ـــ ذلك من ائتمن الخانة واستنجد الأثمة ، ناله من الخطأ ما نالنى . وليس كل الناس سواء . كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيبرم ، ويعهد فيوفى ، ويعد فينجز .

ـــ وما أحقه بذلك وما رأيته إلا لى .

— القول بذل فأفضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال :

— كثر فنون المنطق ، وليس القول أعمى من حِندس الظلماء وإنما الفخر فى الفعال . والعجز فى النجدة ، والسؤدد مطاوعة القدرة ، وما أعلمك بقدرنا ، وأبصرك بفضلنا ، وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثابت الأحلام ، أن تحدث لنا أمورا لها أعلام .

قال كسرى :

— وما تلك الأعلام ؟

— مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يذكر .

— وما الأمر الذى يذكر ؟

— ما لى علم بأكثر مما خبرنى به مخبر .

كان عامر بن الطفيل قد سمع من أحبار يهود وكهان النصارى والمنجمين أن نبيا يوشك أن يولد فى العرب ، يجمع ما تنافر من قبائل العرب ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويرفعهم فوق العالمين وقد لمح إلى ما سمع فقال له كسرى :

— متى تكاهنت يابن الطفيل ؟

— لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن .

— فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟

— ما هيبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى ، وما أذهب عينى فى عبث ولكن مطاوعة العبث .

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدى فقال :

— إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الصواب ، ومِلاك النجدة

الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ (اجتذب) طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك (جانبك) ، يسلس لك قيادنا ، يوقس صَفاتنا قراع منافير من أراد لنا قضما ، ولكن معنا حمانا من كل رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المرى فقال :

ــ إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن خطل الرأى خفة الملك المسلط ، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وإيفادنا لك عن تصاف ، ما أنت بقبول ذلك منا بخليق ، ولا اعتماد عليه بحقيق . ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام ولث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل ، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل .

قال كسرى :

ــ من أنت ؟

ــ الحارث بن ظالم .

ــ إن فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر وأقرب من الوزر .

ــ إن فى الحق مغضبة ، والسر والتغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة ، فلتشبه أفعالك مجلسك .

قال كسرى :

ــ هذا فتى القوم .

ثم قال :

ــ قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم . ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يثقف أودكم (اعوجاجكم) ، ولم يحكم أمركم ، وإنه ليس ملك

يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإنى أكره أن أجبه وفودى أو أضيق صدورهم ، والذى أحب من إصلاح مدبركم ، وتآلف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت فيما كان من منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته ، وادعوا سفهاءكم وأقيموا أودكم ، وأحسنوا أدبكم ، فإن فى ذلك صلاح العامة .

كان كسرى يتكلم فى ثقة وغرور ، ولو اخترقت أبصاره حجب الغيب لرأى مولد النبى الذى لمح إليه ابن الطفيل فى دار من دور مكة ، ولرأى هؤلاء العرب الذين كان يعيرهم بأن ليس لهم ملك يجمعهم ولا أدب يثقف اعوجاجهم ، وقد جمعهم ذلك النبى ودفعهم الدين الذى جاءهم به إلى غزو فارس وانتزاع سرير الملك من أحفاده ، حتى تتحقق نبوءة ساسان ووصية زرادشت ، ولو تفرس فى الغيب طويلا لرأى عمرو بن معد يكرب ذلك الشاب الذى قال فأوجز يجد فى أثر فلول جيوش الفرس حتى المدائن : « وأورثناها قوما آخرين » .

١٧

راح جيش أبرهة يتقهقر وقد حملت فلول الجيش ملكهم الذى هده المرض، وكانت أنامله تسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، انصدع صدره عن قلبه وزهقت روحه ليملك على اليمن من بعده ابنه يكسوم.

أبى الله أن ينصر أبرهة حتى لا يجرى السبى على رسوله حملا ووليدا ، فلو ظفر أبرهة بمكة لهدم البيت وقتل الرجال وسبى النساء ، ولساق آمنة بنت وهب إلى صنعاء فيمن سيسوق من النساء ، أو بعث بها إلى سوق من أسواق الرقيق لتباع بضاعة هى وذلك الذى حملته وبشرت به يوم أن حملته بأنها قد حملت بسيد هذه الأمة ، ولكن لمحمد بن عبد الله ربا منعه من الرق ليؤدى ما أعد له من رسالة .

وسار يكسوم فى اليمن سيرا سيئا . كان فظا غليظ القلب يهوى سفك الدماء ويرتاح للظلم الذى يوقعه برعيته ، فقد ضاق اليمنيون بحكمه حتى إن موته لم يخفف عنهم ، فقد كرهوا أن يظلوا تحت حكم الأحباش تسلب منهم خيراتهم ويرسل بها إلى الحبشة .

وتولى مسروق بن أبرهة من زوجته العربية الحكم بعد موت أخيه ، وكان يحسب أن اليمنيين سيفرحون بتوليه الملك فأمه منهم وهو يتكلم العربية بلسانهم ، ونسى مسروق أن اليمنيين لم ينسوا أن أباه قد اغتصب أمه من زوجها العربى ، فهو ابن الغصب والمقت وثمرة القهر والخسة والدناءة .

وضاق سيف بن ذى يزن بالذل الذى يعيش فيه الحميريون فعزم على أن

يخلص بلاده من حكم الأحباش ، ولكن أين القوة التى يقودها لحرب مسروق وجنوده وإرغامهم على الجلاء عن البلاد ، وفكر ابن ذى يزن ودبر فلم يجد إلا أن يلجأ إلى قيصر الروم يلتمس منه أن يمده بالجنود لطرد الأحباش من أرض حمير .

وراح سيف بن ذى يزن يطوى الأرض قاصدا القسطنطينية وهو يفكر فى إمبراطور الروم . إنه ليس أول عربى يفزع إلى البلاط الإمبراطورى ، فملوك الغساسنة عرفوا ذلك الطريق ، وإن امرأ القيس قد ذهب إلى يوسطنيانوس ونادمه ، وتوطدت الصداقة بينه وبين قيصر حتى إنه كان يدخل معه الحمام ، ولولا الوشاية التى مشى بها الوشاة بين امرئ القيس ويوسطنيانوس لكان امرؤ القيس قد عاد إلى عرش آبائه .

ولم يخطر على قلب سيف بن ذى يزن أن حملة أبرهة كانت بتدبير القسطنطينية ، وأنها هى التى وضعت خططها وباركتها ليتصل نصارى الجنوب بنصارى الشمال لتحقيق أغراض القسطنطينية السياسية .

وبلغ ابن ذى يزن البلاط البيزنطى وطلب المثول بين يدى قيصر ليبت فى أمور الدولة وحده .

وراح سيف بن ذى يزن يشكو إلى قيصر ملك الروم ما هم فيه من ذل واضطهاد ، وسأله أن يبعث معه الجيوش ليطرد الأحباش ، ويلى اليمن الإمبراطور العظيم ويبعث إليهم من يشاء من الروم فيكون له ملك اليمن .

ولم يلق قيصر إليه سمعه فقد كان فى ضيق لإخفاق حملة أبرهة ، وكان فى دهشة من أن القدر كان فى خدمة وثنيين يعبدون الحجارة وقد نصرهم على جيش يؤمن بالله ومسيحه ويحمل الصليب !

وكانت صوفيا تصغى إلى الترجمان وهى ضيقة الصدر بالعرب ، فانكسار

أبرهة قد قلب كل خططهم رأسا على عقب وغير تاريخ المنطقة ، فقد كانت صوفيا واثقة من النصر وكانت على يقين من أن علم النصرانية سيخفق على جبال مكة وعلى واحات العرب فى طول الجزيرة العربية وعرضها .

ولم يستطع قيصر ولا صوفيا أن يكتما ما يعتمل فى صدريهما من ضيق ، فقالا لسيف بن ذى يزن إن بلاده بعيدة ولا رغبة لهما فى المنطقة !

وخرج سيف بن ذى يزن من البلاط البيزنطى وهو آسف حزين، وراح يفكر ويدبر فهداه تفكيره إلى أن يهرع إلى كسرى أنو شروان فى المدائن يسأله أن يبعث معه الجيوش ليطرد الأحباش أولياء الروم من أرض حمير، وكان يأمل أن يستجيب كسرى لندائه فالأحباش حلفاء الروم أعداؤه وأعداء دينه، وإن حاول كسرى أن يبدو على الدوام متسامحا .

وخرج سيف بن ذى يزن حتى أتى النعمان بن المنذر فى قصر الخورنق . فشكا إليه أمر الحبشة فقال له النعمان :

— إن لى على كسرى وفادة فى كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك .

وحان أوان انطلاق النعمان إلى المدائن فذهب سيف بن ذى يزن معه فأدخله على كسرى . وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجه مثل المكيال العظيم يُضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجا وإنما يستر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه فى تاجه فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فأحس سيف هيبة له .

دخل سيف من باب عام مطأطئ الرأس ، فقال كسرى . :

— إن هذا الأحمق يدخل علىّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسه .

فقيل ذلك لسيف فقال :

ـــ إنما فعلت ذلك لهمّي لأنه يضيق عنه كل شيء .

وسمح كسرى لابن ذي يزن بالكلام ، فقال :

ـــ أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأحباش ، فجئتك لتنصرني و يكون ملك بلادي لك .

سمع كسرى أنو شروان ولا ريب بتحرك جيوش أبرهة لتستولى على جزيرة العرب وليتصل نصارى الحبشة بنصارى غسان والروم ، وفطن إلى أن تلك الحركة لم يكن مقصودا بها غيره ، وبلغته أنباء إخفاق حملة الفيل فلم يعد يخشى وقوع الحجاز فى قبضة الأحباش ، ولم تعد هناك ضرورة للمغامرة فقال :

ـــ بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك .

ثم أجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة ، فلما قبض ذلك منه سيف خرج وجعل ينثر ذلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال :

ـــ إن لهذا لشأنا .

ثم بعث إليه فقال :

ـــ عمدت إلى حِباء الملك تنثره للناس .

فقال سيف :

ـــ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهبا وفضة .

كان كسرى على علم باليمن كما كان الروم على علم بها ، فجواسيس الفرس والروم يذرعونها طولا وعرضا ، وهى ميدان من الميادين الهامة التي يتصارع فيها النساطرة واليعاقبة أصحاب مذهب وحدة المسيح وأصحاب مذهب ناسوت المسيح ولاهوته ، نصارى الشرق

ونصارى الغرب ، النصارى الذين تؤيدهم فارس نكاية فى عدوها والنصارى الذين يعتنقون مذهب الإمبراطورية الرومانية ، فلم يتحرك طمع كسرى لما سمع أن جبال اليمن من ذهب وفضة ، بل رأى أن يناوىء الروم فى اليمن وأن يقلق مضاجعهم وأن ينزل بهم الهزيمة بطرد حلفائهم من الأرض العربية كما أنزل بهم الهزيمة فى كل مكان .

جمع كسرى مرازبته فقال لهم :

— ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟

فقال قائل :

— أيها الملك إن فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن ظفروا ملكا ازددته .

فبعث معه كسرى من كان فى سجونه وكانوا ثمانمائه رجل ، واستعمل عليهم رجلا منهم يقال له وهرِز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسبا وبيتا ، فخرجوا فى ثمان سفائن قاصدين عدن ، فغرقت سفينتان ووصل إلى عدن ست سفائن، فراح سيف يجمع من استطاع من قومه، ثم عاد إلى وهرز بليوت أبوا أن يعيشوا فى اليمن فى ذل وعزموا على أن يحرروا بلادهم من الأحباش الذين جاءوا باسم نصرة إخوانهم فى الدين ، ثم أناخوا على البلاد يمتصون دماءها .

وقال سيف لوهرز :

— رجلى مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظفر جميعا .

— أنصفت .

وسمع مسروق بن أبرهة بنزول جنود الفرس بعدن ، فجهز جيشا ثم انطلق ليدافع عن عرشه الذى تألب عليه سيف بن ذى يزن واستعان بجيوش فارسية جاءت لنصرته ، لا تأييدا لقضيته بل بسطا لنفوذ فارس على المنطقة .

ودعا وهرز ابنه نوزاد وأمره أن يخرج لقتال مسروق والذين معه ، و لم يخرج وهرز ولا سيف مع الخارجين فقد أراد الشيخ أن يختبر قتالهم قبل أن يضع خططه للقضاء على مسروق وجنوده .

وانطلق نوزاد ومن انتدبهم أبوه معه لقتال الأحباش على أرض اليمن ، فالتقى مسروق وهو على رأس فيله بطلائع الجيش الغريب الذى جاء يتلمس طريقه ، وبدأت المعركة بالتراشق بالسهام ، ثم مشى الرجال إلى الرجال يهزون الرماح ثم يطلقونها إلى الأهداف البشرية التى كانت تتهاوى كأوراق الشجر فى فصل الخريف ، وغطت الجثث الأرض ، ثم راح فيل مسروق يوقع الاضطراب فى صفوف العرب والفرس ، ثم صاح صائح :

ــ إن نوزاد بن وهرز قد قتل .

وبلغ وهرز مقتل ابنه فزاده ذلك حنقا على الأحباش ، فلم تعد المعركة معركة الأحباش مع اليمن توطيدا لسلطان كسرى ومدا لنفوذه بل أمست انتقاما لابنه الذى قتل بسيوف الأحباش على أرض العرب .

وخرج وهرز وسيف بن ذى يزن فى جموع الفرس والعرب وانطلقوا حتى تواقف الناس على مصافهم ، وعزم وهرز على أن يقتل ملك اليمن فلن يشفى غليله قتل جيش مسروق كله إذا ما فر مسروق من يده .

وقال وهرز لمن حوله :

ــ أرونى ملكهم .

ــ أترى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

ــ نعم .

ــ ذاك ملكهم .

ــ اتركوه .

فوقفوا طويلا يتراشقون بالسهام ، ثم التفت وهرز إلى من حوله وقال يسأل عن مسروق :

— علام هو ؟

— قد تحول على الفرس .

— اتركوه .

واستمر تراشق السهام طويلا والسهام تطيش أو تستقر فى الأفئدة والصدور والنحور ، والجثث تتهاوى وأنات الجرحى تتردد فى جنبات المعركة وقد صم عنها المقاتلون آذانهم ، فقد كان كل منهم مشغولا بنفسه عن كل ما حوله ، ذاهلا عن الوجود بالمشاعر الثائرة التى تستولى على وجدانه .

والتفت وهرز إلى من حوله وقال :

— علام هو ؟

— قد تحول على البغلة .

— بنت الحمار ! ذل وذل ملكه ، إنى سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا . فاثبتوا حتى آذنكم فإنى قد أخطأت الرجل . وإن رأيتم القوم قد استداروا واجتمعوا حوله فقد أصبتُ الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم وتر قوسه ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه ، فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ونُكِس عن دابته ، واستدارت الحبشة والتفت حوله ، وارتفعت أصوات التهليل من الجيش العربى الفارسى فقد أصاب وهرز مسروق إصابة قاتلة .

ودب الذعر فى صفوف الحبشة فقد قتل قائدهم وملكهم فدب اليأس فى قلوبهم ، وقبل أن يفيقوا من هول الصدمة حمل العرب والفرس عليهم حملة رجل واحد ، وأعملوا السيوف فى رقابهم ، فسقط من سقط قتيلا وفر من فر

لا يلوى على شيء ، وكتبت الهزيمة على الأحباش وراحت جيوش الفرس وسيف بن ذى يزن تتقدم إلى صنعاء مزهوة بنصرها .

وشرد ذهن سيف وهو فى طريقه إلى العاصمة ، لم يفكر فى قصر مسروق الذى سيصبح مقر ملكه بل عاد به القهقرى إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه أبوه ذو يزن إلى كسرى ووقف ببابه يسأله النصرة. وقد أبى كسرى أن يستجيب له حتى مات ذو يزن ببابه. ليت روح أبيه ترفرف عليه الساعة لترى أن أمله قد تحقق.

ورن فى أذنيه الحديث الذى دار بينه وبين كسرى :

ـــ أيها الملك إن لى عندك ميراثا .

أنا ابن الشيخ اليمانى ذى يزن الذى وعدته أن تنصره فمات ببابك ، وحضرتُك فتلك العدة حق لى وميراث يجب عليك الخروج لى منه .

ورأى كسرى يأمر له بمال ، ثم أفاق من شروده ووقعت عيناه على باب صنعاء فلم ترف على شفتيه بسمة بل سالت الدموع على خديه .

وأقبل وهرز ليدخل صنعاء وقد رفعت راية الجيش تخفق بالنصر ، فلم تمر الراية من باب صنعاء وهم حامل الراية بأن ينكسها ، ورأى وهرز ذلك فغضب وتغير لونه وقال :

ـــ لا تدخل رايتى منكسة أبدا . اهدموا الباب .

وعملت المعاول فى باب صنعآء ليدخل وهرز وجنوده وجنود ابن ذى يزن والراية عالية خافقة مرفوعة .

وانطلق وهرز وسيف وأشراف القوم إلى القصر ، وجاءت الوفود لتهنئ وهرز وسيف بن ذى يزن على النصر المؤزر على الحبشة ، ثم انصرف وهرز إلى كسر وملَّك سيفا على اليمن . وتهلل سيف بالفرح و لم يفكر فى أنه استبدل الحبشة بالفرس وأنه لم يحرر بلاده من سيطرة الدول الأجنبية ، فقد أصبح غاية

أى ملك عربى فى الشرق الأوسط أن يرضى عنه كسرى أو قيصر ، وأن يؤيد ملكه قوة من القوتين العظيمتين المسيطرتين على العالم المتنازعتين ليخلو لإحداهما وجه الأرض ، وقد انضم بعض ملوك العرب للشرق وانضم بعضها الآخر للغرب ، ووضع كل من الفريقين موارد بلاده فى خدمة سيده الذى يؤيده ، ولم يدر بخلد حاكم واحد منهم أن فى مقدور رجل من العرب أن يجمع كلمة العرب المتنافرة وأن يؤلف بين قلوبهم ، وأن يحملهم للقضاء على الإمبراطوريتين العاتيتين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم ، إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب ، فقد كان ذلك يستعصى حتى على الأحلام .

وفى دار من دور بنى هاشم فى مكة ، بل فى دار عبد الله بن عبد المطلب بالذات ، فى دار الذبيح الذى فداه ربه بمائة من الإبل ليتزوج فتاة بنى زهرة لتحمل منه بسيد البشر . كانت آمنة بنت وهب تضع الغلام الذى دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما وهما يقيمان القواعد من البيت أن يبعث فى ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، والذى بشر به موسى وعيسى والنبيون ، الغلام الذى سيرفع العرب ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليصبحوا معلمين للبشرية بعد أن كانوا فى الجهالة يعمهون ، الغلام الذى سيرسله الله رحمة للعالمين .

١٨

كانت يثرب يموج بعضها فى بعض فما كان يوم يمر دون أن تقوم مشادة بين الأوس والخزرج أو تنشب مناظرة حامية بين رجل من العرب ورجل من اليهود ، ويا طالما نشبت الحروب بين الحيين من العرب لسبب من الأسباب التافهة ، وما أكثر ما ثارت المنازعات بين العرب واليهود !

وارتفعت الأصوات حتى طافت بالدور ، فخرج حسان بن ثابت وكان ابن سبع سنين وفى أثره أخته فارعة بنت ثابت وكانت طفلة صغيرة ليريا ذلك النضال الناشب بين الناس .

كان العرب واليهود يتشابكون بالأيدى ويتبادلون السباب . فقد بلغ العرب أن اليهود أهانوا امرأة عربية فى السوق ، فاتفقت كلمة الأوس والخزرج واجتمعت القلوب المتنافرة ونسيت ما كان بينهما من عداوة ، وهبوا لقتال اليهود غيرة على كرامة امرأة عربية أهينت فى الطريق .

وكادت المشادة أن تنقلب إلى حرب مدمرة لولا أن مشى بعض أشراف القوم فى إصلاح ما بين المتشابكين بالإيدى ، والذين كان السباب ينطلق من أفواههم بغير حساب ولا تفكير .

وأحس اليهود أنهم باتوا فى المدينة أذلة فقالوا للعرب :

ـــ إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

كان اليهود ينتظرون مولد النبى الذى بشرهم به موسى ، فكانوا يرصدون النجوم ويعكفون على أسفارهم يقرءون ما بين السطور ، وكانوا فى لهفة على

مولد ذلك النبي ليصدقوه فقد كانوا أذلة فى الأرض وكانوا يطمعون فى أن يعيد ذلك النبي مجدهم ومجد الدين .

وكان الرهبان فى صوامعهم يعلمون أن الله سيبعث « الفارقليط » الذى بشر به المسيح ، وكانوا يفصحون عن ذلك العلم كلما التقوا بسادات العرب وأشرافهم ، فقد نزل أربعة من تميم يريدون الشام عند غدير عند دير ، فأشرف الديرانى وألقى سمعه إلى حديثهم ثم قال :

— إن هذه لغة قوم ما هى أهل هذا البلد .

— نحن قوم من مضر .

— من أى المضاير ؟

— خندف .

— إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا فسارعوا إليه وخذوا حظكم ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين .

— ما اسمه ؟

— محمد .

ثم دخل ديره فما أحد منهم إلا زرع قوله فى قلبه ، فأضمر كل واحد منهم إن رزقه الله غلاما سماه محمدا .

نامت الفتنة التى كادت تنشب بين الأوس والخزرج واليهود وعاد الناس إلى دورهم ، لم يحفلوا بذلك التهديد الذى لا يفتأ اليهود يرددونه كلما شجر خلاف بينهم وبين العرب ، وعاد ثابت بن المنذر إلى داره فألفى ولديه حسان وفارعة قد خرجا ينظران وقد وقفا أمام باب الدار ، فحمل فارعة وأخذ حسان من يده ثم دلف إلى البيت .

كان ثابت بن المنذر الحكم الذى لجأت إليه الأوس والخزرج يوم أن قامت

حرب سُمَيْر ، وكان ثابت لا ينفك يروى أحداث تلك الحروب ويروى الأشعار التى قيلت فيها فقد كان يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يجد لذة فى إعادة تلك القصة على أهل بيته ، فقبول الأوس والخزرج أن يكون حكما بينهما شرف عظيم ينبغى أن تتيه به الأسرة وتفخر .

وجلس حسان بن ثابت الفتى الذى لم يتجاوز السابعة يصغى إلى أبيه وهو يقول :

ـــ قتل رجل فى السوق كان جارا لمالك بن العجلان ، فقيل لمالك قد قتله سُمَيْر ، فأرسل إلى بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوسى ، إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله ، فلما جاءهم رسول مالك تراموا به فقالت بنو زيد : إنما قتلته بنو جحجبى ، وقالت بنو جحجبى . إنما قتلته بنو زيد . ثم أرسلوا إلى مالك :

ـــ إنه كان فى السوق التى قتل فيها صاحبكم أناس كثير ولا يُدرى أيهم قتَلَه . وأمر مالك أهل تلك السوق أن يتفرقوا فلم يبق فيها غير سُمَيْر والقتيل ، فأرسل مالك إلى بنى عمرو بن عوف بالذى بلغه من ذلك وقال : إنما قتله سُمير فأرسلوا به إلىَّ أقتله . فأرسلوا إليه ، إنه ليس لك أن تقتل سُمَيْر بغير بينة . وكثرت الرسل بينهم فى ذلك يسألهم مالك أن يعطوه سميرا ويأبون أن يعطوه إياه . ثم إن بنى عمرو بن عوف كرهوا أن يُنشبوا بينهم وبين مالك حربا ، فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ، فأرسلوا إليه أن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سميرا ، فأبت بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف وهى نصف الدية، ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بنى الحارث بن الخزرج ففعل ،

فانطلقوا حتى جاءوه فى بنى الحارث بن الخزرج ، فقضى مالك بن العجلان أنه ليس له فى حليفه إلا دية الحليف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج ، فأبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره غضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقال مالك بن العجلان يذكر خذلان بنى الحارث بن الخزرج له وحدب بنى عمرو بن عوف على سُمَيْر ويحرض بنى النجار على نصرته :

إن سُمَيْـــــــرا أرى عشيرتـــــــه
قـــد حدبـــوا دونـــه وقـــد ألفـــوا

إن يكـــن الظـــن صادقـــا ببنـــى النجـــ
ـــار لا يَطعمـــوا الـــذى عُلِفـــوا[1]

لا يسلمونـــا لمعسكـــر أبـــــدا
مـــا دام منـــا ببـــــطنها شرف

لكـــن موالـــىَّ قـــد بـــدا لهم
رأى سوَى مـــا لـــدىّ أو ضعفـــوا

وأرهف الفتى حسان أذنيه فهو على الرغم من حداثة سنه يحب الشعر ويسر به ، وراح أبوه ثابت بن المنذر يقول :

بين بنـــى جحجبـــى وبين بنـــى
زيـــد فأنّـــى لجارى التلـــف

يمشون فى البـــيض والـــدروع كما
تمشى جمال مصاعب قطـــــف

(١) أقروا بالضيم .

كما تمشى الأسود فى وهـــج الـــــ
ـمــوت إليــه وكلهــم كهِــفُ

وقال درهم بن يزيد بن ضبيعة أخو سمير :

يـــا قـــوم لا تقتلـــوا سُميراً فـــإ
ن القتـــل فيـــه البـــوار والأسف

إن تقتلـــوه تـــرِنَّ نسوتكـــم[1]
على كـــريم ويفـــزع السَّلـــف

إنى لعَمْـــرُ الـــذى يحج لـــه الـــنسا
ئك ومـــن دون بيتـــه سرَف

يمين بـــــر بـــــالله مجتهد
يحلـــف إن كان ينفـــع الحَلِـــفِ

لا ترفـــع العبـــد فـــوق سُنته
مـــا دام منـــا ببـــطنها شرف

إنك لاق غـــدا غُـــواة بنـــى
عمـــى فانظـــر مـــا أنت مزدهـــف

فأبـــد سيمـــاك يعرفـــوك كما
يبـــدون سماهـــم فتعتـــرِف

وراح ثابت بن المنذر يروى الأشعار التى قالتها الأوس والخزرج فى النزاع الذى نشب بينهما بسبب قتل سمير حليف مالك ، وحسان يصغى وقدأعجب بالشعر وتمنى لو يصبح شاعرا كهؤلاء الفحول الذى يسعد بشعرهم .

---

(١) يرفعن أصواتهن بالبكاء .

وقال ثابت لابنه :

ــ ثم أرسل مالك بن العجلان إلى بنى عمرو بن عوف يؤذنهم بالحرب ويعدُهم يوما يلتقون فيه ، وأمر قومه فتهيئوا للحرب ، وتحاشد الحيان وجمع بعضهم لبعض ، وكانت يهود قد حالفت قبائل الأوس والخزرج إلا بنى قريظة وبنى النضير فإنهم لم يحالفوا أحدا منهم حتى كان هذا الجمع فأرسلت إليهم الأوس والخزرج كل يدعوهم لنفسه ، فأجابوا الأوس وحالفوهم والتى حالفت قريظة والنضير من الأوس أوس الله وهى خطمة وواقف وأمية ووائل ، فهذه قبائل أوس الله .

ثم زحف مالك بمن معه من الخزرج ، وزحفت الأوس بمن معها من حلفائها من قريظة والنضير ، فالتقوا بفضاء كان بين بئر سالم وقُباء وكان أول يوم التقوا فيه فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انصرفوا وهم منتصفون جميعا ، ثم التقوا مرة أخرى عند أطم بنى قينقاع فاقتتلوا حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر يومئذ للأوس على الخزرج ، فقال أبو قيس بن الأسلت فى ذلك :

لقد رأيت بنى عمرو فما وهنوا
عند اللقاء وما هموا بتكذيب
ألا فدى لهم أمى وما ولدت
غداة يمشون إرقال المصاعيب
بكل سَلهبة[1] كالأيم ماضية
وكل أبيض ماضى الحد محسوبِ

فلبث الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة فى أمر سُمير يتعاودون

---

(١) السلهبة من الخيل : الطويلة على وجه الأرض .

القتال فى تلك السنين ، فلما رأت الأوس طول الشر وأن مالكا لا ينزع قال لهم سويد بن صامت الأوسى وكان يقال له الكامل ، فقد كان شاعرا شجاعا كاتبا سابحا راميا : « يا قوم ارضوا هذا الرجل من حليفه ، ولا تقيموا على حرب إخوتكم فيقتل بعضكم بعضا ويطمع فيكم غيركم ، وإن حملتم على أنفسكم بعض الحَمل .

فأرسلت الأوس إلى مالك بن العجلان يدعونه إلى أن يحكم بينه وبينهم ثابت بن المنذر بن حَزام .

وصمت ثابت برهة وتهللت أسارير حسان بالفرح ، ثم قال ثابت :

ـــ فخرجوا حتى أتونى فقالوا : إنا قد حكمناك بيننا ، فقلت : لا حاجة لى فى ذلك .

فقال الفتى حسان :

ـــ ولم ؟

فابتسم ثابت وقال :

ـــ قلت لهم : أخاف أن تردوا حكمى كما رددتم حكم عمرو بن امرئ القيس . قالوا : فإنا لا نرد حكمك فاحكم بيننا . قلت لا أحكم بينكم حتى تعطونى موثقا وعهدا لترضون بحكمى وما قضيت به ولتسلمن له . فأعطونى على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

ـــ وبماذا حكمت يا أبتاه ؟

ـــ حكمت بأن يُؤدى حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعد القتلى الذين أصاب بعضهم من بعض فى حربهم ثم يكون بعض ببعض ثم يعطوا الدية

لمن كان له فضل فى القتلى من الفريقين . فرضى بذلك مالك وسلّمت الأوس وتفرقوا على أن على بنى النجار نصف دية جار مالك معونة لإخوتهم ، وعلى بنى عمرو بن عوف نصفها ، فرأت بنو عمرو بن عوف أنهم لم يُخرجوا إلا الذى كان عليهم ، ورأى مالك أنه قد أدرك ما كان يطلب ووِدِى جاره دية الصريح .

وانقضى النهار وحسان بن ثابت يردد الأشعار التى سمعها من أبيه ، وجاء الليل وتلألأت نجوم السماء وإذا بصوت جهورى ينادى فيتردد نداؤه فى جنبات يثرب :

ــ يا معشر يهود .. يا معشر يهود .

وفتحت الدور وخرج اليهود والعرب إلى حيث الصوت ، وخرج ثابت ابن المنذر وفى يده ابنه حسان وراحوا يهرولون مع المهرولين ، فإذا بيهودى يصرخ بأعلى صوته على أطمة :

ــ يا معشر يهود !

واجتمعوا إليه وقالوا له :

ــ ويك ! مالك ؟

ــ طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

ونظر حسان بن ثابت ولم يفقه شيئا ، وما دار بخلده فى تلك اللحظة أنه سيصبح شاعر ذلك الذى طلع الليلة نجمه . وعاد إلى الدار وصوت اليهودى يرن فى وجدانه :

ــ طلع الليلة نجم أحمد .

١٩

دار عبد الله بن عبد المطلب عند الصفا ، الدنيا ليل والقمر يوشك أن يكون بدرا ، واليوم الاثنين من ربيع الأول وقد مضى على يوم الفيل خمسون يوما ، فقد صار أهل مكة يؤرخون بعام الفيل بعد أن كانوا يؤرخون بموت كعب بن لؤى حكيم قريش وسيدها .

لم يكن فى الدار غير آمنة بنت وهب وجارية عبد الله الحبشية ، فقد شغلت هالة بنت وهيب بولدها حمزة بن عبد المطلب ، وإن ثويبة جارية أبى لهب كانت تمضى بعض الليالى فى دار عبد الله لتؤنس آمنة ولكنها فى هذه الليلة المباركة كانت تنام وفى حضنها حمزة ترضعه وتسهر عليه وتعنى به .

كانت الليلة هادئة خاشعة ، وكان نور القمر ينسكب فى غرفة آمنة رائعا لكأنما كان يدا حانية تمس الكون مسا رقيقا فتحرك مشاعر الرقة والحنان ، وملأت روح آمنة روائح أطيب من المسك لم تدر أكانت منبعثة من بخور حرقته جاريتها أم أنها آتية من فوق السموات ، وسرت فى الغرفة نسمات من الرحمة كان لها رفيف كأنه تسبيح الملائكة ، وبدا أن السماء توشك أن تتجلى على الأرض .

ورأت الجارية أن آمنة هادئة ساكنة وإن كانت تهم أن تضع ما فى بطنها فاستشعرت رهبة . إنها تخاف أن تتلقى وحدها ذلك الذى عما قريب يستقبل الدنيا بصراخه ، فانسلت من الدار وسرعان ما عادت ومعها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ليستقبلا معا ذلك اليتيم الذى ستضعه آمنة .

ودنت الشفاء من الشباك ونظرت إلى السماء فخيل إليها أن القمر فى تلك الليلة كان أكثر إشراقا ورقة ولكأنما كان يتدلى ليكون معها فى الغرفة ، وأن النجوم كانت أكثر تألقا ولمعانا ، وألقت بصرها على دور بنى هاشم فألفتها خاشعة لا يدرى من فيها أن ابن عبد الله الحبيب قد حان أوان إقباله على الدنيا . وحانت منها التفاتة إلى الكعبة فخيل إليها أن القمر قد ألبسها حلة من مخمل أسود وأسلاك من فضة .

وطاف بآمنة نعاس فسمعت هاتفا يهتف بها أن تسميه محمدا ، وأفاقت من نعاسها فأحست كأنما ذلك الاسم قد حفر فى فؤادها ، وعجبت من نفسها فما كان اسم محمد من أسماء آباء عبد الله ، إنه اسم لم يعرف من قبل فى بنى زهرة ولا فى بنى هاشم بن عبد مناف بل ولا فى مكة كلها .

وفصل الوليد من آمنة واستقبلته الشفاء على يديها ، وراحت جارية عبد الله الحبشية تعاونها على غسله وإلباسه ثيابه وقد أشرق قلباهما بالنور والرحمة وراحا يرنوان إلى الوليد فى حب شديد ، فقد كان هادئا ساكنا لم يملأ الدنيا عويلا ، وقد تألق فى وجهه الصغير نور تهفو إليه الأفئدة وتتفتح له النفس .

وحمل الوليد ووضع إلى جوار آمنة فنظرت إليه بقلب خافق يتدفق منه الحنان فخيل إليها أن الوجود كله قد أشرق بالنور ، وفاضت مشاعر الحب فضمته إليها فى رقة ومالت عليه وقبلته قبلة فأحست كأنما قد قبلت الدنيا وأنها قد احتوتها بين ذراعيها ، وترقرقت فى مآقيها الدموع وطاف بذهنها طائف حرك الأسى فى وجدانها : إن ابنها الحبيب قد ولد يتيما . ليت عبد الله كان هنا الساعة ليسعد بابنه الحبيب ، وقبل أن تسترسل فى حزنها حانت منها التفاتة إلى محمد فإذا بإشراقة وجهه تبدد كل ما هم بأن يتلبد فى جوفها من حزن ، وإذا بها تتذكر ذلك الهاتف الذى هتف بها قائلا يوم أن حملت به : حملت بسيد

هذه الأمة ، وإذا بالنور يعود ليغمر قلب آمنة ووجه الأرض .

وتنفس الصبح و لم تستطع جاربة عبد الله صبرا فانسلت من الدار لتطوف على دور بنى هاشم تحمل نبأ ولادة آمنة لوليد كأنه القمر ، لم تر مثله فى مواليد بنى عبد مناف وإن اشتهروا بالحسن والجمال .

واتجهت إلى دار عبد المطلب وطرقت الباب ، وبعد لحظة انفرج عن ثوبية جارية أبى لهب كانت هناك لترضع حمزة ، وما إن وقعت عينا جارية عبد الله الحبشية عليها حتى قالت :

ـــ ولد لعبد الله ولد كأنه النور .

وذهبت الجارية إلى حيث كان عبد المطلب ، وراحت ثوبية تهرول إلى دار أبى لهب ، فقد أرادت أن تكون أول من يحمل البشرى السعيدة إلى سيدها فهى تعلم كم كان أبو لهب يحب عبد الله فتى قريش وذبيحها .

ودخلت جارية عبد الله على عبد المطلب وقالت فى نبرات تنبض بالفرح :

ـــ قد ولد لك غلام فانظر إليه .

وخرج عبد المطلب يسعى إلى دار آمنة ، ودخلت ثوبية على أبى لهب وقالت :

ـــ ولد لعبد الله غلام لم ير فى قريش مثله .

وفرح أبو لهب فإن كان أخوه قد ذهب ولن يئوب فقد جاء له ابن سيحفظ اسمه ويبقى عقبه ، وربما فرح أبى لهب حتى قال لثوبية :

ـــ اذهبى فأنت حرة .

وتجلت أول بركة للوليد ولما يمض على مولده غير ساعات . دخلت ثوبية دار أبى لهب وهى جارية وخرجت منه وقد أصبحت حرة لكأنما كان ذلك إيذانا ببدء تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان .

ودخل عبد المطلب على آمنة والفرح يبدو فى وجهه ، وما أن ألقى عليها تحية الصباح وهنأها بالمولود حتى حملته وقدمته إلى جده ، فلما نظر إليه خفق قلبه فى رقة وحنان ، وسرعان ما احتلت صفحة ذهنه صورة عبد الله فراحت كنوز عواطفه تتدفق إلى صدره ، وفى لمح البصر طافت برأسه ذكريات حبيبة لا تنسى ، رأى عبد الله وهو يضرب عليه بالقداح عند هبل ورآه وهو يسير معه إلى دار بنى زهرة ليزوجه من آمنة ، ورآه يوم أن خرج إلى الشام يمتار تمرا ، ورأى الزبير يعود من يثرب لينعى إليه ابنه الحبيب ، وفطن إلى أن الله قد أبقى عبد الله يوم أن هم بأن يذبحه ليأتى بذلك المولود ثم يذهب دون أن يئوب .

إن الميلاد يذكر بالموت فهما طرفا حياة : بداية ونهاية ، فلما عاد عبد المطلب ينظر إلى حفيده تذكر ابنه قثم ، إنه مات فى التاسعة من عمره فلماذا لا يطلق اسمه على ابن عبد الله تخليدا لذكراه ؟ واستراح للفكرة فالتفت إلى آمنة وقال :

— نسميه قثما !

فقالت آمنة وقد تألقت عيناها بالفرح :

— إنى عندما حملت به سمعت هاتفا يهتف بى : إنك حملت بسيد هذه الأمة . وبينما كنت أضعه سمعت هاتفا يهتف بى : فإذا وقع إلى الأرض فسميه محمدا .

لم تكن آمنة أول من سمعت هاتفا يهتف بها يبشرها بسؤدد ابنها وسلطانه فقد أتى « عتبة بن عفيف » هاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فقال لها : « أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك أم عشرة غلمة كالناس ؟ » فأجابت : « بل حاتم » . وإن عبد المطلب قد سمع عن الهواتف التى تأتى

للنسوة وهن فى أشهر حملهن يبشرنهن بالمجد المنتظر للأجنة فى أرحامهن ، فقبل ما قالته آمنة عن رضى و لم يجد شيئا غريبا فى أن يسود محمد بن عبد الله قومه ، فلو لم يخطف الموت عبد الله لساد قومه كما سادهم أبوه عبد المطلب وجده هاشم من قبل . ترى أيبلغ محمد فى قومه ما بلغ كعب بن لؤى فى قريش ؟

وتذكر عبد المطلب ما بشره به كاهن اليمن . وما قالته سودة بنت زهرة كاهنة قريش لآمنة ، فأحس إحساسا غامضا أن سيكون لحفيده الذى بين يديه شأن لم يبلغه حتى كعب بن لؤى .

وأخذه أبوه عبد المطلب وانطلق إلى الكعبة فأدخله على هبل ، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله ويقول :

الحمد لله الذى أعطانى هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى يكون بلغة الفتيان حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من كل ذى شنآن من حاسد مضطرب العنان

وسمع عبد المطلب مناديا ينادى :

ــ يا معشر قريش .. يا معشر قريش .

فخرج من جوف الكعبة ينظر فإذا بيوسف اليهودى ينادى :

ــ يا معشر قريش .. قد ولد نبى هذه الأمة هذه الليلة بحرتكم (ناحيتكم) .

وعاد عبد المطلب إلى دار آمنة وهو يضم الوليد إلى صدره كأنما يمنع عنه أذى الناس ووضعه فى حضن أمه ، وسرعان ما ملئت الدار بنساء بنى زهرة

وبنى هاشم للاحتفال بالمولود . وجاء الزبير وأبو طالب وإخوة عبد الله تتهلل أفئدتهم بالفرح لمولد ابن أخيهم الراحل الحبيب .

وجلس عبد المطلب على فراشه فى ظل الكعبة ، وجاء يوسف اليهودى يسعى وجعل يطوف فى أندية قريش يسأل عن مولود ولد الليلة فلا يجد خبرا ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل :

ـــ هل ولد فيكم مولود الليلة ؟

ـــ ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

ـــ هو نبى والتوراة .

وفى مجلس من مجالس قريش قال يهودى ممن كانوا يتجرون فى مكة .

ـــ يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

ـــ والله ما نعلمه .

ـــ أما إذا أخطأكم فلا بأس فانظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد فى هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعيرات متواترات كأنهن عرف فرس ، لا يرضع ليلتين .

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا :

ـــ قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

فالتقى القوم فقالوا :

ـــ هل سمعتم حديث اليهودى وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟

فانطلقوا حتى جاءوا اليهودى وقالوا : ولد لعبد الله بن المطلب غلام .

فقال اليهودى :

ــ فاذهبوا معى حتى أنظر إليه .

فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا :

ــ أخرجى إلينا ابنك .

فأخرجته وكشفوا له ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودى مغشيا عليه ، فلما أفاق قالوا له :

ــ مالك ويلك ؟

ــ قد ذهبت والله النبوة من بنى إسرائيل فرحتم بها يا معشر قريش ، والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

٢٠

دعا زرادشت إلى عبادة إلـٰه واحد لا شريك له ، إلـٰه النور أهورا مزدا ، وقد تمكن الفرس بفضل ذلك الدين أن يبسطوا سلطانهم على الممالك من حولهم ، حتى كان عهد كسرى أنو شروان أعظم ملوك الساسانيين ، فقد بدا فى ذلك العصر أن الفرس بلغت مجدها بينا كانت الحقيقة أن عوامل الهدم راحت تعمل عملها فى البنيان الشامخ وأن دولة الفرس قد شهرت الخنجر لتطعن به قلبها ، فالدول تنتحر عادة بيدها قبل أن يغتالها قاتل يغزوها : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وظل الفرس يعبدون الله ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وراحوا ينقبون عن دياناتهم الوثنية القديمة ويمزجونها بما جاءهم به زرادشت ، فوجدوا أنهم كانوا يعبدون مثرا ذلك الإلـٰه الذى عرفه البابليون بشَمَس ، فقالوا كيف نرفض عبادة الشمس التى تضىء بنورها الكون كله ، والتى تنضج بحرارتها غذاء الناس والحيوان ؟ فجعلوا مثرا ابن الإلـٰه أهورا مزدا وراحوا يؤكدون تلك الصورة فى نقوشهم فجعلوا ملوكهم يتسلمون ولاية الملك من يد أهورا مزدا ، ويقف مثرا بإكليله الذى يشع منه النور خلف الملك .

وأصبح مثرا ابن أهورا مزدا وصار ينقش على أعمدة المعابد ومن حوله التاج النورانى وعربة الشمس يجرها جوادان مجنحان ، وفُتِح باب الأساطير على مصراعيه فراح رجال الدين والكهان وأصحاب المصالح يدونون فى

« الأوستا » كتاب زرادشت المقدس ما يشاءون . فطرأ على الأوستا ما طرأ على التوراة يوم أن أعاد أحبار اليهود كتابة التوراة فى أرض السبى بعد أن حملهم بختنصر إلى بابل وحرق التوراة وقوض الهيكل .

كان زرادشت يخاطب إلٰهه ويدعوه باسم أهورا مزدا إلٰه النور ، فلما أراد عبّاد أهورا مزدا أن يجسموا إلٰههم ويجعلوا لله رمزا لم يجدوا غير النار يرمزون بها إليه ، فجعلوا للبيت نارا وللقبيلة نارا وللقرية نارا (آذران) ولكل كور أو إقليم نارا (وهران) ، ورتب لتلك النيران خدَّام فكان رب البيت هو خادم نار البيت ، وكان يخدم نار القرية اثنان من الهرابذة على الأقل ، وكانت نار (وهران) تتطلب هيئة من الهرابذة أكثر عددا يرأسها موبذ .

وبعد أن كانت النار رمزا لأهورا مزدا أصبحت مقدسة لذاتها ، وكان لا بد من فلسفة فكرة عبادتها وتقسيمها إلى نيران تسرى فى كل شىء ، فقيل إن « هوفريانة » هى النار التى توجد فى جسم الإنسان والحيوان ، و « أوروازيسته » هى النار التى توجد فى النباتات ، و « زيستا » هى النار الكائنة فى السحاب أى الصاعقة ، و « اسنبيشته » هى النار التى تشعل أهورا مزدا فى الجنة ، وجعل المجد (خورانة) الذى يصاحب الملوك الشرعيين الآريين تجليا لهذه النار الأخيرة النار السماوية .

وروت الأساطير أن أصل هذه النيران كان نيرانا ثلاثا : نار رجال الدين ونار رجال الحرب ونار الزراع . وقد كانت هذه النيران على ظهر ثور ركبه جماعة من الرجال ليصلوا إلى ستة أقاليم لم يكن فى طاقة البشر بلوغها ، وفى ذات ليلة هبت الرياح فأسقطت النيران الثلاث عن ظهر الثور فى وسط المحيط ، ولكن النيران نبتت من جديد على ظهر الثور فأضاءت الدنيا .

وقد بنى لهذه النيران ثلاثة معابد : نار فربغ ومعبدها فوق جبل خور همند

فى خوارزم ؛ وآزر كشنسب ومعبدها فى آزربيجان وهى النار الملكية ، وكان الملوك الساسانيون يحجون إلى هذا البيت العظيم حين الأزمات ، وكانوا يهبونه هبات سخية من الذهب والأموال والأراضى والعبيد ، وكان الملك إذا ملك زاره ماشيا تعظيما له ؛ وكان معبد آذر برزين مهر معبد نار الزراع قائما فى شرق الدولة فى جبال رِيوَند شمال شرق نيسابور .

وما دام دين زرادشت قد بذل وفاض بالأساطير فكان لا بد من خلق أسطورة توضح بدء الخليقة ، وكان الأمر ميسورا بعد أن عرفت الفلسفة الهندية طريقها إلى فارس فقيل : إن دورة الدنيا تستمر اثنى عشر ألف سنة ، ففى أثناء ثلاثة الآلاف سنة الأولى يبقى العالمان : عالم أهورا مزدا عالم النور ، وعالم أرهيمن عالم الظلمات متجاورين فى هدوء ، والعالمان لا متناهيان من جوانب ثلاثة ، ولكن كلا منهما يحد الآخر فى الجانب الرابع ، فعالم النور فى الجانب الأعلى ، وعالم الظلمات فى الجانب الأسفل ، وبينهما فراغ مملوء بالهواء .

وفى مدة ثلاثة آلاف سنة يعيش خلق أهورا مزدا بالقوة ، وبعد ذلك يرى أهرمن النور ويضمر إبادته ، فيبادر أهورا مزدا الذى يعلم الغيب بأن يعرض عليه حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة فيقبل أهرمن وهو لا يعرف غير الماضى ، وبعد ذلك ينبئه أهورا مزدا بأن المعركة تنتهى بهزيمة عالم الظلمات ، ويفزع أهرمن هذا فيسقط فى الظلمات ويبقى فيها مشلولا مدة ثلاثة آلاف سنة ، فيبدأ أهورا مزدا بخلق الدنيا ، فلما أتمها خلق الثور المعروف بالثور الأول ، ثم خلق الإنسان الأول كيومرد (أى الحياة الفانية) الذى هو أول البشر . وحينئذ ألقى أهرمن بقوته ضد خلق أهورا مزدا فنجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات ، فأقام أهورا مزدا خندقا أمام

السماء ولكن أهرمن يكرر هجماته وينجح أخيرا فى قتل الثور وكيومرد .

وكانت بذور كيومرد مخبأة فى الأرض فنتج منها عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من البشر هما « مشيج » و « مشيانج » ، وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر ، وأخذ البشر يلعبون دورا فى الحرب بين مملكتى النور والظلمة وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى جانب الخير أو إلى جانب الشر ، فمن اتبع الصراط المستقيم منهم كان يمر سالما بعد الموت على الصراط المسمى « جينوت » ثم يدخل الجنة ، ولكن حينما يمر على ذلك الصراط أحد الأشرار ثم يدق حتى يصير كالسيف القاطع فيهوى المجرم إلى جهنم حيث يلقى من العذاب ما يعادل سيئاته ، أما من تعادلت موازينه فكانت حسناته مساوية لذنوبه فإنه يقيم فى « الهمشتكان » أى المكان المتوسط حيث لا عقاب ولا ثواب .

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم يظهر زرادشت فيهدى الناس إلى الدين الحق . وحينئذ لا يبقى للعالم فى الوجود غير ثلاثة آلاف سنة . ففى نهاية كل ألف يظهر مخلص يولد بطبيعة الحال من بذور زرادشت المخبأة فى إحدى البحيرات ، وفى اللحظة التى يولد فيها آخر المخلصين الثلاثة المخلص الحقيقى تبدأ المعركة الأخيرة ، فيبعث الأبطال والتنانين الشيطانية التى ذكرها التاريخ الخرافى لكى يتقاتلوا ، وأخيرا يبعث الموتى جميعا ، ويقع النجم المذنب على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب .

وعلى الناس جميعا الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا ذلك السيل الذى يكون للأتقياء كاللبن الساخن فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة ، وبعد المعركة الأخيرة بين الآلهة والشياطين تلك المعركة التى تنتهى بهزيمة

الشياطين وهلاكهم يسقط الشر إلى الأبد فى الظلمات ، وتمتد الأرض وتبسط ، وتبقى الدنيا المطهرة إلى الأبد فى سكون لا يعكر صفوه .

وكان ذلك يعرف فى « الأوستا » بالتصفية والتجديد ، وقد سر أنو شروان فى أعماقه بذلك الدين فراح يبحث عن الراحة النفسية فى الفلسفة وإن أظهر تدينه لسواد شعبه ، فقد قام طبيبه برزويه بترجمة كتاب « كليلة ودمنة » وهو نص بهلوى لمجموعة من القصص وكان قد أتى بالأصل الهندى أثناء رحلته له إلى بلاد الهند .

وكتب برزويه مقدمة للكتاب بيّن فيها الحياة الإنسانية والأوضاع الاجتماعية فى عصره ، وكشف عن روح قلق يبحث عن الحقيقة فلا يجدها لكأنما كان برزويه يعكس قلق أهل عصره ، قال :

وقد وجدت آراء الناس مختلفة وآراءهم متباينة ، وكل على كل عاد وله عدو مغتاب وفيه واقع ، فلما رأيت ذلك لم أجد فى متابعة أحد منهم سبيلا ، وعرفت أنى إن صدقت أحدا منهم لا علم لى بحاله كنت فى ذلك كالمصدق المخدوع ... فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون و لم آمن إن صدقته أن يوقعنى فى تهلكة عدت إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها ، فلم أجد عند أحد ممن كلمته جوابا فيما سألته عنه فيها ، و لم أر فيما كلمونى به شيئا يحق لى فى عقلى أن أصدق به ولا أن أتبعه ، فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأى أن ألزم دين آبائى وأجدادى الذى وجدتهم عليه وهممت بذلك .

ثم التمست لنفسى مخرجا فقلت : إن كان ما يفعل هذا معذورا ... فلما ذهبت ألتمس لنفسى فى لزوم دين الآباء والأجداد ، و لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها والنظر فيها ، هجس فى قلبى وخطر على بالى قرب الأجل وسرعة انقطاع

الدنيا واغتباط أهلها وتخرم الدهر حياتهم . فلما خفت من التردد رأيت أن لا أتعرض له ولا لما أتخوف منه المكروه واقتصرت على كل شيء تشهد به العقول ويتفق عليه أهل الأديان ويُرى أنه صواب وحق ..

كان النسك ينافى دين زرادشت ولكن العدوى انتقلت إلى برزويه من النصارى والمانوية والمزدكية ، فالتزم النسك وظل كسرى أنو شروان فى قلقه وشكه وبحثه عن الحقيقة عن طريق الفلسفة . بينا كان رجال الدين فى معبد النار يرتلون الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة فى النهار ، ويقومون بكل أعمال المذهب .

ووقف الهرابذة فى المعبد وقد أخفوا أفواههم بأربطة لكيلا تلوث أنفاسهم النار ، يغذون النار بقطع من الخشب طهرت تطهيرا دينيا ، وهم يرتلون الأدعية الدينية ، ثم أخذ الهرابذة فى نثر الهوما التى سبق أن دقوها فى أهوان وهم يتلون عليها بعض آى الأوستا ، وارتفعت أصوات المؤمنين بدعاء مجد النار ، وسار الموبذان خادم النار الأكبر فى قاعات المعبد المظلمة والنار مشتعلة فوق المذابح والأهوان تتألق والهرابذة يتلون الأوراد التى لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حينا وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حينا آخر ، فأحس الموبذان راحة وتهللت نفسه بالفرح .

وجاء المساء وذهب الموبذان لينام وهو هادئ النفس مستريح الضمير وما مس الكرى عينيه حتى رأى فيما يرى النائم فرسا عربية هجمت على جمل شرس ، وثار النقع ودارت بين الفرس والجمل معركة رهيبة انتهت بأن صرعت الفرس الجمل .

وقام الموبذان من نومه مفزوعا وطلب من يفسر له حلمه، فجاء رجل ممن يقرءون الطالع ويفسر الأحلام فقص عليه الموبذان حلمه ، فراح الرجل ينظر إلى النار

المقدسة ثم قال :

ـــ إن صدقت رؤياك فإن العرب يغزون فارس .

وساد القاعة وجوم ، ترى أأوشكت نبوءة ساسان أن تتحقق ؟ أن ينتزع العرب الملك من الساسانيين ؟ هل أظلّ العالم ذلك النبى العربى الــذى أوصاهم زرادشت بأن يستمسكوا بما جاءهم به حتى يبعث صاحب الجمل الأحمر ؟ فى تلك الليلة كان يهودى فى يثرب يقف على أطمة ويصيح : « طلع نجم أحمد » ، وكان يوسف اليهودى ينادى فى مكة : يا معشر قريش . قد ولد نبى هذه الأمة هذه الليلة فى بحرتكم .

٢١

نشبت الغيرة بين روما عاصمة الدولة الرومانية القديمة ، والقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فروما فى أيام الرسل كانت أفضل الأماكن لتكون العاصمة الدينية للدولة ، فبطرس أمير الرسل ختم حياته أسقفا لروما ، فلما فقدت روما مركزها السياسى ولم تعد عاصمة العالم بعد أن بنى قسطنطين القسطنطينية واتخذها قصبة إمبراطوريته الجديدة ، تشبثت روما بمركزها الدينى وعضت كنيستها بالنواجذ على انتسابها إلى بطرس الرسول وتمسكت بمقامها السامى .

وكانت كنيسة روما تبغض كنيسة القسطنطينية كل البغض ، وكان التنافس بينها وبين غريمتها أشبه بالتنافس بين الرومان والفرس ، لكأنما أصبحت الخدمة الدينية تنافسا على مغانم دنيوية حتى إن كنيسة روما كرهت كل الكراهية أن تصبح كنيسة القسطنطينية فى المقام الثانى بعدها !.

كانت القسطنطينية تقول إنها روما الجديدة ومن حق كنيستها أن تكون الكنيسة التالية لكنيسة روما ، ولكن كنيسة روما قالت إن كنيسة الإسكندرية هى الكنيسة الثانية بعدها لأن مؤسسها مرقص الرسول ، وروما لا تعترف إلا بالكنائس التى أسسها الرسل .

وزاد مرارة الموقف وانقسام العالم المسيحى الخلاف الذى شجر بين الإسكندرية والقسطنطينية حول طبيعة المسيح والتجاء كل منهما إلى روما لالتماس التأييد، وأحست روما خطرها فظلت مستمسكة بأن رأيها ووجهة نظرها ينبغى أن يسود دون مناقشة،على حين أن القسطنطينية كانت تقبل ما تذيعه روما إن أقره مجلس

مسكونى ، بينما كانت الإسكندرية تؤثر أن تنفصل عن كنيسة روما وأن تعارض بعض ما يتقرر فى المجالس المسكونية عن أن تتخلى عن لاهوتها .

لم يعش الإسلام الذى جاء به السيد المسيح على الأرض طويلا فقد كان من سوء حظ الدين الجديد أن احتل بولس مقعد السيد المسيح فغمر الدين بالفلسفة الرواقية وأساطير الوثنيين ، وكان من سوء حظه أن اعتنق قسطنطين الوثنى دين بولس فابتدع بدعة المجالس المسكونية التى كان لها حق التشريع الدينى ، وقد كانت تلك المجالس تخضع لهوى الأباطرة فكانت تحرم فى بعضها بعض ما كانت قد أحلته من قبل وتحلل ما كانت قد حرمته . وكانت المجالس المسكونية السبعة تعد هى والكتب المقدسة التى سلمت من يد قسطنطين أساسا للعقيدة الأرثوذكسية .

اجتمع كل مجلس من تلك المجالس للبت فى نقطة خاصة من نقط اللاهوت ولإصدار حكمه ضد زندقة معينة ، وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد .

وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقيه قرارا باستنزال اللعنة عليهم ، ولكن الذى حدث هو أن مذهب آريوس ظل طول القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى سنة ٣٨١ ، أما فى الغرب فإن هذا المذهب عاش قرونا عقيدة يؤمن به القوط .

وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها ، وقد سنحت

فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين : لاهوتى وناسوتى .

وكره الناس هذه الحركة لأنها تهاجم مكانة مريم البتول نصيرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة التى كانت مهددة بسبب ذلك إلى حرمانها من لقبها : أم الرب ، فاتحدت روما والإسكندرية لمناهضة هذا المذهب الجديد .

واجتمع المجلس المسكونى الثالث فى أفيسوس وأصدر قراره ضد ذلك المذهب بفضل قوة شخصية بطريرك الإسكندرية كيرلس ، وعقب ذلك المجمع انسحبت بعض كنائس شمال سورية وأسست هيئات مستقلة تحت حماية الفرس .

وقضت الإسكندرية على نفسها بفرط مبالغتها ، فقد راح بطريقها ديوسقوروس يغوص وراء نظرية (بوتيخوس) عن المسيح ، وهى النظرية الداعية إلى وحدة طبيعة المسيح ، ولم توافق روما على الفكرة وآثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مزاج روما . ونعى المجلس المسكونى بخلقيدونية على ديوسقوروس آراءه ، وعندئذ أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح هراطقة وصاروا موضع اضطهاد الأباطرة ورجال الدين فى روما والقسطنطينية .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها فى الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة نسبيا ، فقد كانت تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما . ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة متسلطة على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفى المجمع المسكونى الخامس المنعقد فى القسطنطينية فى سنة ٥٥٣ اعترف يوسطنيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يوفق بين الطرفين

المتنازعين .

وكان نبذ أى قانون يصدر عن المجالس العامة للكنيسة يعتبر زندقة ومروقا من الدين ، ذلك أن القوم كانوا يرون أن أى مجلس مسكونى هو الهيئة الملهمة التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية . وقد كان كل مذهب يعرض على المجالس المسكونية يجد له مؤيدين وأنصارا ، وقد كان هؤلاء يظلون على مذهبهم حتى بعد رفض المجالس لذلك المذهب ، وكانت النتيجة الطبيعية انشقاق العالم المسيحى إلى فرق متنافرة يكفر بعضها بعضا .

فتح بولس أبواب الخلاف على مصاريعها منذ أن ادعى أنه رسول السيد المسيح إلى أتباعه المؤمنين . ولم تعرف المسيحية الاستقرار لحظة واحدة بعد أن تطورت من دين سمح بسيط ، دين سماوى يدعو إلى الإسلام وعبادة الله وحده ككل الديانات السماوية من قبله إلى دين مزج بالفلسفة وأحيا الوثنيات وأصبح ميدانا لأهواء البشر يقررون فى مجامعهم ما يشاء الأباطرة وأصحاب النفوذ ، ويضاهئون قول الذين من قبلهم فصارت تعاليم السماء تنسخ وتحرف وتبدل ، وأصبح الإلـٰه الواحد القهار هو المسيح ابن مريم مرة « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » وأصبح الأب والمسيح الابن مرة أخرى « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » . وأصبح مرة ثالثة ثالث ثلاثة « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إلـٰه إلا إلـٰه واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر

كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .

وكان المسيحيون يرقبون ظهور الفراقليط الذى بشر به المسيح ، وقد زعم بعضهم أنهم ذلك النبى الذى بشر به عيسى ابن مريم ، ولم يجد هؤلاء أذنا واعية فلم يكونوا من أبناء أعمام موسى كما بشرت التوراة ، وزعم مانى فى فارس أنه « الفراقليط » ولكن الزرادشتيين المؤمنين كذبوه وقالوا إن زرادشت قد بشر بنبى يأتى من بلاد العرب .

وراح بعض الرهبان يعتزلون العالم فى صوامعهم انتظارا لمجىء « الفراقليط » ، وكانوا إذا ما خرجوا من صوامعهم يحدثون الناس عن النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى والأنبياء جميعا .

إنه لا يتكلم من نفسه بل يتكلم بما يسمع « لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علّمه شديد القوى . » وسيمكث مع الناس إلى الأبد . « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .

كان الأساقفة والقديسون يقومون بالشعائر الدينية ، وفى نفس الوقت يرعون النجوم ويفسرون الأحلام ويعقدون الجلسات التى يتخذون فيها من الراهبات وسيطات ، وكانت النيازك والكسوف تدلهم على الكوارث والملمات ، وكان رجال منهم يقومون بالتنجيم وقراءة المستقبل .

وكانت قاعة العرش فى القصر القيصرى بالقسطنطينية تستقبل المنجمين وقراء المستقبل والناظرين فى النجوم . وفى ذات يوم جاء العرافون وقد أطرقوا برءوسهم ولاح فى وجوههم الهم الشديد ، فقال لهم الإمبراطور :

— ما وراءكم ؟

فلزموا الصمت فقال القيصر :

ــ قولوا .

ــ ولنا الأمان ؟

ــ ولكم الأمان .

فقال قائل منهم :

ــ إن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون[١] .

وساد القاعة وجوم ، ولم يدر بخلد أحد أن نهاية الإمبراطورية الرومانية ستكون على يد العرب ، فقد كان العرب فى ذلك اليوم الذى ولد فيه الهدى أهون من أن يفكر الأباطرة فيهم . فذهبت الأفكار إلى اليهود فراح قياصرة الروم يضطهدونهم ويسومونهم من العذاب ألوانا . بينا كان محمد بن عبد الله « الفراقليط » الذى بشر به عيسى بين أحضان آمنة بنت وهب فى دور بنى هاشم التى تطل من فوق الصفا على الكعبة ..

---

(١) انظر فريد جاريوس فى .M.P.L مج ٧١ ص ٦٤٦ .

٢٢

وحزنت آمنة على عبد الله حزنا كاد يودى بها إلى البوار ، فقد أحبت فتى بنى هاشم وراحت تحلم بمستقبل بسام يجمع بينها وبينه ، وما كادت تستهل حياة الزوجية السعيدة ، حتى اختطفه الموت وهلك فى أرض غريبة دون أن تراه .

إنها استسلمت للأسى والدموع ولولا ذلك الذى كان يتحرك فى بطنها لرفضت الحياة ، فقد كانت ترى رحلة الحياة طويلة مملة ممضة دون رجلها الذى شغفت به حبا .

كانت لياليها فراغا ونهارها آلاما ، ولولا الرؤى العذاب التى كانت تطوف بها تخفف من لوعتها ولولا الهواتف التى كانت تهتف بها تبشرها بمستقبل عظيم لابن عبد الله لانفطرت كبدها وتصدع فؤادها وفتك بها حزنها وطويت أيامها القصيرة فى الأرض .

لم تحس آمنة مشقة طوال شهور الحمل ، ولم تحس مشقة حين وضعته . ترى أكانت ذاهلة بآلام النفس التى كانت تفوق آلام الجسد ؟ إنها لم تغب عن وعيها لحظة واحدة . كان أنفها يشم روائح أطيب من الطيب ، وكانت عيناها تريان نورا لكأنه كان آتيا من فوق السموات ، ولما وضعته رأت نورا يخرج منها قد فاض حتى خيل إليها أنه غمر كل الأرض .

لم تكن تحلم بل كانت مرهفة الحس صاحية الحواس وإن كان واقعها أقرب إلى الرؤى والتخيلات ، حتى إنها كادت تعتقد أن ما هى فيه إن هو إلا سبحة

من سبحات الخيال ، وكانت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وبركة جارية عبد الله الحبشية تحدثانها فى دهشة عما تريان وعما تحسان ، إنهما تريان نفس ما ترى ، وتحسان نفس ما تحس .

ونظرت آمنة إلى وليدها فى حب شديد وهى تحاول أن تلقمه ثديها ، ولكن الوليد أقفل فمه فانتابها خوف على حبيبها ، ودار بخلدها أنه لم يرضع لجفاف لبنها فقد أثر حزنها على عبد الله على كل كيانها . وبعثت بركة تستدعى ثويبة موضعة حمزة بن عبد المطلب ، فلما جاءت ثويبة التمست منها أن ترضع محمدا فأخذته لترضعه ، ولكنه لم يلتقم ثديها فاشتد جزع آمنة وربا خوفها .

ومضى أول يوم من مولده دون أن يرضع ، وانقضت ليلته الأولى وهو شاخص ببصره إلى القمر كأنه يناجيه دون أن يدخل جوفه شيء ، وباتت آمنة إلى جواره وهى تبذل كل ما وسعها الجهد لترضعه دون جدوى . وغفت آمنة غفوة وبركة إلى جواره وترنو إلى وجهه الجميل فتستشعر كأن كنوزا من الحب تفجرت فى وجدانها .

وذاع فى دور بنى هاشم أن ابن عبد الله مرض وأنه لم يرضع مذ وقع على الأرض ، فجاء بعض نسوة بنى هاشم إلى آمنة وراحت كل منهم تصف دواء ، وانقضى اليوم الثانى كما انقضى اليوم الأول : إعراض من محمد عن الرضاعة وشخوص ببصره إلى السماء ، وقلق وخوف وهلع يستولى على الأم التى كانت تشفق على ابنها اليتيم فباتت تخاف عليه أن يلحقه البوار .

وتصرمت الليلة الثانية وآمنة ساهرة إلى جوار ابنها لم تغمض لها عين . إنه ينظر إلى القمر كأنه يناجيه . كان مفتوح العينين لم يبد فى وجهه الذبول بل تترقرق الحياة فى محياه وإن لم يعرف الغذاء طريقه إلى جوفه ، لكأنما كان منذ مولده يفضل غذاء الروح على غذاء الجسد ويقدم ضرورة النفس على ضرورة

البدن .

وترقرقت الدموع شفقة فى عينى آمنة . أيعيش ابنها يومين دون أن يطعم ؟ دون أن يدخل جوفه شىء ؟ وحاولت أن تلقمه ثديها إلا أنه زم شفتيه . وفى الصباح جاءت ثويبة وما إن أعطته ثديها حتى أخذه وراح يرضع ، فتهللت أسارير آمنة بالسرور وانشرح صدرها وطفرت إلى مآقيها العبرات .

وذاع فى دور بنى هاشم أن ابن عبد الله قد برأ مما ألم به . فجاءت هالة بنت وهيب وهى تحمل ابنها حمزة ، وجاء بعض نسوة بنى هاشم لزيارة آمنة ، وما كاد يستقر بهن المقام حتى أقبل عبد المطلب وفى يده ابنه العباس وكان ابن ثلاثة أعوام ليرى حفيده .

وحملت بركة محمدا وجاءت به إلى العباس لينظر إليه فجعل النسوة يقلن للعباس :

— قبل أخاك .. قبل أخاك .

فمال العباس على ابن أخيه وقبله ، وعبد المطلب ينظر وقد انبعثت فيه عواطف رقيقة حانية . وأعادت بركة محمدا إلى فراشه ، وبعد قليل أنامت هالة ابنها حمزة بن عبد المطلب إلى جواره ، وانسل العباس لينظر إلى أخيه وابن أخيه وما خطر على قلب أحد من الذين أخذوا بأطراف الحديث أن فى فراش الوليد وعلى حواشيه اجتمع مجد الأرض ومجد السماء .

وجاء اليوم السابع من مولده فذبح عبد المطلب عنه وأقام وليمة دعا إليها قريشا ودبت الحياة فى شعب بنى هاشم ، كان الحارث والزبير وأبو طالب وأبناء المطلب فرحين مستبشرين . وكان العباس يغدو ويروح بين إخوته ثم استقر فى حجر أبيه ، وانتهى الناس من الطعام والشراب والتفت أحدهم إلى عبد المطلب وقال :

— يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ما سميته ؟

— سميته محمدا .

— فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟

— أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض .

ولم تمطر السماء فى هوازن فكانت سنة جدب وشدة ، ففكرت بعض أسرات من بنى سعد أن تخرج إلى مكة التماسا للرضعاء فقد كان أشراف مكة يدفعون بأبنائهم إلى البادية ليبعدوهم عن قيظ بلادهم وليلتقطوا الفصاحة من أهل الصحراء . وكانت الأسرات البدوية تتنافس على أبناء الأثرياء دفعا لغائلة الجوع التى تتهددهم فى السنين الشهباء .

قدمت مكة فى اليوم الثامن لمولد محمد عشر نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمس بها الرضعاء ، وكانت فيهن حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهو عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر .

كانت حليمة على أتان عجفاء كانت من شدة ضعفها تعطل سير الركب ، وكان معها صبى وناقة ما تبض بقطرة لبن ، وكان يسير إلى جوارها زوجها الحارث بن عبد العزى . وقد تقضت ليلة وهم فى الطريق لم يذوقوا فيها طعم النوم من صبيهما من بكائه من الجوع لا تجد فى ثديها ما يغذيه ولا فى ناقتها ما يغذيه ، ولكنها كانت ترجو الغيث والفرج .

وبلغ ركب بنى سعد البيت المقدس فكان أول ما فعلوه أن طافوا بالحرم ثم جلسوا ينتظرون مواليد أشراف مكة وسادتها ، وذاع فى الدور أن نسوة من بنى سعد قدمن يلتمسن الرضعاء فخرج الجوارى والعبيد يحملون الأعزة على سواعدهم ، وجاء عبد المطلب ومن خلفه بركة وعلى يديها محمد بن عبد الله

و لم يمض على مولده غير ثمانية أيام .

وعرض عبد المطلب حفيده على إحداهن فالتفتت إليه وقالت :

ــ أنت أبوه ؟

ــ لا . أبوه قد مات .

ــ يتيم ؟

فأومأ عبد المطلب برأسه فى أسى .

فقالت المرأة :

ــ ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟

كان عبد المطلب سيد قومه وكان يطعم حتى الطيور والجوارح والوحوش فى رءوس الجبال ، وعلى الرغم من صيته وغناه أعرضت المرأة عن حفيده ، فعبد المطلب يوم فى مكة ويوم فى اليمن ويوم فى الشام ، ومن يدرى فقد ينصرم أجله ويصبح عبئا على من يأخذه .

وذهب عبد المطلب بمحمد إلى امرأة أخرى ، وأبت المرأة أن تأخذه لما علمت أنه يتيم وقالت :

ــ إنما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟

ووقفت آمنة على البعد تنظر وعبد المطلب يدور بابنها الحبيب على المراضع والنسوة يجفلن منه لأنه يتيم ، كأن اليتم عندهن بلاء يستوجب الإعراض والفرار .

وذهب عبد المطلب إلى حليمة وقد كانت ذابلة عجفاء وقد وصل إليها نبأ حفيد عبد المطلب اليتيم ، وتقدمت آمنة خطوات وأرهفت سمعها لتلتقط ما تقول السعدية ، وإذا بصوت المرأة يقرع أذنها ويحرك أشجانها فتمتلئ بالعبرات مآقيها ، قالت حليمة :

ــ يتيم ؟ ماذا عسى أن تصنع لنا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبيه .

عرض عبد المطلب حفيده على النسوة العشر فأبين جميعا أن يأخذنه ، فأطرقت آمنة وسارت فى خطى وئيدة حزينة والأسى يهصرها هصرا . ولو أصغت إلى الوجود لالتقطت أذناها صوت السيد المسيح وهو يقــول : « الحجر الذى رفضه البناءون صار حجر الزاوية » ، ولتهللت نفسها بالفرح ولانقشعت تلك الدموع التى بللت روحها .

ودارت بركة جارية عبد الله الحبشية على عقبيها وهى تنظر إلى ابن عبد الله فى إشفاق وقد حرك عواطفها أن النسوة جميعا تركنه لموت أبيه ، وزاد فى أساها أن أصوات النساء راحت ترن فى أعماقها : يتيم ؟ يتيم ؟ يتيم ؟ فتمزق نياط قلبها .

وراحت حليمة السعدية تتلفت فرأت أنه لم يبق من صواحبها امرأة إلا أخذت رضيعا غيرها ، فمن ذا الذى يدفع بابنه إلى امرأة لا تجد فى ثديها ما يسكت بكاء ابنها ؟

وأجمع النسوة على الانطلاق ، فذهبت حليمة إلى زوجها وقالت :

ــ والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع . لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

ــ لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .

لم تتحرك شفقة حليمة السعدية لذلك اليتيم بل كرهت أن تعود دون رضيع ، فذهبت وأخذته وما أخذته إلا أنها لم تجد غيره .

وعادت حليمة بمحمد إلى رحلها وألقمته ثديها فإذا به يجود باللبن ، والتفتت حليمة إلى زوجها الحارث وفى عينيها دهشة وفرح . وشرب محمد

حتى روى وأعطت ثديها ابنها فشرب حتى روى .

وجاء الليل ونام الصبى وعرف الوسن إلى عينى حليمة وعينى الحارث فباتوا بخير ليلة ، فلما أصبح الصباح قام الحارث منشرح الصدر وألقى نظرة على محمد فألفاه هادئا ساكنا ، وأحس أن قلبه قد تفتح لذلك الصبى فالتفت إلى حليمة وقال :

— والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة .

٢٣

جاء زيد بن عمرو بن نفيل إلى الكعبة وهو راكب جمله ، وألقى نظرة على الأصنام التى وضعت فى داخل أول بيت وضع للناس وحوله فأحس أعمق الأسى ، وسرح به الخيال فرأى نفسه فى نفر من قريش : ورقة بن نوفل وعثمان ابن الحويرث وعبد الله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطلب ، وقد حضروا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم وقد خلا بعضهم إلى بعض وقالوا :

ـ تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .

فقال قائل منهم :

ـ تعلمن والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه . وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ؟ فابتغوا لأنفسكم .

ورأى زيد نفسه وقد عزم على الخروج من مكة ليطلب الدين القيم ، ورأى زوجه صفية بنت الحضرمى وهى تنسل إلى أخيه الخطاب بن نفيل وتوسوس له برغبة زيد ، فيقبل الخطاب يرغى ويزبد ويتوعد ويبذل كل ما فى جهده ليحول بين أخيه والخروج لالتماس دين غير دين آبائه .

وفى غفلة من الخطاب وضيفه انفلت إلى الشام وراح يطلب فى أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ، ثم انطلق إلى الموصل وجاب الجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهبا ببيعة من أرض البلقاء فسأله عن

الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب :

— إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، لقد درس من علمه وذهب من كل يعرفه .

— على أى دين كان ؟

— كان حنيفا لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى بيلادك ، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك فى بلدك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية .

ورأى ورقة بن نوفل وقد تنصر ، وعثمان بن الحويرث وقد اعتنق المسيحية ومال إلى الروم وقد راحت تراوده فكرة الانطلاق إلى القسطنطينية ، ثم رأى نفسه وقد كره الدخول فى المسيحية أو اعتناق اليهودية وآثر أن يحاول أن يعبد الله على ملة إبراهيم .

وظل زيد على ظهر جمله ينظر إلى الكعبة وهو شارد ، فرأى نفسه وقد عاد إلى مكة ليدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم ، فإذا بأخيه الخطاب يغلظ له فى القول ويحرض الناس عليه وآذاه أذى كثيرا حتى خرج منه إلى أعلى مكة . و لم يقنع الخطاب بذلك بل وكل به شبابا من قريش وسفهاء من سفائهم وقال لهم : « لا تتركوه يدخل » . ورأى زيد نفسه وهو يدخل مكة سرا يتلفت خشية بطش أخيه به .

وسرح خياله فإذا به يتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه إلى مكة والناس يذبحون الذبائح لآلهتهم ويذكرون عليها أسماء تلك الآلهة ، فقال لهم :

— الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، و لم تذبحوها على غير اسم الله ؟

كان يوما قاسيا شديدا فقد قام إليه الرجال وأوسعوه ضربا حتى كادت تزهق روحه ، إنه لا ينسى ذلك اليوم وإنه ليعجب لقومه يضطهدونه لأنه يدعوهم إلى دين أبيهم إبراهيم ، بينا يسير ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش آمنين وقد خرجوا عن دين القوم واعتنقوا النصرانية .

ورفع زيد يديه إلى السماء وقال :

— اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم . اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك ولكنى لا أعلم .

ثم سجد على راحلته وانصرف راضيا وكل خلجة من خلجات نفسه تقول :

— إلٰهى إلٰه إبراهيم ، ودينى دين إبراهيم .

وجاء أوان الحج فأقبل العرب من كل فج عميق يطوفون بالبيت العتيق ويذبحون عند إساف ويتمسحون بالأصنام ، وأقبل زيد بن نفيل ودخل الكعبة ثم قال :

— لبيك حقا حقا ! تعبدا ورقا ! عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم ، إذ قال إلٰهى أنفى لك عان راغم ، مهما تجشمنى فإنى جاسم ، البر أبغى لا أنخال ، ليس مهجر (فى شدة الحر) كمن قال .

ووقع بصره على هبل وقد خف الناس إلى كاهنه ليستقسموا بالأزلام عنده ، فقال :

— هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل . لا أعبد حجرا ولا أصلى له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم الأزلام ، وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت .

ووقف الحمس يقدمون ثياب الطواف للناس إعارة أو كراء فقد أذاعوا بين

الحجيج أنه لا يجوز الطواف فى ثياب اقترفت فيها الخطايا ، وراح الفقراء يطوفون عرايا ، أما الذين طافوا فى ثيابهم فقد خلعوا ثيابهم بعد الطواف وطرحوها لقىً لتبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وهبوب الرياح .

وراح الحجيج يسعى بين الصفا والمروة إحياء لذكرى هرولة هاجر لما كانت تبحث عن ماء لابنها إسماعيل الذى كان يموت عطشا . وأقبل الناس على ماء زمزم الذى وضعه عبد المطلب فى أحواض من أدم وبث فيه التمر والزبيب .

وراح الناس يمارسون شعائر الحج التى بقيت من أيام أبيهم إبراهيم الخليل وقد اعتورها ما اعتور الدين القيم من تبديل ، فقد وضعت الأصنام فى الأماكن المقدسة على الصفا والمروة وعلى جبل ثبير ، بل تكدست الأصنام فى جوف منارة التوحيد تكديسا .

كان إبراهيم يلبى فى الحج : « لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك ! » . فلما عرف العرب عبادة الأوثان تبدلت التلبية لتتفق مع معتقدهم الجديد ، فأضافوا إلى تلبية التوحيد تلبية الشرك فتجاوبت فى عرفات نداءات المشركين كانوا يحسبون أنهم يحيون شعائر إبراهيم الخليل :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وضاق زيد بذلك الشرك وهو واقف معهم على عرفات وقد التصق كتفه بأكتاف سادات قريش وأشراف العرب ، ولكنه ما كان قادرا على أن يفعل شيئا . أيستطيع أن يكمم هذه الأفواه التى تضج بتلبية إبراهيم الخليل وقد دنس توحيدها الرائع شرك مبين ؟ إنه أعجز من أن يقف فى وجه ذلك الطوفان من

البشر الذى اختلط فى وجدانه الكفر بالإيمان . وتذكر قريشا وهى تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » . فامتلأ فؤاده أسى وحسرة على قومه الذين يتشفعون إلى الله بأصنام لا تنفع ولا تضر .

وراحت تلبية الشرك ترن فى أذنيه وتؤلم روحه ، وأراد أن يصم أذنيه عن تلك التلبيات التى ظاهرها وباطنها عذاب فارتفع صوته يردد :

ــ لبيك لا شريك لك ولا ند لك ! .. لبيك لا شريك لك ولا ند لك !

ولكن صوته ضاع بين الأصوات المشركة التى كانت تتصاعد مدوية تريد أن تبلغ السماء .

كان على عرفات عرب من الحيرة والشام ويثرب وثمود وتيماء ومن كل قبائل الحجاز واليمن قد جاءوا كلهم ليؤدوا فريضة أبيهم إبراهيم الخليل . وكان منهم حنفاء يؤمنون بالله وحده وإن كانوا لا يعرفون على أى وجه يعبدونه . وصابئة يعبدون الله وصابئة يعبدون الملائكة وصابئة يعبدون الكواكب والنجوم . وكان فيهم من يعبد الأصنام وهو يعتقد أنها رمز لقوى فوق قوى البشر ، ويؤمن بأنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان ، ومن يعبدها وهو يعرف أنها رمز للشمس والقمر فقد كانت عبادة الشمس والقمر فى العرب قبل أن يهديهم إبراهيم الخليل إلى الله ، وقد ارتدوا إليها لما طال عليهم العهد وطمرت أساطير الأولين جوهر دين الإسلام . ملة أبيهم إبراهيم .

كان العرب الذين جاءوا من كل فج عميق ليقفوا جنبا إلى جنب فى عرفات يؤمنون جميعا برب البيت . وما تحملوا متاعب السفر إلى الحرم إلا لاستمالته واسترضائه لعله يرضى عنهم ولكنهم ضلو الطريق إليه ، تقربوا إليه بالملائكة

والكواكب والنجوم ، وبالأصنام وبالأوثان ، وجعلوا له أندادا وشركاء وبنات يشفعون لهم ويقربون إليه زلفى .

وعلى عرفات نسى عرب الحيرة أنهم عرب الفرس ، ونسى عرب الغساسنة أنهم عرب الروم ، ونسى عرب القبائل ما بينهم من عداوات وإحن ، وتوجهوا جميعا بقلوبهم إلى السماء وإن كانت ألسنتهم تلبى تلبيات تضلهم عن سبيل الله .

وراح عبد المطلب وبنوه يسهرون على راحة حجيج بيت الله يقدمون الطعام لمن يحتاج إلى طعام ، ويسقون الناس وهم يلبون تلبية قريش وإن اختلفت فكرة كل منهم عن إلٰهة ، كان عبد المطلب يؤمن ببعض ما سمعه من يهود يثرب أيام كان صبيا ، وكان يعتقد مثلهم أن ليس بعد هذه الحياة حياة ، وأن المرء يجزى بأعماله فى هذه الدنيا ؛ ولكن تجارب الأيام علمته أن بعد هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها المرء على أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وكان بعض قومه يؤمنون بالآخرة فكانوا يربطون ناقة الميت عندما يموت إلى قبره حتى تموت معه لكى يمتطيها يوم الحساب ويسير بها إلى الصراط .

وكان أبو طالب وأبو لهب والحارث والزبير يعتقدون أن ليس بعد هذه الحياة حياة ، كانوا من شباب قريش الذين أنكروا البعث . وقد كان كثير من شباب مكة مثلهم يعكفون على شرب الخمر وعلى اللهو ولا يتصورون أن تلك الأصنام التى يعبدونها قادرة على أن تحييهم مرة أخرى بعد أن يكونوا عظاما ورفاتا ، وكانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرابين والدعوات لتجزيهم على أعمالهم فى الحياة الدنيا .

وكان العباس فى كنف أمه ينتظر أوبة أبيه عبد المطلب من الحج ، وكان

حمزة بن عبد المطلب بين ذراعى هالة بنت وهيب لا يدرى ما الحج وما البيت وما الآلهة ، وكان محمد بن عبد الله فى بنى سعد ترضعه حليمة ويتطلع إلى وجوه إخوته من الرضاعة عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث والشيماء ، وكانت تحضنه مع أمها وقد تعلق قلبها بحب الوليد الذى جاءهم من حرم الله .

وراحت قبائل العرب تضج بالتلبية والشمس تميل للغروب وقد أطالوا النظر إلى أصنام آلهتهم التى جلبوها معهم . ولو أصاخوا سمعهم إلى دعاء أبيهم إبراهيم الخليل يوم أن جاء إلى الوادى المقدس : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . » لحطموا آلهتهم ، ولكن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فجعلوا لله أندادا .

وراحت الشمس تغيب فى الأفق البعيد فانطلقت من الحناجر ابتهالات وخفقت القلوب بين الصدور وانهمرت الدموع من العيون وترقب الناس أن تتجلى عليهم السماء . وما إن غاصت الشمس فى رمال الصحراء وغابت عن العيون حتى نفر الحجاج إلى منى وهم يلبون تلبية الشرك ، وانطلق زيد بن نفيل من عرفة ماشيا وهو يقول :

— لبيك متعبدا مرقوقا . لبيك متعبدا مرقوقا .

وضاعت تلبيته بين تلبيات الشرك والضلالة .

٢٤

كانا يطوفان حول الكعبة وفى قلبيهما أسى على الأصنام التى تكدست فى جوفها ومن حولها ، وعلى قومهما الذين تركوا دين أبيهم إبراهيم وجلبوا الأصنام من كل بقاع الأرض لتقربهم إلى الله زلفى ، كانا ورقة بن نوفل وعثمان ابن حويرث .

رأى ورقة وعثمان وزيد بن نفيل أن آلهتهم إن هى إلا أحجار لا تضر ولا تنفع . فخرجوا إلى يثرب وإلى الشام وإلى الحيرة وألقوا السمع إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى ، فتنصر ورقة وعثمان ، وأبى زيد أن يدخل فى النصرانية بعد أن فسدت وجعلت الله ثالث ثلاثة ، فراح يبحث عن دين إبراهيم ، الحنيفية الحقة ، فقيل له إن ما تبحث عنه يوشك أن يظهر فى قومك ، فعاد إلى مكة وقد أعلن أنه على دين إبراهيم ، وإن كان لا يدرى على أى وجه يعبد ربه ، وراح يرقب الأيام ينتظر ذلك الذى سيبعثه الله ليعيد ملة أبيهم إبراهيم بيضاء ناصعة .

دخل ورقة وعثمان وغيرهما من سادات قريش فى دين النصرانية ولكنهم لم يؤمنوا بوحدة طبيعة المسيح ولم يؤمنوا بلاهوت المسيح وناسوته ، لم يكونوا نساطرة ولا يعاقبة ، بل آمنوا بأن المسيح رسول من عند الله كان يأتيه الخبر من السماء ، وأنه عبد من عباده وأمه صديقة .

وقد حاول ورقة وعثمان ومن اتبع النصرانية من قريش ، وزيد بن نفيل الذى أراد أن يعود إلى دين إبراهيم إلى الوحدانية الخالصة ، أن يهدوا قومهم إلى

الدين القيم ، ولكن قومهم آذوهم أذى شديدا ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وأعرضوا عنهم ، فسكت الذين تنصروا والذين كفروا بعبادة الأوثان عن هداية قومهم ، فقد عجزوا عن احتمال الاضطهاد والعذاب فلم يكونوا من أولى العزم و لم يكونوا من أصحاب الرسالات .

وكان ورقة وعثمان ومن اتبع دين السيد المسيح من العرب يطوفون بالبيت ويقفون المواقف فى الحج ، فقد كانوا يؤمنون بأن البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس وأن إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل قد أقاما قواعده ، وأن الحج شريعة الخليل وأنه ركن من أركان الإسلام الذى جاء به أبو الأنبياء ، وإن كان العرب قد دسوا عليه ألوانا من الشرك بعد أن زاغت عقائدهم لما طال عليهم الأمد .

وعكف ورقة بن نوفل على دراسة التوراة والإنجيل ، وراح يتردد على بيع الرهبان وأحبار اليهود يناقشهم فى أمر الدين ويتلقى منهم ما عندهم من علم . وقد لفت انتباهه أن موسى بشر بنبى يوح إليه ليس من بنى إسرائيل بل من أبناء أعمامهم من نسل إسماعيل أبى العرب ، وراح ورقة يدرس فى إمعان نبوءات السيد المسيح « بالفراقليط » خاتم المرسلين الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد ، وقد سمع ورقة ولا شك لما ذهب إلى الحيرة بذلك الذى بشر به زرادشت « صاحب الجمل الأحمر » الذى سيبعث فى العرب .

واستولت فكرة أن يبعث الله نبيا أميا — من الأمم لا من بنى إسرائيل — على كل تفكيره ، فراح ينقب فى كتب الأولين عن ذلك النبى وراح يطوف على الأحبار وصوامع الرهبان وعلى رعاة النجوم ، فأكد له أحبار اليهود ورهبان النصارى والناظرون فى النجوم أن نجم ذلك النبى قد طلع وقد أظل العالم

زمانه ، فبات ورقة ينتظر مبعث ذلك النبى ليكون أول من يؤمن به وينصره نصرا مؤزرا .

وانتهى طواف ورقة وعثمان فانطلقا إلى حيث كان عبد المطلب جالسا على فراشه فى ظل الكعبة ومن حوله بنوه ، وخويلد بن أسد وأمية بن حرب وعتيق ابن عابد زوج خديجة بنت خويلد ، فألقيا على الجميع التحية . ثم ذهب ورقة ليجلس إلى جوار خويلد ابن عمه وذهب عثمان ليجلس إلى جوار أمية .

كان كل الحاضرين ينتهى نسبهم إلى قصى مجمع قريش ، وكانوا سادات قومهم وأشرافهم ، وكان الحديث يدور بينهم عن الوفد الذى سينطلق إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن على انتصاره على الأحباش وعودة ملك حمير إلى العرب . وتشعب الحديث فراح قائل يقول : إن الأحباش قد هزموا قبل أن يأتى سيف بجنود فارس ومراكب كسرى أنو شروان ، هزموا هنا يوم أرادوا أن يهدموا بيت الله فباءوا بالخزى والعار . وقال قائل إن أبرهة قد هزم مذ ذلك اليوم الذى اغتصب فيه زوجة ذى جدن وقبل أن يرزق منها مسروقا ، فلا يبنى ملك على الغصب والظلم والقهر والاستبداد . وقال قائل إن هزيمة أبرهة كانت ببركة دعاء عبد المطلب ، و لم يقل أحد منهم إنها كانت ببركة ذلك الذى كان لا يزال فى بطن آمنة بنت وهب . حتى ورقة بن نوفل الذى كان يتعجل ظهور نبى بنى إسماعيل لم يدر بخلده أن محمد بن عبد الله الطفل الرضيع الذى ذهب إلى مضارب خيام بنى سعد على يدى حليمة السعدية ، هو نبى هذه الأمة ، وأن الله قد قيض له فرصة خروجه منذ مولده إلى البيداء لتتكون الأسباب بينه وبين السماء ولتشتد أواصرها على مر الأيام .

واستمر الحديث بينهم وعثمان بن الحويرث فى شروده لا يسمع شيئا مما

يدور حوله ، فقد كان يفكر فى الذهاب إلى القسطنطينية إلى مقر قيصر ، ليقابل يوسطينوس الثانى ويعرض عليه أن يكون ملكا من قبله على مكة يؤيده بقوته على أن يحمل إليه خراج بلاده . و لم يجد فيما يدور فى خاطره معرة ولا خيانة فسيف بن ذى يزن يحكم اليوم اليمن بسلطان كسرى ، والنعمان بن المنذر يحكم الحيرة بسلطان أنو شروان ، وملوك الغساسنة يحكمون الشام بسلطان القياصرة ، حتى مشايخ القبائل كانوا مؤيدين بكسرى أو قيصر .

وراح عثمان يستعيد كل ما سمعه عن استقبال القصر القيصرى للحارث بن جبلة ملك الغساسنة لما انطلق إلى القسطنطينية ، ويجرى خياله خلف كل ما وعته ذاكرته عن ذهاب امرئ القيس إلى القيصر يوسطنيانوس يستعين به على استعادة عرشه ، وما كان من صداقة بينهما ومنادمة حتى إنهما كانا يدخلان الحمام معا . ترى كيف يكون استقبال الإمبراطور يوسطينوس له إذا ما شد الرحال إلى القسطنطينية وماذا سيقول لقيصر وماذا سيقول قيصر له ، واستمر عثمان يحلق وراء أحلامه المجنحة و لم يفق من شروده إلا على صوت عبد المطلب وهو يسأله :

ـــ وأنت يا عثمان هل ستذهب فى وفدنا المسافر إلى اليمن لتهنئة ابن ذى يزن ؟

وقال عثمان فى اقتضاب :

ـــ لا .

و كان منطقيا مع نفسه فكيف يذهب إلى تهنئة حليف فارس إذا كان يفكر فى الانطلاق إلى قيصر يعرض عليه أن يوليه أمر الحجاز ، وأن يكون له مثل سيف بن ذى يزن لكسرى ؟. وعاد عثمان يسرح وراء خياله فراح يؤكد

لنفسه أن قيصر سيرحب بما سيعرضه عليه ، فأباطرة الروم يتمنون أن تكون كعبة العرب حليفة لهم ، فلو أنهم اطمأنوا إلى أنها قد صارت فى معسكرهم فذلك يزيد من مكانة الروم فى أعين العرب .

ونهض خويلد بن أسد وزوج ابنته عتيق بن عابد ، وقبل أن ينصرفا قال خويلد لورقة :

ــ ألا تأتى معنا ؟

ــ أين ؟

ــ إلى دار عتيق .

ــ إنى لم أر الطاهرة بعد أن وضعت طفلتها .

كانت خديجة تعرف بالطاهرة ولما تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ، و لم تكن تشارك فتيات مكة فى مجونهن ، وكانت على الرغم من حداثة سنها تنأى عن مجالس اللهو وتهتم بقوافل قريش وبتجارة أبيها . وكانت تستريح إلى مجلس ورقة فقد كان يحدثها حديثا طليا عن الأديان وعن الرسل الذين يبعثهم الله لهداية البشر .

وانطلق خويلد وعتيق وورقة إلى دار خديجة ، ولمحت جاريتها من الشباك إقبال سيدها وصحبه فخفت إلى سيدتها تقول :

ــ سيدى الصغير وسيدى الكبير وسيدى ورقة.

وأسرعت الجارية تفتح الباب ، وقامت خديجة لتستقبل القادمين . وإن هى إلا لحظات حتى كان الجميع جالسين فى غرفة أثثت برياش فاخر جلب من الشام ومن الحيرة ومن اليمن ، ولا غرو فقد كانت خديجة بنت سيد من سادات قريش وتاجر من أكبر تجارها .

وجاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة ، وما كادت تستقر حتى قالت خديجة لأختها :

— هاتى هند فابن العم ورقة لم يرها بعد .

وقامت هالة وما لبثت أن عادت وهى تحمل ابنة أختها هند بين يديها وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة . ولاح فى وجه عتيق السرور وهو يرنو إلى ابنته ، وأخذ خويلد الطفلة وقبلها ثم قدمها إلى ورقة ، وما كادت الطفلة تستقر بين يديه حتى قالت هالة :

— إنى غاضبة .

فقال ورقة مداعبا :

— لأنها أجمل منك !

— بل لأن خديجة لم تسمها باسمى .

فقالت خديجة وقد رفت على شفتيها بسمة رقيقة :

— لا تغضبى فسأسمى وليدى الثانى هالة ، سواء أكان ذكرا أم أنثى .

وقال خويلد مداعبا :

— وأنا ؟

فقالت هالة فى مرح :

— ألا يكفيك يا أبتاه أننا نحمل اسمك ؟

وأراد خويلد إغاظتها فقال :

— ومتى خلدت البنت اسم أبيها ؟

فقال ورقة فى هدوء :

— إذا ما تزوجت عظيما أو أنجبت سيدا من سادات قومه .

وقالت هالة :

— أو سادت قومها .

ضحك الجميع حتى هالة ضحكت من قولها ، وما لبث ورقة أن كف عن الضحك وقال :

— وفيم ضحكنا ؟ إن ملكة سبأ سادت قومها .

وقال خويلد :

— والزباء ملكة تدمر .

وراحت الروايات تروى عن ملكة سبأ وعن الزباء التى وقفت فى وجه الرومان حتى وقعت أسيرة فى أيديهم وحملت إلى روما ، فقد كان سادات قريش وعقائلهم وبناتهم على علم بالأحداث الجارية فى العالم من حولهم .

وذهبت هالة بهند بنت خديجة وشغلت بمداعبتها عن كل ما حولها ، وقام خويلد وعتيق بن عابد إلى الشراب ، واعتذر ورقة بن نوفل لا لأن الخمر حرام فقد كانت تشرب فى الكنائس وفى كل مكان من العالم المسيحى على زعم أن المسيح كان شريب خمر ، بل لأنه كان يحدث خديجة حديث الأنبياء وهو حديث حبيب إلى قلبه وروحه .

كان ورقة يحدث أخته رقيقة عن النبى العربى الذى يجده مكتوبا فى التوراة والإنجيل حتى جعلها تتمنى أن تكون أم ذلك النذير ، فراحت تتفرس فى وجوه شباب قريش فرأت فى وجه عبد الله شيئا مثيرا جذبها إليه وجعلها تعرض نفسها عليه لتتحقق لها الآمال ، ولكن عبد الله دخل على آمنة بنت وهب وذهب عنه ذلك السحر الذى هفت إليه ، فعافته نفسها وأعرضت عنه لما جاء إليها بعد أن بنى بآمنة يسألها ، لم لا تعرض عليه اليوم ما كانت تعرضه

بالأمس .

كان حديث ورقة عن النبى الأمى ، الذى سيبعث فى الأمم لا فى بنى إسرائيل مثيرا ، وكان يستولى على أفئدة سامعيه ، وكان يزيد ذلك الحديث روعة الغموض الذى يكتنفه ، فقد كان ورقة يضع نصب عينيه مآثر موسى والسيد المسيح وهو يبشر باقتراب ظهور « الفراقليط » .

وراحت خديجة تصغى إلى ورقة وهى مأخوذة بعذب حديثه ، إنه يحدثها عن أصنام قومها ويسخر من أنها كلها إناث : اللات والعزى ومناة . « إن يدعون من دونه إلا إناثا » ويخبرها أن قومها قد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ويقص عليها قصة رحلته فى الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم ، وما كان بينه وبين زيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء ، إن أحب الدين إلى الله دين هذا المبشر به ، فقد قال لزيد ، أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتى هذا النبى . أما زيد فقد أبى أن يتنصر واجتهد فى أن يتبع ملة إبراهيم ، وعاد إلى مكة ينتظر ظهور ذلك المبشر به .

كانت خديجة لم تتجاوز الخامسة عشرة ، وكانت مقبلة على دنيا مشرقة كلها بهجة ولهو ومرح ، إلا أنها كانت تجد نفسها تتفتح للأحاديث الجادة ، أحاديث التجارة وأحاديث الدين ، وقد ألقت إلى ورقة سمعها فتشوقت إلى ذلك العصر الذى يتحدث عنه ورقة حديث الواثق ، وتمنت أن يمتد بها العمر لترى ذلك الذى بشرت به الأنبياء ، وما دار بخلدها فى تلك اللحظة أن الله يدخرها لتكون نعم السند لذلك النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

٢٥

انطلق سادات قريش وشعراؤها إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن ومدحه وذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه ، وبلغ وفد العرب صنعاء وسار إلى قصر غيدان واستأذن عبد المطلب رئيس الوفد فى الدخول على الملك ، فأذن له ، فراحوا يسعون فى طرقات القصر مشدوهين فقد كان القصر آية فى الروعة والجمال .

كان عبد المطلب عن يمين رئيس تشريفات الملك ، وكان من خلفهم أمية ابن عبد شمس وعبد الله بن جدعان وأسد بن خويلة بن عبد العزى وأشراف قريش وشعراؤها وقد ارتدوا أبهى حللهم . وقد كان عبد المطلب فخما كأنه القمر تحف به النجوم .

وفتح باب قاعة العرش فإذا الملك مضمخ بالعنبر يرى لمعان الطيب من مفرقه ، عليه بردان مؤتزر بأحدهما مرتد بالآخر ، سيفه بين يديه وعن يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك والرؤساء ، فانطلق عبد المطلب حتى دنا من سيف بن ذى يزن وقال :

ــ أيأذن لى مولاى فى الكلام ؟

فقال سيف :

ــ إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فتكلم فقد أذنا لك .

فقال عبد المطلب :

ـ إن الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا ، صعبا منيعا . شامخا باذخا . وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم موطن ، وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى يخصب ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ عليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا لكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة .

فقال ابن ذى يزن :

ـ فأيهم أنت المتكلم ؟

ـ أنا عبد المطلب بن هاشم .

وتذكر سيف بن ذى يزن أن هاشما تزوج سلمى الخزرجية وأن الخزرج من اليمن ، فقال :

ـ ابن أختنا ؟

ـ نعم . ابن أختكم .

ـ ادن .

فأدناه على القوم وعليه فقال :

ـ مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا . قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل وأهل النهار ، لكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

وانطلق وفد قريش إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهرا لا يصلون إلى

الملك ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأخلاه وأدنى مجلسه وقال :

— يا عبد المطلب إنى مفض إليك من سر علمي ما لو كان غيرك لم أبح له ، ولكن رأيتك معَدِنه وأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ فيه أمره .

إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس عامة ، ولرهطك كافة .

— أيها الملك فمثلك من سرَّ وبر ، فما هو ؟

— إذا ولد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة .

وشرد عبد المطلب يفكر ويجمع خيوط ما سمع من نبوءات بعضها إلى بعض ، إنه هنا فى اليمن قال له الكاهن : إن فى إحدى يديه ملكا وفى الأخرى نبوة . وقالت كاهنة قريش لآمنة : إنها النذيرة وستلد نذيرا . وهتف بآمنة هاتف يوم أن حملت بابن عبد الله إنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد أمرت آمنة عندما ولدته أن تسميه محمدا . إنه محمد ولا ريب ذلك الذى بشر به الكهان والرهبان وأحلام اليقظة ورؤى المنام ، إنه محمد ولا ريب سيد هذه الأمة .

وهفت روح عبد المطلب إلى حفيده الذى حملته مرضعة بنى سعد لتتفتح عيناه أول ما تتفتح على الحرية الطليقة والطبيعة الآسرة ، والكون العريض بما ينبض من سحر وأسرار .

وأذن الملك لوفد قريش بالرحيل بعد أن أمر لكل من القوم بعشرة أعبد

وعشر إماء سود ، وحلتين من حلل البرود ، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضة وكرشا مملوءا عنبرا ، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك .

وعاد الوفد إلى مكة ، وذاع بين الناس عطاء الملك فحسد الناس عبد المطلب ، فقام فى الناس وقال :

— يا معشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كان كثيرا فإنه إلى نفاد . ولكن ليغبطنى بما لى ولعقبى ذكره وفخره وشرفه .

وقال قائل :

— وما ذاك ؟

فقال عبد المطلب فى هدوء :

— ستعلمون ما أقول لكم ولو بعد حين .

وسمع عثمان بن الحويرث بما كان بين قريش والملك سيف بن ذى يزن ، فعادت فكرة انطلاقه إلى القسطنطينية تستولى على كل تفكيره . فسيف أصبح ملكا على اليمن من قبل كسرى أنو شروان إمبراطور فارس ، وما كان سيف على دين المجوس ، فما الذى يحول بين عثمان وبين الذهاب إلى يوسطنيوس الثانى إمبراطور الروم ليعرض عليه أن يكون ملكا على الحجاز من قبله ، وكلاهما على دين المسيح ؟

وتجهز عثمان للرحلة وقال إنه عازم على زيارة القسطنطينية و لم يفض إلى أحد بما يدور فى رأسه . و لم يثر رحيله عجب القوم فقد كان سادات قريش فى رحلة دائمة بين الشام والإسكندرية والقسطنطينية والحيرة وفارس واليمن ، وقد قبر رجال منهم فى كل أرجاء دنيا ذلك العصر .

وراح عثمان بن الحويرث يسعى إلى القسطنطينية يعبر القفار وينـزل

الواحات ويرحل إلى مدن الشام حتى انتهى به السعى إلى مشارف القسطنطينية ، فإذا بقباب القصر الكبير وممراته المسقوفة والمجللة بالقراميد الملونة تضرب فى السماء ، ومن ورائه كنيسة أيا صوفيا شامخة فى الفضاء . إنها درة فى فن العمارة فاقت هيكل سليمان .

وراح ذهن عثمان يعمل ؛ إنه ليذكر أن يوسطنيانوس قيصر الروم بنى أيا صوفيا كنيسة الحكمة المقدسة لتنافس كنائس الإسكندرية وروما وكل معابد الأرض ، وقد بذل كل سعى لتكون القسطنطينية المدينة المسيحية الأولى فى العالم المسيحى . وقد تحقق له ما أراد فالإسكندرية كانت مكمن الكراهية للإمبراطورية ، وكانت كنيستها تؤجج نوازع البغضاء للحكومة الرومانية ، فراحت تناصر الفتن والأمانى الوطنية التى كانت تبذل كل جهد لتتخلص من استعباد الرومان .

كانت كنيسة الإسكندرية مسيحية وكانت كنيسة القسطنطينية مسيحية ، ولكن شتان بين مسيحية ومسيحية ، فراح أباطرة الروم يبذلون كل جهد لإضعاف نفوذ كنيسة الإسكندرية ، وقد قلل ذلك من قيمة الإسكندرية العالمية وإن كانت الإسكندرية قد بدأت تزلزل الأرض تحت أقدام أباطرة الرومان .

وتقدم عثمان من إحدى بوابات المدينة وكانت لها اثنتا عشرة بوابة فلمح تلال القسطنطينية السبعة تنهض قائمة كالجدار على البوسفور والقرن الذهبى ، بينا كان انحدارها من ناحية بحر مرمرة ألطف وأسهل والامتداد فيها أرحب وأوسع .

ودخل عثمان من البوابة المواجهة لقصر الإمبراطورية ونظر ففغر فاه من

الدهشة . كانت الحدائق تمتد من القصر حتى البسفور ، وفى الجنوب ميدان فسيح للسباق يطل على مرفأ القصر المزخرف بنقوش وتهاويل تبده العقل ، وكنيسة فخمة للقديس سرجيوس وأخرى للقديس باكوس قامتا فى حى منخفض ملىء بقصور أقل فخامة من قصر الإمبراطور . ولكنها تنطق بالغنى والبذخ .

والتفت عثمان يسارا فرأى السور البحرى بما يعلوه بين حين وآخر من أبراج ، وقد شقت فيه فتحات تسمح بوجود مرافئ صناعية ترسو فيها السفن التى لا ترغب أن تدور حتى تدخل الموانى .

وسار عثمان فى الشارع الأوسط ، وهو شارع يبدأ من مدخل القصر وحلبة السباق ويمتد ميلين تحف به من جانبيه العقود ويمر من خلال سوق قسطنطين وسوق أخرى ، وكانت السوقان مزدانتين بتماثيل الأباطرة والقديسين . وعلى جانبى الشارع أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع حسب ما تبيع من سلع ، فراح عثمان يرقب صياغة الذهب ثم الفضة والبرنز ، ويشاهد ما يعرض تجار الأثاث والملابس والجلود .

كانت أغنى تلك الدكاكين قرب القصر عند حمامات زيوكسيبتوس ، فقد كانت سوقا ضخمة للحرير ، وقد عرفت تلك السوق باسم دار الأنوار ، لأن نوافذ غرفها كانت تضاء ليلا ، وكان ذلك جديدا على عثمان بن الحويرث ، فراح يطوف بالقسطنطينية قبل أن يتوجه إلى القصر الإمبراطورى ليعمل على تحقيق حلمه الذى صار يسرى فى كيانه مسرى الدم .

كانت المناظرات تقوم فى ضميره بينه وبين قيصر الروم وكانت جميعها تنتهى بموافقة يوسطينوس الثانى على أن يكون عثمان ابن الحويرث ملكا على

مكة من قبل الإمبراطور العظيم ، وقد هدأت نفسه حينا من الدهر وهو يطوف بأنحاء عاصمة الدولة الرومانية الشرقية وهو مشدوه ، فقد كانت الشوارع والأسواق وحلبات السباق متاحف تعرض فيها أبدع ما صورته يد الأقدمين من التماثيل .

وانتهى عثمان من طوافه فيمم صوب القصر وهو يرجو أن ترتبط بينه وبين قيصر الأسباب ، وأن يتخذه يوسطينوس نديما كما اتخذ يوسطينيانوس امرأ القيس الشاعر العربى نديما له من قبل ، وطلب المثول بين يدى الإمبراطور لتقديم ما جاء به من هدايا من بلاد الشرق .

وتحدد موعد المقابلة فجاء عثمان فى زيه العربى الخلاب وسار فى ردهات القصر وهو مذهول لا يصدق عينيه ، فما دار فى خلده أن هناك على وجه الأرض مثل ذلك الترف وتلك الروعة .

وما كان دخول القصور شيئا جديدا على عثمان فقد زار الخورنق من قبل ورأى قصور الشام ، إلا أن ما كانت تقع عليه عيناه يفوق كل وصف .

وفتح باب قاعة العرش وفى لمحة خاطفة رأى عثمان الإمبراطور يوسطينوس الثانى إلى جواره الإمبراطورة صوفيا وقد ارتديا أفخر الثيـاب ، وكانت الإمبراطورة تتألق فى الجواهر التى تتزين بها وقد أكثرت من وضع الأصباغ على وجهها .

وخر عثمان ساجدا ولم يرفع رأسه إلا لما سمع أن الإمبراطور قد سمح له بأن ينهض . وقام عثمان ووقف خاشعا برهة ، ثم قدم إلى الإمبراطور والإمبراطورة طُرفا من فارس واليمن فتهللت أسارير الإمبراطورة . وسمح الإمبراطور لعثمان بالجلوس فراحت النشوة تعربد بين جنبيه ، وراح عثمان يذكر للإمبراطور

والإمبراطورة مكانة مكة بين العرب وكيف أن البيت هو قبلة العرب جميعا فى الحيرة والشام وفى الحجاز وفى اليمن . وكيف أن من يملك مكة تدين له بالولاء كل قبائل العرب ، وظل يوسطينوس يصغى إلى عثمان وهو على علم بمكانة البلدة المقدسة عند كل العرب ، فقد كانت أعز أمنية للروم أن يتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والقسطنطينية ، وقد قام أبرهة بحملة لتحقيق ذلك الحلم ولكن الحملة تكسرت أمام بيت العرب المقدس ، وإن إمبراطور الروم وساستها يعجبون من أمر تلك النكسة التى أصابت أصحاب الفيل .

وقال عثمان فيما قال :

ـــ تكون زيادة فى ملكك كما أن اليمن قد أصبحت زيادة فى ملك كسرى أنو شروان .

كانت أمنية أباطرة الروم وساستها أن تكون الأرض التى بين الحبشة والقسطنطينية أرضا فى حوزة الروم أو حليفة للروم يرفرف عليها النسر الرومانى ، ويا حبذا لو وضع إلى جوار الراية الرومانية صليب المسيح . أما وقد أخفقت حملة أبرهة فلا أقل من أن تكون مكة زيادة فى ملك يوسطينوس ويحمل عثمان بن الحويرث إليه خراج تلك البلاد . ولم يظهر الإمبراطور لهفة على الاستجابة إلى رجاء عثمان بل حدثه حديثا لينا ووعده أن ينظر فى الأمر .

ودعا الإمبراطور والإمبراطورة عثمان بن الحويرث لمشاهدة السباق معهما ، وقد اغتبط عثمان بهذه اللفتة الكريمة وعدها مكرمة وانشرح لها صدره ، فقد كانت دليلا على أن ما عرضه على الإمبراطور قد لقى قبولا فى نفسه .

وانطلق الإمبراطور والإمبراطورة وضيفهما العربى الذى يطمع فى أن

يكون ملكا على مكة من القصر إلى المقصورة الإمبراطورية مباشرة ، فلما رأى الشعب قيصر ضج المكان بالهتافات ، وراح عثمان يقلب نظره فى ميدان السباق وهو فى ذهول ، فقد كان يرى مدرجات ضخمة تتسع لما يقرب من أربعين ألف مشاهد .

وراحت العربات الرومانية تنطلق فى سباق رهيب وعثمان يرقب ما يجرى وهو مشدوه ، وانتهى السباق وقد بلغ حماس النظارة غايته ، والأنفاس مكروبة فى الصدور وقد اتسعت العيون وأرهفت الحواس .

ونزل المصارعون إلى أرض الملعب وضج المكان بالهتافات ، وفتحت أقفاص الوحوش الكاسرة وبدأ الصراع بين البشر والوحوش الضارية ، وتأججت حماسة الناس لما سالت الدماء . وانتهت المعركة الرهيبة والهتافات ترتفع إلى السماء ، ولم يخفق قلب واحد إخفاقة شفقة أو رحمة فقد أماتت الحضارة الزائفة الشعور الطيب فى الناس .

ونزل إلى أرض الملعب حزبا السرك وهما الزرق والخضر فاشتعلت حماسة الناس وبدأ الصراع . وراح الناس يرقبون ما يجرى بين الفريقين وقد انفعلت المشاعر انفعالا كادت تفلت بسببه سيطرة الناس على عواطفهم وتحدث اضطرابات . وكثيرا ما وقعت الفتن السياسية أثناء ذلك الصراع فقد كان كل حزب سياسى يؤيد فريقا من الفريقين ، وكان لكل فريق لونه السياسى والدينى .

وهبط إلى أرض الملعب العبيد للصراع حتى الموت فتجاوبت أرجاء الملعب بالتهليل والهتاف ، وفتحت العيون ولاحت القسوة فى الوجوه . وأذن لمصارعين من العبيد ببدء القتال فاستل كل منهما خنجره وراح يدور حول

غريمه فى حرص شديد يلتمس منه غفلة ليطعنه طعنة قاتلة ، دون ذنب جناه ، إرضاء لشهوة الأسياد فى سفك الدماء ، وهجم أحدهما على الآخر وطعنه طعنة أفلت منها ، وفى مثل لمح البصر رد على الطعنة الطائشة بطعنة لم تصب القلب بل جاءت فى الصدر . وما إن سالت الدماء حتى انبعث من الجماهير هتاف وزئير لكأنه منبعث من وحوش كاسرة فى الغاب .

وتهللت أسارير الإمبراطور وانفرجت شفتا الإمبراطورة عن بسمة تنم عن الفرحة المنتشرة فى وجدانها ، وراح عثمان يظهر السرور والغبطة إرضاء ليوسطينوس العظيم وصوفيا المبجلة ، واستمر صراع الوحوش البشرية حتى جللت الأرض بالدماء وغطتها جثث الضحايا .

وعاد الإمبراطور ممثل أعظم حضارة فى الأرض إلى القصر شامخا بأنفه مزهوا بما بلغته إمبراطوريته من رق ، وعن يمينه وشماله صوفيا الجميلة وضيفه العربى الكريم الذى جاء ليمد ظل الحضارة الرومانية على مكة .

واجتمع قيصر وزوجه بعثمان بن الحويرث وأخبره أنهما قبلا ما جاء يعرضه عليهما ، وقد تفضل الإمبراطور يوسطنيوس بأن كتب له كتابا يوليه من قبله على مكة وختم فى أسفله بالذهب ، وخلع على عثمان خلعة وحمله الهدايا ، حتى بغلة عثمان أهدى إليها سرج موشاة بالذهب .

وتأهب عثمان ليعود إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح ، فقد صار حاكم مكة من قبل قيصر ، إنه ممثل أعظم حضارة عرفتها الدنيا ، وما يحسب أن الأرض ستشهد مثل تلك الحضارة التى شاهدها بعينيه فى القسطنطينية .

وطافت بذهنه فارس وراح يقارن بينها وبين حضارة الرومان ، فإذا بهواه يؤكد له أن الرومان أكثر حضارة من الفرس ، فإن كانت الفرس قد ظهرت

فى الحروب على الروم فإن ذلك إلى حين وستغلب الروم الفرس وتصبح أعظم قوة فى الأرض وترفرف حضارتها إلى الأبد على العالمين .

وسخرت السماء بأحلام عثمان بن الحويرث فقد كانت العناية الإلٰهية ترعى صبيا من نسل قصى مثل عثمان ، ستؤتيه حكمة وتوحى إليه بكتاب منير ، تقوم على شرائعه حضارة تبهر كل الحضارات .

٢٦

كانت الشمس ترتفع من خلف الجبال كأنها قرص من الفضة يتوهج ، وقد شعت منه أشعة واهنة ضربت حولها دائرة من شفق أحمر مزجت به أضواء من لجين . وراح قرص الفضة يرتفع ويتألق وتتداح أشعته حتى احتلت ما بين الجبلين وغمرت وادى هوازن بنور خافت ما لبث أن اشتد وازداد تألقا .

وجلست حليمة السعدية أمام دارها ترضع محمدا وهى ترنو إليه فى حب شديد ، وشرد خيالها وإذا بها تسترجع ذلك اليوم المبارك الذى جاءت فيه إلى مكة مع نسوة من قبيلتها يلتمسن أطفال سادات قريش . إنها ترى عبد المطلب سيد قريش يقبل نحوها ويرن فى جوفها ذلك الحوار الذى دار بينهما فى ذلك اليوم :

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا امرأة من بنى سعد .

ـــ ما اسمك ؟

ـــ حليمة .

ـــ بخ بخ سعد وحلم خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد . يا حليمة إن عندى غلاما يتيما وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلنه وقلن : ما عند اليتيم من الخير ، إنما نلتمس الكرامة من الآباء . فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدى به ؟

— ألا تذرني حتى أشاور صاحبي ؟

وعادت حليمة تنظر إلى محمد ، مشرقة الوجه متفتحة النفس فتستشعر غنى فى عواطفها التى تفيض بالرضا والحب كلما رنت إلى وجه الطفل الجميل الآسر الذى سعدت به .

ورأت نفسها وهى تذهب إلى آمنة لتأخذ منها الطفل فإذا هو مدرج فى ثوب صوف أبيض وقد راح فى سبات ، فراحت تتناوله فى رفق شفقة منها أن توقظه من نومه ، ولكنه فتح عينيه فراعها حسنه فمالت عليه وقبلته بين عينيه فاستشعرت مشاعر غامضة مثيرة لم تحس مثلها من قبل ، فيا طالما قبلت ابنها الرضيع ولكنها لم تتفتح له ذاتها مثل ذلك التفتح الذى طرأ على وجدانها . وظلت حليمة فى دهشة من أمرها فما خطر لها على بال أن الله ألقى فى قلبها محبته .

ووضعت حليمة محمدا وجاءت بابنها عبد الله لترضعه فإذا بمحمد يحبو هنا وهناك ويجيء إلى كل جانب .. وشغلت حليمة عن ابنها بمراقبته فهو يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فإذا كان ابنها عبد الله أسن منه فهو لم يحب بعد .

وجاء الحارث بن عبد العزى زوج حليمة ، فلما رأى محمد انطلق إليه وحمله وراح يقبله ويضمه إلى صدره وحليمة تنظر إليهما وقد رفت على شفتيها بسمة سعيدة ، فقد راح الحب يخفق بجناحيه على الوادى كله يوم عادت من مكة بذلك الطفل المبارك .

وأقبلت أنيسة والشيماء وهرعت كل منهما إلى أبيها تريد أن تأخذ منه محمدا ، ومدت الشيماء يديها لتتناول الطفل فقد كانت أكبر من أنيسة ، فلم تجد أنيسة مفرا من أن تصيح لعلها تصل بصوتها إلى ما عجزت يداها أن تبلغه .

فابتسم الحارث لهما وراح يحاول أن يقنع أنيسة أنها أصغر من أن تحمله ، فرأت أن تبطل حجته فجلست على الأرض وطلبت من أبيها أن يضعه فى حجرها ، فأشرق الحارس بالرضا ومال بمحمد حتى وضعه فى حجر الصغيرة .

وظهر فى وجه الشيماء الاستياء ، وفطنت حليمة إلى ذلك فدعتها لتحمل أخاها عبد الله ، ولكن الشيماء أعرضت عنها وذهبت إلى حيث ترعى غنم أبيها .

ودخلت واحدة من غنيمات حليمة إلى حيث كان محمد ، فلما رآها راح يحبو إليها ويمد إليها يده ، فإذا بها تمد رأسها إليه وتلمسه فى حنان ، فبدا تعاطف مثير بينهما ، وسرت فى المكان براءة ناصعة وطهارة خافقة ورحمة دافقة ، وأفعم بحب ما بعده حب ؛ حب خالص مبرأ عن الهوى ، أنقى من الصفاء وأرق من كل ما فى الوجود من رقة ، وأسمى من كل ما فى الدنيا من سمو رفعة .

وجاء الليل ونام عبد الله وبكى محمد ، فحملته حليمة وخرجت به من دارها إلى الخلاء . كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ فى قبتها الزرقاء . وما أن رأى محمد جلال ما حوله حتى كف عن البكاء ، وراح يرنو إلى مصابيح السماء وقد ران على وجهه هدوء عجيب ، وسرعان ما غمرته سعادة لكأنما كانت روحه تمتص رحيق كنه الوجود ، ولكأنما قد ارتبطت الأسباب بينه وبين السماء .

عرفت حليمة فيه حبه لتقليب وجهه فى الكون فكانت تتركه الساعات فى النهار يمعن النظر فى شروق الشمس من خلف جبال هوازن ، وفى واديها الجديب ، وفى أرضها إذا ما أحيتها الأمطار بعد موات ومستها بعصاها

السحرية فكستها حلة سندسية زينت باليواقيت والمرجان والزبرجد وكل ألوان الثمار . وكانت تخرج به فى الليل إلى الفضاء ليرقب القمر ويرنو إلى الكواكب والنجوم ، ويصيخ السمع إلى زفرات نسيم الصبا وزئير هبوب الرياح ، فقد كان على الرغم من صغر سنه يتعاطف مع الكون ويتناسق مع ما حوله ويتهلل بالفرح كلما مد عينيه إلى الأرض الجرداء والأرض الخضراء ، وإلى السماء الصافية والسماء الملبدة بالغيوم ، وإلى ظلام الليل ، وإلى النجوم الزاهرة والكواكب الثابتة والكواكب السيارة ، وكان احتفاله بالليل عجيبا لكأنما قد خلق يرعى السماء ؛ غذاء لروحه لتقوى وتشتد وتسمو حتى تقدر على أن تتصل بما وراء الطبيعة ، بروح الوجود ، بذات الذوات .

وبلغ محمد من العمر سنتين فإذا به يغدو ويروح فى قبيلة هوازن وقد تفتحت له القلوب وبشت له الوجوه وألقى إليه الناس أسماعهم وهم فى عجب من أمره ، فقد كان يتحدث حديثا فصيحا يأخذ بمجامع الألباب ، ويشب شبابا لا يشبه الغلمان .

وذات ليلة ران على دار حليمة حزن ثقيل فقد فصلت حليمة محمد وفى الغد ستنطلق به مع زوجها إلى مكة لتعيده إلى أمه آمنة بنت وهب ، وساد الجميع وجوم فقد نزل محمد فى سويداء قلوبهم ، صار بضعة منهم وقد أحبوه حبا جما ملك عليهم كل حواسهم . وقطع السكون قول الشيماء لأمها :

— لماذا لا يمكث محمد فينا يا أمه ؟

ولزمت حليمة الصمت وقال الحارث :

— فصل محمد و لم يعد فى حاجة إلى من ترضعه .

كانت أنيسة قد سعدت بسؤال أختها وكانت ترجو أن يمكث محمد فيهم ،

فلما سمعت قول أبيها أحست أن هذه آخر ليلة تجمع بينهم وبين الطفل الحبيب ، فقامت إلى حيث كان محمد وقبلته وفى الحلق غصة وفى العينين دموع .

وآن أوان الرحيل فركبت حليمة أتانها وحملته عليها معا ، فإذا بالشيماء تأتى وتعاود تقبيله وعبراتها تجرى على خديها ، وإذا بأنيسة تقف حزينة تستشعر إحساس من فقد عزيزا وأن الوجود صار قفرا فقد سلبت منه روحه التى كانت تخفق بين جنبيه .

وسارت حليمة على أتانها ومحمد معها وانطلق الحارث إلى جوارهما وهو مطرق يتمنى لو يعود بالطفل الذى أحبه وتعلق به كل أهل بيته . وراح يسأل نفسه ، ترى أتقبل أمه أن تدعه فينا سنتين أخريين ؟

وبلغ الركب مكة ، فذهبت حليمة ومحمد فى يدها والحارث إلى جوارهما لتطوف بالبيت العتيق وتتمسح بجدران الكعبة ، وراح محمد يطوف بالحرم وهو مشدوه يتفرس فى الأصنام الكثيرة التى أقيمت حول الكعبة ، فقد كانت أول مرة يرى فيها آلهة قومه وما يجرى عندها من مراسيم وعبادات .

ودخل الحارث وحليمة ومحمد إلى جوف الكعبة ، حيث كان تمثال هبل ، ورأى الناس وهم يستقسمون بالأزلام ويضربون بالقداح و لم يفقه مما يدور حوله شيئا ، ولكنه ضاق بالزحام فجذب يد حليمة وخرج والحارث فى أثرهما .

وسار الركب الصغير إلى الصفا حيث دور بنى هاشم ، ووقف الجميع أمام دار عبد الله بن عبد المطلب ، ونزلت حليمة عن أتانها ثم حملت محمدا وتقدم الحارث يطرق باب الدار ، وما لبث أن انفرج عن بركة الحبشية جارية

عبد الله ، فلما رأت محمدا أشرق وجهها بالفرح وخطفته من حليمة فى لهفة وراحت تمطره بقبلاتها وهى تستشعر كأنما ضمت الوجود كله إلى صدرها .

وراحت بركة تهرول إلى حيث كانت سيدتها وهى تحمل ابن عبد الله الغالى وتهتف فى فرح وانفعال :

ـــ محمد جاء .. محمد جاء .

ومس صوت بركة أذنى آمنة فانتفضت من الرأس إلى القدم ، وسرت البشرى فيها تملؤها بالنشوة والفرح . ولم تستطع أن تكبح عواطفها فراحت تستبق إلى حيث كانت بركة ومحمد الحبيب قادمين .

ورأته بقلبها قبل أن تراه بعينيها ، وراح فؤادها يقفز بين جنبيها يهوى إليه . وما إن مدت بصرها إليه حتى أحست أنها قد ملكت زينة الدنيا وبهجتها وأن أهازيج النشوة قد ملأت كل الكون .

وأخذته من بركة فى رفق وضمته إلى صدرها فى حنان وراحت تقبله فى كل مكان وقد تهللت بالفرح ، واستشعرت كأن عبد الله الحبيب قد بعث من جديد وآب إليها بعد طول غياب .

ولف محمد ذراعه حول عنق أمه وهو سعيد ، واستراح للعواطف الفياضة التى غمرته بها آمنة . لقد كانت حليمة تحبه ويا طالما ضمته إلى صدرها وقبلته وفاضت عليه بحنانها، ولكن ما يحسه فى تلك اللحظة أحر من كل حب فاض عليه فى أرض هوازن ، فقد كانت مشاعر آمنة تتدفق من قلب عامر بالحب على ابنها الوحيد الذى اختطف المنون أباه قبل أن تكتحل برؤيته عيناه .

كانت آمنة سعيدة غاية السعادة راضية كل الرضا بأن محمدا قد عاد من البيداء ليؤنس وحدتها ويملأ الدار الموحشة بهجة وأملا . وقد ربت سعادتها لما

خطر على بالها أن عمه حمزة بن عبد المطلب قد آب من الصحراء ، واستقر فى حجر أمه هالة ، وأن محمدا سيجد رفيقا فى مثل سنه يشاركه لعبه ولن يصبح ابنها الحبيب وحيدا .

وجاء العباس بن عبد المطلب وكان ابن خمس سنين يزور دار آمنة ، فقد كان العباس يدور على دور بنى هاشم يلعب مع صبيان الحى ويملأ فراغ يومه ، فلما وقعت عيناه على محمد بش له وإن كان يرنو إليه فى إنكار ، فابتسمت آمنة فرحا وقالت له :

— قبل أخاك .

لقد قالت له نسوة بنى هاشم يوم أن وضعت آمنة محمدا مثل ذلك القول ولكنه نسى مقالتهن ، وراح يدنو من الطفل الجميل وهو فى حيرة من أمره ، حتى قالت له آمنة أن محمدا هو ابن أخيه عبد الله وكان يسترضع فى بنى سعد وقد عاد ليمكث فيهم ولن يغيب عنهم بعد اليوم .

وذهبت آمنة إلى حيث كانت حليمة وزوجها الحارث وراحت تحدثهما حديثا لينا يفيض رقة ، وشكرت لهما عنايتهما بابنها الحبيب ، وقدمت إلى حليمة ثمن الرعاية فاغرورقت عيناها بالدموع لأنها كانت أحرص شىء على أن يعود محمد معها إلى دارها ، فقد ملأ فؤادها واستولى على مشاعرها . ورأت حليمة أن تحتال لتعود بمحمد فقالت :

— لو تركت بُنَىَّ عندى حتى يغلُظ .

واتسعت عينا آمنة دهشا وسرى فيها خوف فقد فاجأتها حليمة بذلك القول الذى لم يخطر لها على بال ، أتريد أن تعود به حليمة و لم يمكث معها إلا يوما أو بعض يوم ؟ وفيم كانت أوبته إذا كانت حليمة تريد أن تعود به إلى

هوازن ؟ إنها سترفض ذلك العرض فى رفق وكفى ما فات ، فهو سيشب هنا فى مكة ، بين أهله وعشيرته ليأخذ مكان أبيه الذى ذهب فى عمر الورود ، وقبل أن تفتح آمنة فاها لتعتذر قالت حليمة :

ـــ فإنى أخشى عليه وباء مكة .

وباء مكة ؟ أجل وباء مكة . وخافت آمنة على ابنها الحبيب من ذلك الوباء . الخير لها أن تحتمل فراقه سنتين أخريين من أن يصاب محمد بالمرض وأن يهلك كما هلك أبوه من قبل ، واندكت كل مقاومة فى نفس آمنة وسربلها خوف على ابنها الوحيد فقالت فى صوت خافت مستسلم :

ـــ خذيه .

ولم يكن أمرا سهلا أن ينتزع محمد من أحضان أمه . إنه التصق بها لا يريد أن يفصل بينه وبينها أحد ولو كانت أمه حليمة أو كان أبوه الحارث . فلم تزل حليمة تحدثه عن أخيه عبد الله وعن أخته أنيسة وأخته الشيماء وعن الغنمات التى يحبها وجبال هوازن وسمائها حتى قبل أن يعود معها ، ليتعلم الصبر على فراق الأحبة .

وسار الحارث ومحمد وحليمة حتى خرجوا من دار آمنة وآمنة ترنو إليهم خافقة القلب دامعة العين ، فقد جاء محمد ليهيج الذكريات ويحرك العواطف ثم يذهب مخلفا فى الدار التى بدأت تنبض بالحب والحياة فراغا وجفافا ووحشة .

وكان ذلك الفراق أول حزن أحسه الطفل الصغير ، وما أكثر الأحزان التى سيتحملها صابرا صاحب القلب الكبير .

٢٧

تأهب عثمان بن الحويرث ليعود إلى مكة ليضع التاج على رأسه ويصبح ملكا على تهامة بعد أن ولاه يوسطينوس الثانى إمبراطور الروم حاكما من قبله ، ورأى أن يصلى فى كنيسة أيا صوفيا قبل مغادرة القسطنطينية تملقا لقيصر وليبارك الله له فى خطواته المقبلة .

ودخل عثمان وهو يرتدى ثيابه العربية الكنيسة الفخمة وقد أطرق برأسه تواضعا لله وإن كان الزهو يملأ قلبه ، فقد بدأ يحس خطر نفسه بعد أن صار أول ملك فى قومه ، فما عرفت تهامة الملكية يوما ، وقد كان من يلى البيت منذ مضاض بن عمرو الجرهمى يحكم الأرض المقدسة بحكم منصبه الدينى .

كانت كنيسة أيا صوفيا آية من آيات الفن البيزنطى الذى امتزج فيه الفن الأغريقى الرومانى والفن الآرامى والإيرانى امتزاجا كاملا فخلق شيئا فريدا فى بابه ، أصيلا فى نوعه ، يمجد الدولة ويمجد فى ثنايا ذلك إله المسيحية .

كانت تماثيل المسيح كما تصور الفنان البيزنطى منتشرة فى أرجاء الكنيسة ، تماثيل تستثير حدة الانفعال ، تختلف عن تماثيل اليونان التى تجلب راحة النفس وانشراح الصدر للجمال ، تعكس قسوة العذاب الذى تحمله الإله تارة ، وتنم عن الخير الإلهى تارة أخرى . وقد انتشرت فى ساحة الكنيسة القباب التى أقيمت فوق مربعات وزينت الجدران بالفسيفساء ، واستعمل الذهب فى المخطوطات المحلاة بالصور ، ونحتت التماثيل من الرخام والبرونز الملون أو المموه بالذهب ، ولا غرو فقد كانت الكنيسة تجارى الأباطرة فى الفخامة

والعظمة . فإن كان للأباطرة أنصاف الآلهة قصور وعروش وقاعات للثياب وجناح للحريم ، فلا أقل من أن يكون بيت الإله فى مثل روعة قصور أنصاف الآلهة وفخامتها .

وشغل عثمان عن إلهه بتأمل التماثيل والزخارف والتهاويل وثياب رجال الدين ، ولم يحس ربه فى ضميره بل كان بعيدا عنه بعد الصحراء التى جاء منها وبساطتها عن ذلك التعقيد فى العقود والقباب والتماثيل ، وراح يصلى ويتلو دعاءه وهو شارد لا يفقه ما تتمتم به شفتاه ، فقد كان قلبه مشغولا بالحياة الدنيا التى أقبلت عليه ، والمجد العظيم الذى ينتظره .

وغادر عثمان كنيسة أيا صوفيا وركب بغلته وسار فى الشارع الأوسط وعن يمينه وشماله الحوانيت وقد غصت بالناس ، فلم يجذب انتباهه ما يجرى فى أعظم شوارع بيزنطة ، ولم يحفل بالتماثيل الرائعة القائمة فى كل مكان . فقد كان يغذ السير ليصل إلى بوابة المدينة التى تقوده إلى طريق الشرق ، إلى مكة عاصمة ملكه المرتقب .

وراح عثمان يقطع الفيافى والقفار ، وكان فى كل خطوة يخطوها عربيا تغذى بمعتقدات العرب وإن اعتنق الدين المسيحى ، كان إذا مر بمكان موحش يعتقد أنه مأهول بالجن والأرواح فكان يحيى سكانه بقوله : « عموا ظلاما » خوفا ورهبة من الجن واستجلابا لعطفها عليه حتى لا تمس جلالته بسوء .

وإذا هبت عاصفة أو زمجرت زوبعة كان يفسر ذلك بقتال طوائف الجن ، وكان إذا رأى حية يعتقد أنه رأى بنت الجان ، فقد كان عربيا جاهليا حتى النخاع وما كان الدين الذى اعتنقه قد سرى فى وجدانه مسرى معتقدات الآباء والأجداد .

ومرت الليالى والأيام وعثمان يطوى الأرض فى طرق قوافل التجارة ويمر

بمدن الشام والحجاز ، وهو حريص على كتاب يوسطينوس إلى أهل مكة ، حتى إذا ما لاحت لعينيه جبال الوادى خفق قلبه رهبة ، وقفز إلى رأسه سؤال : ترى كيف يقابل أهل الحر م أمر توليته ملكا عليهم ؟ وانتابه قلق وسرعان ما راح يقتل ذلك الاضطراب الذى لفه بأن يؤكد لنفسه أن ليس هناك بين المكيين من يجرؤ على رفض قرار أصدره إمبراطور الروم المبجل العظيم .

كانت مكة تمارس نشاطها التجارى ، يغدو ويروح فيها تجار من الشام والروم والفرس واليمن ومن كل مكان ، شاركوا المكيين فى سكناهم وتحالفوا مع أثريائهم ، وكان تجار الشام خاصة يجلبون القمح والزيت والخمور الجيدة إلى تجار مكة . وكان عبد الله بن جدعان والوليد بن المغيرة المخزومى وأثرياء مكة يقرضون الناس بالربا الفاحش ويمولون قوافل التجارة ويجنون الأرباح الطائلة .

وكانت مكة تمارس نشاطها الدينى يطوف أهلها بالبيت العتيق ويتمسحون بالأصنام ، وكان بعضها منحوتا من الحجارة وبعضها معمولا من النحاس وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة من قوارير صفر ، ولم يتقرب المكيون إلى تلك الاصنام على أنها حجارة لا تضر ولا تنفع بل كانوا يعتقدون بحلول أرواح بتلك الأصنام ذات قوة فعالة خفية ، تطرد الخبائث عن عبادها وتجلب لهم الخير والبركات .

وكانت مكة تمارس حرياتها حتى أفلت الزمام وانقلبت الحرية إلى فوضى مدمرة تهدد الكيان المكى وتشتت الجماعات وتضعف الروابط بين الناس ، تلك الروابط التى تمكن من قيام مجتمع مدنى قادر على أن ينهض بأهله ليكون لهم حضارة بين الحضارات .

وتقدم عثمان بن الحويرث وقد لبس الحلة التى خلعها عليه إمبراطور الروم وركب بغلته وقد وضع عليها السرج المموه بالذهب وفى يده رسالة قيصر إلى أهل مكة وقد ختمها بالذهب . وما إن وقعت عيناه على الكعبة حتى تقاصرت نفسه وطافت به موجة من الرهبة وزاغت نظراته واستشعر جفافا فى حلقه واضطرابا يسرى فيه من الرأس إلى القدم .

ونزل عثمان عن بغلته وراح وهو المسيحى يطوف بالبيت العتيق مع المشركين والصابئين والحنفاء ، فقد كان الجميع يؤمنون أن البيت أول بيت وضع للناس ، وأن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما القواعد من البيت كما أمرهما بذلك رب الناس أجمعين .

وانتهى عثمان من طوافه و لم يستطع أن يصبر على ما جاء به ، فقام فى الحرم وقال :

— يا قوم . يا قوم .

فذهب الناس إليه وأعاروه سمعهم فقال :

— يا قوم ، إن قيصر من قد علمتم أموالكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم . وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من القرط والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه .

وساد القوم وجوم ، وقدم عثمان كتاب قيصر وقد ختم بالذهب ، وما إن قرئ الكتاب على الناس حتى نزل بقلوبهم هم ثقيل ، فقد كتب عليهم أن يؤدوا الجزية إلى قيصر عن يد وهم صاغرون .

واجتمع سادات قريش فى دار الندوة ، عقد أشراف القوم اجتماعات فى

الكعبة وفى الدور ، ودارت المناقشات حول ما جاءهم به عثمان بن الحويرث فخاف أهل مكة قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكر عثمان من متجرهم ، فاجتمعوا على أن يعقدوا على رأس عثمان بن الحويرث التاج .

وبينا كانت قريش على أحفل ما تكون من الطواف ، جاء أبو زمعة الأسود ابن المطلب بن أسد ابن عم عثمان وقام فى الكعبة وقال :

— يا قوم .. يا قوم .

وهرع الناس إلى أبى زمعة فإذا الغضب فى وجهه قد زوى ما بين حاجبيه وقد لاح عليه قوة وعزم ، وألقوا إليه أسماعهم فقال فى إنكار :

— عباد الله ، ملك بتهامة ؟!

وفهمها الناس فما كان فى تهامة ملك من قبل ، وما جاء به عثمان إن هو إلا بدعة ابتدعها يريد أن يذهلهم بها ليصبح ملكا عليهم ، فانحاش الناس انحياش حمر الوحش ، وماج بعضهم فى بعض وثاروا لكرامتهم وحريتهم وقالوا فى غضب :

— صدقت . واللات والعزى ما كان بتهامة ملك قط .

فصاح أبو زمعة صيحة تجاوبت فى أرجاء مكة :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

ونقض الناس ما كانوا عاهدوا الحويرث عليه ، فسار ابن الحويرث إلى داره مطاطئ الرأس وقد ملأ الحنق جوانبه ، يرن فى أعماقه صوت ابن عمه أبى زمعة الأسود :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

٢٨

رجعت حليمة بمحمد إلى أرض هوازن وقلبها يرقص طربا بين جنبيها فقد كانت حريصة على أن تعود به بعد أن أحبته بكل جوارحها ، وكان الحارث سعيدا بأوبته لما كان يرى من بركته فقد صار التوفيق حليفهم مذ ذهبوا إلى مكة يلتمسون الرضعاء وعادوا بمحمد .

ورأت الشيماء رجوع أبويها فى رفقتهما أخوها الحبيب فصاحت صيحة فرح تجاوبت لها جبال هوازن ، وهرعت إليهم فخطفت محمدا من أمها وراحت تضمه إلى صدرها الذى كان يخفق بالنشوة والحب والحنان .

عاد محمد إلى البيداء إلى معبد الله الواسع العريض ، يرقب نجوم السماء ويرصد اختلاف الليل والنهار ويشاهد كل صباح ومساء شروق الشمس وغروبها وسريان النسيم وهبوب الرياح ليتعاطف مع الكون ويتناسق مع الوجود ، وليومض فى قلبه فيض روحى يمكنه من الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تسرى فى الوجود .

وراح محمد يغدو ويروح فى بنى سعد يرحب به الناس ، فقد ألقيت محبته فى قلوبهم . وكان الصبيان يفرحون به إذا ما شاركهم رمى السهام فهو يتجنبهم فى لعبهم ويؤثر أن يقلب وجهه فى السماء ، وما كان يسارع إليهم إلا إذا ما شدوا الأقواس ليرموا السهام فقد كانت الرماية لعبته المفضلة .

وذات يوم خرج ينقب عن إخوته فلم يجد منهم أحدا . فعاد إلى حليمة وقال :

ــ يا أماه مالى لا أرى إخوتى بالنهار ؟

فابتسمت حليمة وقالت له فى حب :

ــ فدتك نفسى ، إنهم يرعون غنما لنا فيروحون من ليل إلى ليل .

فقال فى رجاء :

ــ ابعثينى معهم .

كان منذ نعومة أظفاره بضيق بالفراغ ، فما ولى الليل ووافى خروج أبناء الحارث لرعى الغنم حتى خرج معهم مسرورا يحنو على الخراف ويمرر يده فى حنان على الماعز فتتحرك مشاعر الحب فى قلبه ، ويمد بصره إلى المراعى الخضر ، ويصيخ سمعه إلى همسات الليل ويقلب وجهه فى السماء ، ويهرع فى فرح إلى عيون الماء والآبار ، فيثرى فؤاده بكنوزه من المحبة ، وتتفتق براعم نفسه عن بعض أسرار الكون ، وتقوى روحه وتشتد أجنحتها لتسمو إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوق السموات .

وظل محمد يرعى الغنم ، يخرج مسرورا ويعود مسرورا ، ينسكب فى ضميره الحب والرحمة والحنان ويتعلم الوفاق بينه وبين الوجود على مر الأيام ، فقد هيأ له ربه فرصة رعاية الغنم ليتدرب على رعاية الناس ؛ فراعى الغنم سيصبح عما قريب راعى الشعوب ورحمة البشر .

وخرج محمد وعبد الله يوما وانطلقا إلى الجبل ، ووقف الصبيان ينظران إلى ارتفاعه فى دهش ، ولم يخطر على بال عبد الله أن يرقى فيه بينما عقد محمد العزم على أن يصعد فيه حتى يقعد على ذروته ، وما لبث أن تقدم وراح يمشى على سفحه بخطى ثابتة وعبد الله يصيح به فى هلع يلتمس منه أن يعود .

واستمر محمد فى صعوده وقد تهلل بالفرح ، حتى إذا ما بلغ منتهاه قعد على ذروة الجبل وراح يتلفت ، فإذا بالوهاد والوديان منبسطة تحت أقدامه ، وإذا

بكل شيء خاشع كأنما قد سجد فى محراب الله ، وإذا بأصوات رياح تتجاوب فى المكان كأنما يد ماهرة تعزف على قيثارة الإيمان ، وملأ جلال الكون نفس الصبى فشخص ببصره إلى السماء ، فاستشعر كأن فيضا من النور يغمر فؤاده .

ورأى عبد الله محمدا وقد استقر على ذروة الجبل فسرى الخوف فيه ، ثم راح يعدو إلى حيث كان أبواه وهو يقول فى فزع :

— أخى القرشى .. أخى القرشى .

وذهب الحارث وحليمة إلى ابنهما وقالا له :

— ماذا به ؟

— هناك على ذروة الجبل .

وراح الحارث وحليمة يعدوان حتى إذا ما بلغا الجبل راحا يصعدان فيه وقد اشتد وجيب قلبيهما ، كانا يخشيان أن يهوى محمد من فوقه قبل أن يبلغاه ، واستمرا يرقيان فى حذر شديد حتى إذا ما وصلا إلى حيث كان وجداه هادئا ساكنا شاخصا ببصره إلى السماء وقد لفه هدوء عجيب ولاح فى وجهه أمن وسلام .

والتفت الحارث إلى حليمة فى دهش فقد توجت شفتى الصبى بسمة رقيقة عذبة وما عرف الخوف طريقه إلى قلبه ، ومالت حليمة وأخذت محمدا من يده وراحت تهبط فى الجبل والحارث من خلفهما يمد يده ليسند حليمة كلما تأرجحت على سفح الجبل .

وخلا الحارث بحليمة وقال لها :

— رديه على جده واخرجى من أمانته .

كان الحارث يخشى أن يصيب محمدا مكروه بعد أن عرف كيف يشتد فى

الجبل ولما يبلغ الخامسة من عمره ، وكان يرى أن خير ما تفعله حليمة أن تعيده إلى أمه قبل أن تدك عنقه ، وكانت حليمة تميل إلى أن يبقى ابنها معها ولكنها خشيت هلاكه فوافقت الحارث على رأيه .

وخرج الحارث وحليمة ومحمد يريدون مكة وقد أشرف موسم الحج وامتلأت السبل بالحجاج ، واستمروا فى سيرهم حتى بلغوا سوق ذى المجاز فنزلوا يجوسون خلال السوق ، وإذا بعراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليه فقدمت حليمة إليه محمدا ، فلما نظر إليه صاح :

ــ يا معشر العرب ، اقتلوا هذا الصبى ، فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم .

فزاغت به حليمة عن الطريق فى الوقت الذى اجتمع فيه الناس إلى العراف يسألونه :

ــ ماذا بك ؟

ــ اقتلوا هذا الصبى ؟

ــ أى صبى ؟ .

ــ هذا الصبى .

فراح الناس يتلفتون فلا يرون شيئا وصوت العراف يرن فى آذانهم :

ــ رأيت غلاما والآلهة ليقتلن أهل دينكم وليكسرى آلهتكم وليظهرن أمره عليكم .

وتفرق الناس فى السوق يطلبونه ولكنهم لم يجدوه ، فقد كان ينطلق إلى مكة فى رفقة حليمة والحارث فى رعاية الله ، حتى إذا ما بلغوا أعلى مكة تلفتت حليمة فلم تجده فتملكها فزع شديد وراحت تجرى هنا وهناك وتناديه ، والحارث يبحث عنه بين الناس الذين جاءوا من كل فج عميق ليؤدوا مناسك

الحج . وانبهرت أنفاس حليمة وتفصد العرق من الحارث والتقى الزوجان بعد أن يئسا من العثور عليه ، فاتفقا على أن ينطلقا إلى جده عبد المطلب ليبعث من يبحث عنه .

كان عبد المطلب جالسا على فراشه فى ظل الكعبة وقد جلس عنده ورقة بن نوفل وأبو جهل وزيد بن عمرو بن نفيل وبعض سادات قريش . وقد وقعت عيناه على حليمة والحارث وهما يتقدمان إليه فى خطى مضطربة دون أن يكون معهما حفيده الحبيب ، وقرأ فى وجهيها القلق والحيرة فمشى الخوف إلى صدره وقال لحليمة :

— ما وراءك ؟

فقالت حليمة وقد نكست رأسها وغلفت صوتها رنة أسى :

— إنى قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعالى مكة أضلنى فوالله ما أدرى أين هو .

أضلته فى أعالى مكة ؟ أضلته فى ذلك الوقت الذى يأتى فيه الحجاج على كل ضامر من كل فج عميق ؟ وارتسم الهلع على وجه عبد المطلب فإن ضاع محمد ماتت آمنة كمدا وتجددت أحزان بنى هاشم على عبد الله فتى قريش الذبيح ، تلك الأحزان التى دثرها بغلالة من الفرح مولد ابن عبد الله الضال .

وهب الرجال على رواحلهم لينطلقوا إلى أعالى مكة وقد ضجوا لضياع محمد ، وقد سرى فى صدورهم خوف وقلق على الصبى وشفقة على عبد المطلب الذى تعلق بأستار الكعبة وراح يبتهل إلى ربه أن يرد ولده وقد بللت الدموع عينيه .

خاف القوم على الصبى الذى جعل الله كيد أصحاب الفيل فى تضليل ،

وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، ليحفظه من معرة جيش أبرهة . وخافوا على قريش ونزل بهم هم ثقيل خشية أن تتجدد أحزان بنى هاشم ، وما دار بخلد أحدهم عظم النكسة التى كانت تصيب البشرية لو أن محمد بن عبد الله قد ضاع فى تلك الليلة .

التذييل

كانت العرب فى الجاهلية على صلة بالفرس والروم واليمن ومصر وكل دول الأرض فى ذلك الزمن ، ولم يكن العرب مستقرين فى جزيرتهم لا صلة بينهم وبين العالم الخارجى كما كان يظن الإخباريون والمؤرخون الإسلاميون الذين دونوا تاريخ العرب فى الجاهلية ، وقبل مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد كانوا أهل حضارة وقد عرفوا اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية والحنيفية وكل ديانات الشعوب . وقد هجر بعضهم دين الآباء واعتنقوا اليهودية أو النصرانية ، وراح بعضهم يبحث عن الحنيفية الحقة دين إبراهيم ، وظل أغلبهم على عبادة ما كان آباؤه يعبدون .

ويطلق لفظ الجاهلية على حال العرب التى كانوا عليها قبل الإسلام لما كانوا عليه من مزيد الجهل فى كثير من الأعمال والأحكام ، يقتلون أولادهم سفها بغير علم ، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

وقيل إن الجاهلية هى أيام الفترة وهى الزمن بين الرسولين ، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقا ، وعلى ما قبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبى والمبعث . وعن ابن خالوية : إن هذا اللفظ اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة .

ولفظ الجاهلية قد يكون اسما للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة . كقول النبى ﷺ لأبى ذر : إنك أمرؤ فيك جاهلية . وقول عمر رضى الله

تعالى عنه : إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة . وقول عائشة رضى الله عنها : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء . وقولهم : يا رسول الله كنا فى جاهلية وشر . فإن الجاهلية وإن كانت فى الأصل صفة ولكن غلب على لفظها الاستعمال حتى صار اسما ومعناه قريب من معنى المصدر .

وقد يكون لفظ الجاهلية اسما لذى الحال ، فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهلى ، وذلك نسبة إلى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم ، كقوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . وكقوله ﷺ (إذا كان أحدكم صائما فلا يرفُثْ ولا يجهل) .

كل من عمل سوءا فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، فالعلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل ، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه . وكل ما يخالف ما جاء به المرسلون فهو جاهلية ، وتلك كانت الجاهلية العامة ، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مصر دون مصر ، وقد تكون فى شخص دون شخص . كالرجل قبل أن يسلم فإنه فى جاهلية ، فأما فى زمان مطلقا فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة .

وقد تقوم الجاهلية المقيدة فى بعض ديار المسلمين وفى كثير من الأشخاص المسلمين ، كما قال ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة .

وقد اختلف المفسرون فى المراد من أهل الجاهلية الأولى فى قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » . فقيل : كانت فى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، فقد كانت المرأة تلبس الدرع من

اللؤلؤ فتمشى فى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقيل : كانت بين آدم ونوح وحكيت لهم سيرة ذميمة . وقيل ما بين نوح وإدريس وقيل ما بين نوح وإبراهيم ، قيل إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى ومحمد ﷺ . وقال أبو العالية هى زمان داود وسليمان عليهما السلام ، كان للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين ، وكان النساء يظهرن ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخلّها فينفرد خلُّها بما فوق الإزار وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كان النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه تعالى أشار للجاهلية التي أدركتها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لأنهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبه ، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى ، وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التى قبل الإسلام .

وكان التضارب فى الروايات هو سمة الإخباريين المسلمين الذين دونوا تاريخ مولد الرسول ، كما كانت الصفة الغالبة لرواياتهم على الدوام . فعن ابن إسحاق لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفى وأم رسول ﷺ حامل به ، وقيل إن موت والده كان بعد أن تم لها من حملها شهران ، وقيل قبل ولادته بشهرين ، وقيل كان فى المهد حين توفى أبوه ابن شهرين ، وقيل كان ابن تسعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية عشر شهرا ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا . ولما كانت عادة العرب أن يدفعوا مواليدهم إلى المراضع فى اليوم الثامن من مولدهم ، ولما كانت المراضع قد أبته ليتمه ، فقد اعتمدت الرأى القائل بأن

أباه مات قبل ولادته بشهرين .

وقد تضاربت أقوالهم فى السنة التى هاجم فيها أصحاب الفيل مكة ، فقيل فى السنة التى ولد فيها الرسول ﷺ ، وقيل قبل مولده بخمس وعشرين سنة ، وقيل بخمس عشرة سنة ، وقيل بعد مولده بخمس عشرة سنة ، ولما كان الرسول ﷺ قد ولد فى سنة ٥٧٠ من مولد المسيح ، ولما كان أبرهة قد عاد إلى اليمن بعد أن أصيب جيشه بالجدرى أثناء حصار مكة فى نفس السنة ، فقد أخذت بالرأى القائل أن رسول ﷺ قد ولد فى عام الفيل .

وقد كتب الإخباريون الإسلاميون تاريخ مولد الرسول بعد أن انتشر الإسلام وآمنوا بالدين الذى جاءهم به محمد ﷺ ، فكتبوا تاريخ هذه الحقبة بأقلام مفتونة بعظمة ذلك الوليد الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، فأكثروا من ذكر البشارات والإرهاصات بمولده ، وبالغوا فى بعضها حتى بدا كأن الغيب قد أصبح فى تلك الفترة من الزمن كتابا مفتوحا ، فقد قيل فى رواية عن أمه أنها قالت : لما خرج من بطنى نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع المبتهل ، وروى أنه قبض قبضة من تراب وأهوى ساجدا ، فبلغ ذلك رجلا من بنى لهب فقال لصاحبه : لئن صدق هذا الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض . وروى ابن سعد فى طبقاته الكبرى أن رسول الله ﷺ قال : رأت أمى حين وضعتنى سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى . وروى السهيلى عن الواقدى . أنه ﷺ لما ولد تكلم فقال : جلال ربى الرفيع . وعن كعب الأخبار وكان على دين اليهودية قبل الإسلام : إنى أجد فى التوارة « عبدى أحمد المختار مولده بمكة » .

وقيل : كان بمر الظهران راهب من أهل الشام يدعى عيص وقد كان آتاه الله علما كثيرا ، وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول :

يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب وتخضع ويملك العجم هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته . فكان لا يولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول : ما جاء بعد . فلما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف على أصل صومعته ، فنادى فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد المطلب . ما ترى عليه ؟ فقال : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه وأن نجمه طلع البارحة ، وعلامة ذلك أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثا ثم يعافى . فاحتفظ لسانك فإنه لم يحسد حسده أحد . ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه . قال : فما عمره ؟ قال : إن طال عمره لم يبلغ السبعين ، يموت فى وتر دونها فى إحدى وستين أو ثلاث وستين .

وقال الجلال السيوطى فى خصائصه الصغرى : إن من خصائصه ﷺ تنكيس الأصنام لمولده . وعن عبد المطلب قال : كنت فى الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت سجدا ، وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول : ولد المصطفى المختار ، الذى تهلك بيده الكفار ، ويطهر من عبادة الأصنام ، ويأمر بعبادة الملك العلام .

وقال الإمام الماوردى فى « أعلام النبوة » بعد أن ذكر وفود عبد المطلب على سيف بن ذى يزن . قال سيف : يا عبد المطلب إنى مفض إليك عن سر علمى ما لو كان غيرك لم أبح له . ولكن رأيتك معَدِنه وأطلعتك عليه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه . فإن الله بالغ فيه أمره . إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة . قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سرَّ

وبر ، فما هو فداك أهل الوبر ، زمرا بعد زمر ؟ . قال : إذا ولد بتهامة ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به زعامة ، إلى يوم القيامة . فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما أتى بمثله وافد ، فلولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياى ما أزداد به سرورا . قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذى يولد فيه أو قد يولد ، اسمه أحمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد ولدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل منا له أنصارا . يعز بهم أولياؤه ويذل بهم أعداؤه . يضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض . تكسر الأوثان ، وتخمد النيران ، ويعبد الرحمن . ويدحر الشيطان . قوله فصل ، وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر . قال عبد المطلب : أيها الملك عز جدك ، وعلا عقبك ، وطاب ملكك . وطال عمرك . فهل الملك سارّى بإفصاح ، فقد أوضح بعض الإيضاح ؟ فقال ابن ذى يزن : والبيت ذى الحجب ، والعاملات على النصب ، إنك يا عبد المطلب ، لجده غير الكذب . فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ابن ذى يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟ فقال : نعم أيها الملك كان لى ابن وكنت به معجبا رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فأتت بغلام سميته محمدا ، مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه ، بين كتفيه شامة ، وفيه كما ذكرت من علامة . قال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن يداخلهم النفاسة ، من أن تكون لك الرياسة ، فيبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل . وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن

الموت يجتاحنى قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق . أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره ولولا أنى أقيه الآيات ، وأحذر عليه العاهات ، لأعلنت على حداثة سنه ذكره ، وأوطيت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك إليك ، بغير تقصير ممن معك .

وقيل إن ليلة ولادته ﷺ تزلزلت الكعبة و لم تسكن ثلاثة أيام بلياليهن ، وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولد النبى ﷺ ، وارتجس أيوان كسرى وسمع لشقة صوت هائل ، وسقط من ذلك الإيوان أربع عشرة شرفة . وأنه صار تلك الليلة كل واحد من بيوت نار فارس التى كانوا يعبدونها خامدة نيراته ، وغور ماء عيون الفرس فى الأرض حتى لم يبق منها قطرة . ورأى كسرى ما هاله وأفزعه . فلما أصبح تصبر ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال . أتدرون فيما بعثت إليكم ؟ قالوا لا إلا أن يخبرنا الملك . فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، وكتاب من صاحب إيليا يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب الشام يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب طبرية يخبره بأن الماء لم يجر فى بحيرة طبرية . فازداد غما إلى غم ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله ، فقال الموبذان : فأنا أصلح الله الملك قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ، رأيت إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها . فقال كسرى : أى شيء يكون هذا يا موبذان ؟ قال : حدث يكون فى ناحية العرب ، فابعث إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان .

فكتب كسرى عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر . أما بعد فوجه إلىَّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه . فوجه إليه بعبد المسيح الغسانى وهو معدود من المعمرين عاش مائة وخمسين سنة.فلما ورد عليه قال : لك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : ليسألنى الملك عما أحب ، فإن كان عندى علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه .

فأخبره بالذى وجه إليه فيه ، قال : علم ذلك عند خالى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح . قال : فأته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره .

فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح ، وعمره إذا ذاك ثلاثمائة سنة ، وكان جسدا ملقى لا جوارح فيه ، وكان لا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب فإنه ينتفخ فيجلس ، وكان وجهه فى صدره ولم يكن له رأس ولا عنق ، ولم يتحرك منه إلا اللسان ، فقال سطيح : جاء عبد المسيح ، على جمل مشيح (سريع) ، إلى سطيح ، وقد وافى على الضريح (الموت) . بعثك ملك ساسان ، لارتجاس الإيوان . وخمود النيران . ورؤيا الموبذان . رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها . يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه .

رأى الكتاب المحدثون ما فى هذه الأخبار والأحاديث من وضع ظاهر لا يحتاج إلى تمحيص لتبيان زيفه ، فرفضوا كل ما يتعلق بالبشارات والإرهاصات بمولد النبى ﷺ ، وأنكروا كل المعجزات ، حتى أحلام الآباء والأمهات رفضوها ، ولعل ذلك الرفض مرده خشيتهم من فرويد الذى يأبى أن يعترف

بالرؤيا الصادقة ، ويرد كل الأحلام إلى الغريزة الجنسية ، كأنما قد استحالت نظرية فرويد التى تؤكد أن الحياة كلها جنس ومنبثقة من خلال الجنس ، إلى دين يطرد من حظيرة الإيمان كل من يمس قدسيتها .

وعندى أن الفريقين قد جانبهما التوفيق ، الفريق الذى دفعه حبه لنبيه إلى وضع أخبار وأحاديث تروى الخوارق والمعجزات التى وقعت عند مولد محمد ﷺ قد أساء إلى سيرة النبى العظيم ، فليس من المعقول ولا من المقبول أن الأمر كان بمثل ذلك الوضوح ، فالاختراع ظاهر يدمغ أغلب الروايات بالكذب والتلفيق ، وما كانت تلك الخوارق والمعجزات لتزيد الإنسان الكامل شرفا على شرف . والفريق الذى دفعه خوفه من دعاة العلم الحديث إلى إنكار البشارات والأحلام قد أساء إلى نفسه ، فالقرآن الكريم يؤكد أن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا على علم بمبعث النبى الأمى الذى سيبعثه الله فى الأميين لا فى بنى إسرائيل : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوارة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

كان أهل الكتاب من يهود ونصارى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وقد ادعى بعض الذين جاءوا بعد المسيح من الأنبياء الكذبة أنهم « الفراقليط » الذى بشر به المسيح . وقد بذلت كل جهد فى الأجزاء السابقة أن أوضح البشارات التى جاءت فى التوراة والإنجيل ونبوءات زرادشت وساسان ، وقد

أوردت فى هذا الجزء من السيرة بعض نبوءات الكهان والرهبان والأحبار ، وإنى لا أستطيع أن أجزم بصحتها ولا أملك أن أكذبها ، ولكنى سردتها توكيدا لإيمانى بما أشار به القرآن الكريم من أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم

وأنكر بعض الكتاب المحدثين رؤيا عبد المطلب ورؤيا آمنه التى بشرت فيها بأنها قد حملت بسيد هذه الأمة ، وكل الرؤى المتنبئة لأن فرويد قد لقنهم الرؤى الصادقة ، فكيف يرى الإنسان رؤيا صادقة إذا كانت الغريزة الجنسية هى مصدر كل الأحلام ؟

كان هم فرويد تلويث الدين والأخلاق : إن التسامى نوع من الشذوذ (١) ، وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى درجتها الطبيعية العادية ، وإن الأساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن (المسيح) فى قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه ، ولكن أصبح إلهًا مكان أبيه ! وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية ! وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسى ، والكبت الجنسى خطر على الكيان النفسى والعصبى لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات .

كان فرويد فى خدمة صهيون ، وقد جاء فى كتاب برتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا .. إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

---

(١) The Contributions to Sexual Theory.

هذا هو فرويد الذى يرتجف منه كتّابنا المحدثون ويخشون أن يقروا بإمكان وقوع الرؤيا الصادقة بين البشر ، ما دام فرويد قد لقنهم أن حياة الإنسان حياة حيوانية بحتة ، فغرائزه هى التى تحكمه وهى التى تسيطر على كل نشاطه ، والجانب المسمى « الروح » لا وجود له على الإطلاق .

إن القرآن الكريم يؤكد وقوع الرؤيا الصادقة ، وسورة يوسف كلها تأكيد للرؤيا وتأويل الأحاديث ، وواقع الناس جميعا يؤكد هذه الحقيقة على الرغم من محاولة فرويد فى كل نظريته إنكار ذلك الجانب فى البشر ، وقد أوردت الرؤى التى رآها الملوك والكهان وعبد المطلب وآمنة ، وأوردت تأويل تلك الرؤى ، فمن حق آمنة أن تحلم وأن ترى ابنها سيدا لقومه فذلك حق كل أنثى ، وما أحسب أن أما على وجه الأرض لم تحلم بمستقبل مشرق لابنها الحبيب .

كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة من غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له ، وقد أخذت حليمة محمدا ﷺ . ويروى رواة السيرة حديث حليمة قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل ثدياى بما شاء الله من لبن فشرب حتى روى ، وعرضت عليه الأيسر فأباه وكانت تلك حالته بعد ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، فقام زوجى إلى شارفنا فإذا هى لحافل (أى ممتلئة الضرع من اللبن) فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة. يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة . قلت : والله إنى لأرجو ذلك . ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته ﷺ معى عليها ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهن حتى إن صواحبى يقلن لى : يا بنت أبى ذؤيب ويحك أربعى

(ارفقى) ، أليس هذا أتانك التى كنت خرجت عليها تخفضك طورا وترفعك أخرى . فأقول لهن : بلى والله إنها لهى ، فيقلن والله إن لها لشأنا . ثم قدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضا من أراضى الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، حتى كان الحاضر فى المنازل من قومنا يقول لرعاتهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نعرف من الله تعالى زيادة الخير حتى مضت سنتان وفصلته .

و لم أسرد هذه الأحداث فى السيرة لأنها ليست ذات أثر فى حياة الرسول ، فقبيلة هوازن التى رضع فيها لم تؤمن به إلا بعد فتح مكة وبعد أن نشبت بين المسلمين وبين هوازن حرب يوم حنين كادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا ثبات الرسول ﷺ ، فلو أن القبيلة كانت قد أسلمت بفضل بركته ﷺ أيام كان يسترضع فى بنى سعد لكان لمثل هذه الأحداث أثر بارز فى السيرة ، أما وأن الله تبارك وتعالى قد كتب على نبيه الكفاح والجهاد والصبر ليبلغ رسالات ربه ، وليمكن لدينه فى الأرض ، فلم يعد لتلك الروايات مكان فى سيرة رجل نشر دين الله بالعرق والجهد والعمل والقدوة الحسنة .

إن الله قادر على أن يحتفل بمولد رسوله الكريم ، وهو قادر على أن يغمر الأرض ببركته وأن يملأها خيرا ، ولكن الله أراد أن يضرب لرسوله ﷺ المثل للناس وأن يعلمهم أن الأهداف الكبيرة لا يمكن الوصول إليها بالخوارق والمعجزات بل بالعمل الجاد الذى يراد به وجه الله الكريم : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

وفى أثناء وجوده ﷺ فى منازل بنى سعد روى الرواة حديث شق

الصدر ، قالت حليمة : « فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه فى بُهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتى أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أى يدخلان يديهما فى بطنه) . فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه (لون النقع) ، فالتزمته والتزمه أبوك فقلنا : مالك يا بنى ؟ فقال ﷺ : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو . قال : نعم ، فأقبلا يبتدرانى فأخذانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا فوجداه ، فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو .

هذه رواية ، وفى رواية أخرى أن ابن حليمة أتى يعدو فزعا وجبينه يرشح باكيا ينادى : يا أبت ويا أمه ، الحقا أخى محمدا فما تلحقانه إلا ميتا ، قلت : وما قضيته ؟ قال : بينما نحن قيام إذ أتاه رجل فاختطفه من وسطنا وعلا به ذروة الجبل ونحن ننظر إليه ، حتى شق صدره إلى عانته ، ولا أدرى ما فعل به . فانطلقت أنا وأبوه نسعى سعيا فإذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل شاخصا ببصره إلى السماء يبتسم ويضحك ، فأقبلت عليه وقبلته بين عينيه وقلت له : فدتك نفسى ما الذى دهاك ؟ قال : خيرا يا أماه ، بينا أنا الساعة قائم إذ أتانى ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة وفى الآخر طست من زمردة خضراء ، فأخذونى وانطلقوا بى إلى ذروة الجبل فأضجعونى على الجبل إضجاعا لطيفا .. » .

وفى رواية ثالثة عنه ﷺ : « فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، وقيل : هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله » .

وفى رواية رابعة عن رسول ﷺ ، « كنت مسترضعا فى بنى سعد ، فبينا

أنا ذات يوم منتبذا من أهلى فى بطن واد مع أتراب من الصبيان ، إذا أتى رهط من ثلاثة معهم طست من ذهب ملآن ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى فخرج أصحابى هربا حتى أتوا على شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أربكم إلى هذا الغلام ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم أن يفيد كم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فإن كنتم لا بد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يجيبون جوابا انطلقوا هربا مسرعين إلى الحى يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم إلى فأضجعنى على الأرض إضجاعا لطيفا ، ثم شق بطنى ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه ، فلم أجد لذلك مسا ، واستخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قال الثانى منهم لصاحبه : تنح عنه فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء ثم رمى بها .. » .

وفى رواية عن الرسول ﷺ أنه عند ابتداء الوحى : « جاءنى جبريل وميكائيل فأخذنى جبريل وألقانى لحلاوة القفا ، ثم شق عن قلبى فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج ، ثم غسله فى طست من ماء زمزم ، ثم أعاده إلى مكانه ثم لأمه ، ثم أكفانى كما يكفى الإناء ثم ختم فى ظهرى » .

ولم أشر فى السيرة إلى حادثة شق الصدر أو البطن . لا لاضطراب الروايات فحسب بل لأنى أعتقد أن الله ليس فى حاجة إلى إجراء عملية جراحية ليطهر نبيه وليملأه حكمة ، وأعتقد أن كل ما جاء عن شق الصدر قد وضع بعد صدر الإسلام ، عندما أراد الشراح شرح الآية الكريمة : « ألم نشرح لك صدرك » فقد بعد الشراح عن روح القرآن وروحانيته ولجئوا إلى الماديات

المحسوسة لتفسير معانى روحية سامية ، فابتدعوا روايات متنافرة لا يقبلها العقل ولا المنطق ولا الذوق السليم ، فمن ذا الذى يستطيع أن يصدق أن ملاكين قد هبطا ليطهرا قلب النبى ﷺ فلا يعرفانه ، فيقول أحدهما : أهو هو ؟ فيقول الآخر : نعم . وكيف يريد منا واضعو هذه الأحاديث أن نصدق أن الرسول ﷺ قال مرة : جاءنى رجلان ، وقال مرة أخرى : جاءنى نسران . وقال مرة ثالثة : جاءنى رجلان رهط من ثلاثة ؟ وكيف يريد واضعو هذه الأحاديث أن نصدق أن أطفالا صغارا يقولون للملائكة : ... فإن كنتم لا بد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه . يالله ! أهؤلاء صبية يلعبون أم أتباع محمد ﷺ بعد أن آمنوا به وصدقوه ؟!

ومتى وقعت حادثة شق البطن أو الصدر ؟ أوقعت فى أرض هوازن أم وقعت فى مكة قبل البعث ؟ وبماذا كان التطهير أبالثلج أم بماء زمزم ؟ إن هذه الحادثة لم تقع إلا فى مخيلة واضعى هذه الأحاديث .

قررت فى تذييلات الأجزاء السابقة أن آدم كان على علم وأن الأصل فى الدين عبادة الله وحده ، وأن الأساطير والشرك بالله وعبادة الشمس والقمر والأصنام والأوثان عرفتها البشرية لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، وأن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل للقضاء على تلك الأساطير وإعادة جوهر التوحيد . ولو تتبعنا أسماء العرب منذ إبراهيم الخليل عليه السلام إلى مبعث محمد ﷺ لوضحت لنا هذه الحقيقة ، فإله إبراهيم كان يعرف بالإيل وقد نسب إليه إسماعيل وإسرائيل . وكانت أسماء العرب الموحدين تنسب إليه وأشهر تلك الأسماء « إلشرح » وأصلها « إيل شرح » وإليفع « إيل يفع » وإلكرب « إيل كرب » وإلسمع « إيل سمع » ، فلما طال على الناس العهد

واتخذوا آلهة غير إله أبيهم إبراهيم سموا أبناءهم بأسماء تلك الآلهة : « تيم اللات » و « زيد اللات » و « امرؤ مناة » و « امرؤ القيس » و « زيد مناة » و « عبد عوف » و « عبد ود » وإن اتجاه هذه الأسماء ليؤكد الحقيقة التى سبق أن قررتها من أن الإنسان كان على علم وأنه كان يعرف الله وحده لا شريك له ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم وأشركوا بربهم ، وأن الإنسان لا يترق فى الديانات كما يترق فى العلوم ، كما قال كتاب من المسلمين تأثروا بآراء غربية وثنية .

والجاهليون [١] كانوا يعتقدون بوجود إله واحد أعلى ، خلق هذا الكون ، لذلك توجهوا إليه وأقسموا به . ونجد لهذا الرأى سندا فى القرآن الكريم ففيه أن قريشا كانت تعترف بأن الله هو رب السموات والأرض : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل : الله ، قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم : قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

ونجد إقرار قريش بوجود إله واحد خالق السموات والأرض فى مواضع أخرى من القرآن الكريم . ففى سورة العنكبوت « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله . فأنى يؤفكون » . وفى هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه إلى المشركين « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » وفى سورة لقمان سؤال آخر موجه إلى

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام . الجزء الخامس صفحة ٢٤١ وما بعدها .

أولئك المشركين وجواب صادر منهم هو هذا الجواب نفسه . إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله ، قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » . وهناك آيات أخرى على هذا النحو فيها أسئلة موجهة إلى المشركين عن خالق السموات والأرض ، وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفى القرآن الكريم أن قريشا كانت تعتقد أن الله هو الذى ينزل المطر ويحيى الأرض بعد موتها : « ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » . وفيه أنهم كانوا يقسمون به وأنهم كانوا قد جعلوا له نصيبا مما ذرأ من الحرث والأنعام ، وأنهم كانوا يقولون إن الله هو الذى شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحدا : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرّمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، وأنهم كانوا يتضرعون إليه ويستغيثون به فى الكوارث والملمات ، وأنهم جعلوا له بناتا وبنين وشركاء للجن .

فلم يكن أهل مكة إذن كما يتبين القرآن الكريم قوما وثنيين على النحو المفهوم من الوثنية ، وجماعة جاهلية مشركة لا تفهم شيئا عن وجود خلق وخالق ، اعتقدت بآلهة عديدة ، وبأن الأصنام هى أرباب حقا تنفع وتضر . لا ، لم يكن الجاهليون على هذا النحو من الدين بل كانوا يعتقدون بوجود إله واحد خلق السموات والأرض ، فهم إذن فى عقيدتهم بالله موحدون . ولكن إذا كان أهل مكة على هذا النحو من العبادة فلم خاصموا الرسول وحاربوه ؟

ولم آذوه وتآمروا فيما بينهم على قتله وعبادتهم هى عبادته وتوحيدهم توحيد إسلامى أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامى ؟

أما الجواب : لم تخاصم قريش الرسول لعقيدته فى الله . ولم يخاصمهم الرسول ويسفه أحلامهم لعقيدتهم تلك فى الله ، إنما سفه أحلامهم وخاصمهم لإضافتهم أمورا إلى هذا التوحيد أبعدته عن التوحيد الخالص ، بأن جعلته شركا أو نوعا من التوحيد المشرك ، فجعلوا مع الله شركاء وتقربوا إلى الأصنام وذبحوا لها الأوثان ، وجعلوا له بنين وبنات ، وآمنوا بالجن إيمانا عطل كل سلطان وأمر لله واعتقدوا بالقربات وبالشفاعات لتقربهم إليه زلفى . فعقيدتهم فى التوحيد نوع من عقائد النصرانية فى الملائكة والقديسين الشفعاء بين الله والناس . وهذا ما حاربه ورفعه الإسلام بأن اجتث الوساطة وجبَّها وجعل الدين خالصا لله وعبادة بينه وبين عبده ، وطهر التوحيد من زوائد الشرك وهدم ما لم يتفق مع هذا التوحيد ، ولهذا غضبت صناديد قريش وأظهروا للرسل ما أظهروه من كفر وعناد .

وقد كان أصعب شىء على صناديد مكة تغيير ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من سنن وعادات ، فقد كان الخروج عليها عارا ومنقصة لا تليق بالشهم الكريم : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . ثم إنهم كانوا يتعيشون من هذه العنعنات ومن وصايتهم على الأصنام ومن سدانتهم ، وإسلامهم وإيمانهم برجل لم يرث مالا ولا يملك تجارة ولا عقارا جاء بدين لم يألفوه ، يساوى بين الغنى والفقير والأسود والأبيض ، شىء لا يتفق مع ما ورثه القوم من سنن وعوائد اجتماعية . ومن هنا كان الإسلام فى عرفهم هدما وتقويضا لعقيدة راسخة ونظام اجتماعى وسياسى يجب أن يدوم دوام السنين والأيام .

وقد أوردت فى هذا الجزء من السيرة الحوار الذى دار بين كسرى أنو شروان وبين حكماء العرب عن فضل العرب وشرفهم ، وعلى الرغم من وضوح الوضع والتأليف فقد أثبته لأبين أن العرب لم يكن لهم علم قبل الإسلام ، فقد اتسمت المحاورات بالسطحية وإيراد حكم استعارها كانت ذلك الحوار من حكم الأولين ، ولم يكن من أقوال الحكماء غير السجع والتكلف والفخر الرخيص .

إن القرآن الكريم الذى أنزل على محمدبن عبد الله يتيم قريش هو باعث العرب ، وسيظل المنهل الذى ينهل منه العرب كلما أرادوا الرفعة إلى يوم الدين .

القاهرة فى ٢٠ / ٦ / ١٩٦٧

المراجـع

القرآن الكريم

تفصيل آيات القرآن الكريم — جول لابوم

السيرة النبوية — لابن هشام

السيرة الحلبية — لعلى بن برهان الدين الحلبى

تاريخ العرب قبل الإسلام — للدكتور جواد على

الأغانى — لأبى فرج الأصفهانى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

الحضارة البيزنطية — لستيفن رنسيمان ـــ ترجمة جاويد

Muslim Lnstitutions, By : M . G . Demombynes

Islam and Theory of Interest, By : Anwar Lkbal Kurashi.

فرويد — Three Contributions to the sexual Theory .

ميرزا على — Islam and Socialism.

أم النبى — للدكتورة بنت الشاطئ .

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ـــ ترجمة يحيى الخشاب .

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لفاسى المكى الماكى

البداية والنهاية — لابن كثير

الشفا بتعريف حقوق المصطفى	القاضى عياض
الروض الآنف	للسهيلى
تاريخ ابن خلدون	
مروج الذهب	للمسعودى
العقد الفريد	لابن عبد ربه
عيون الأخبار	لابن قتيبة
مختصر دراسة للتاريخ	لأرنولد توينبى ـــ ترجمة شبل
وفاء الوفا بأخبار المصطفى	للسمهودى

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

فى عشرين جزءا

رقم الإيداع ٢١٨٠
الترقيم الدولى ٥ ـــ ١١٤ ـــ ٣١٦ ـ ٩٧٧